

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

سلا ورباط الفتح

أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف
جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق
أحمد بن جعفر الناصري

الجزء الأول

(من ستة أجزاء)

1427هـ - 2006م

– السبب الثاني : كونه ينتمي – من جهة أمّه[1] – إلي بيت عريق، لا في العلم فحسب، بل وفي الجهاد البحري أيضاً، حيث خرج من ضئضئ رجاله عدد من الرؤساء والأميرالات الذين جلّوا في هذا الميدان، وكان لهم فيه بدأ وعودة، دفاعاً عن حوزة الوطن الذي نشبت فيه مخالب الاستعمار، وحماية لبيضة الإسلام الذي تطاول عليه المبشّرون والرُهبان، فتاقت نفسه إلى البحث في تاريخ هذا الجهاد البحري، والتنقيب عن جوانبه الغامضة، والتعرُّف على الرجال الأشاوس، والمحاربين الصناديد الذين قاموا به بكل شجاعة وإقدام، في ظروف جدّ صعبة، وبوسائل غالبا ما كانت دون وسائل أولائك الخصوم الذين كانوا يقارعونهم في أعالي البحار...

– السبب الثالث : كونه أراد بهذا العمل إزاحة النِّقاب عن حقبة مهملة منسية من تاريخ المغرب – وهي حقبة الجهاد البحري – أعقبت أفول نجم الإسلام عن الديار الأندلسية، وطمس معالم حضارتها اللامعة بأصقاعها، وطرد سكانها المسلمين من ربوعها، بمنتهى القسوة والشِّدة والغلظة، في ظروف مأساوية ينفطر لها الجنان، وشَره الدول الأوروبية إلى النزول بالسواحل المغربية واحتلالها، تمهيداً لفرض سيطرتهم على البلاد بأجمعها ؛ ولم يولها أحد من المعنيين بها، ولا الذين جاءوا من بعدهم، عناية كافية تجعلهم يجمعون للأجيال الآتية أخبارها بكيفية منظمة ومنسقة ومعمّقة، حيث أنّ كلّ ما خلّفوه لنا من أخبارها هو جمل ونُتَف وردت متفرقة عرضاً أثناء الكلام على قضايا أخرى، بينما دوّن لها – لمصلحتهم الخاصة – الكثير من الأخبار، الأجانب الذين احتكّوا بالمغرب ورجاله، من فرنسيين وإصبانيين وإنجليزيين وبرتقاليين وهولنديين، وغيرهم، وحفظوا لها الكثير من الوثائق، وترجموا للعديد من أولائك الذين برزوا على مسرح أحداثها...

وحرصاً منه على ملئ هذا الفراغ، تصدّى جعفر الناصري بعزم وإخلاص إلى البحث في هذا الموضوع، وأولاه كامل عنايته، وأمعن في تحليل أخباره، وتوفّق في تنسيق عناصره، بعد

1) هي السيدة البتول بنت الفقيه العلاّمة محمد عوّاد، وحفيدة الأميرال الحاج الهاشمي بن الرئيس الحاج أحمد عوّاد الذي أسند إليه السلطان سيدي محمد بن عبد الله رياسة الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي، وفوّض له فيه تفويضاً تاماً شاملاً، حتى كأنه وزير للبحرية، بظهير مؤرخ بـ 2 ربيع الثاني عام 1179، أثبته مع صورته مؤرخ الدولة العلوية المولى عبد الرحمان بن زيدان في كتابه : «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس». ج 3، ص 264-265، وهذا الأميرال هو جدّها للأم. كما أن الرئيس الأميرال الحاج بن حسّون بن أحمد عوّاد هو جدّها للأب.

جمعه لأوابده وشوارده، وأبرز للعيان ما تُنوسي وأهمل من مكنونه، وجلب إلى واضحة النهار ما كان مدفونا في غياهب الخزائن، مبعثراً في الأوراق والدفاتر، يصعب تتبُّعه في مضانّه، والاهتداء إليه في أماكنه ومكامنه، فجاء عمله هذا وكأنه شهادة صادرة لأول مرة – على ما في علمي – من مغربي مسلم ينتسب إلى أهل إحدى الحاضرتين اللتين منهما انبثق ذلك الجهاد البحري – أو القرصنة، كما كان يُعبّر عنه آنذاك – الذي أقلق راحة أوروبا ردحاً من الدهر، وأقام وأقعد ملوكها، وعرقل بسط هيمنتها ونفوذها على إفريقيا الشمالية طيلة أحقاب وأجيال، وأكسب المغرب هالة من المناعة والاعتبار في العالمين الإسلامي والمسيحي، دامت له إلى أن احتلّ الفرنسيون الجزائر، وهبّ المغرب للدفاع عنها ونصرتها، كعادته، وكانت وقعة «إيسلْي» التي محّص الله فيها المغاربة، وكانت من أدهى وأمرّ كبواته...

وأظن أنه لم يكتب أحد من بني جلدة جعفر الناصري في هذه المسألة مثل ما كتب هو فيها. فقد أحاط بموضوعها، واستقصى مادّته، واستوعب شعبه جملة وتفصيلا، مع حسن تبويب وعرض، وتناسب وبيان، مخلّلاً ذلك بنوادر وأدبيات وأشعار، وتراجم أعلام، في تنسيق محكم، وتصوير بديع للأحداث، ظهر من خلاله جانب من جوانب تاريخ المغرب المجيدة، وزال الغبار عن صفحة مشرقة من صفحاته الخالدة، لمّا كانت الأيام مقبلة، والدنيا خادمة، وكانت الدول الأوروبية العظمى تُقَدِّر قدره، وتخطب ودّه، وتسارع إلى تلبية رغبات ملوكه[2]...

ولمّا كان هؤلاء يتعاملون مع ملوكها معاملة النّد للنّد، ويتبادلون معهم السفارات والهدايا، ويعقدون معهم المعاهدات السياسية، والصفقات التجارية...

ولمّا كان سفراؤه، أمثال محمد تميم التطواني، وعبد الله بن عائشة السلاوي، ومحمد بن عبد الوهاب الغسّاني، وأحمد بن حدّو العطّار الريفي، والحسن بن محمد سكيريدو الرباطي، ومحمد بن عثمان المكناسي، وغيرهم، يُستقبلون في بلاطات وقصور باريز ومدريد ولندن وڤيينّا ونابّولي وأمستردام وسطوكهولم، بمنتهى الحفاوة والتعظيم، ويحظون بكامل التقدير والإعجاب، من لدن ملوكها وأقيالها ونبلائها ووزرائها، لما كانوا يتحلّون به من حسن سلوك، ورقّة طبع وبراعة فروسية، وحدّة ذكاء، وتمسّك بالمبادئ، وعجيب توقيع...

فكانوا يتعجّبون غاية العجب من ذلك، ويقولون : «كيف يمكن أن يكون هؤلاء المغاربة «البرباريون» (Les Barbaresques) على هذا المثال الأسمى من الأدب واللُّطف والتمدّن ؟

وخلال تناوله للأحداث، وسرده للوقائع والأخبار، لم يحد المؤلف عن دائرة الموضوعية

2) «الاستقصا»، ج 7، ص 94-95، طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

والمعقول، محاولاً في نفس الوقت – كلّما دعت الضرورة إلى ذلك – دحض مزاعم بعض الباحثين والمؤرخين الأوروبّيين الذين كانوا، تارةً يبالغون في انتقاد سلوك المغاربة وعوائدهم، لجهلهم لها، أو لمخالفتها لسلوكهم وعوائدهم، أو تعصّباً لحضارتهم التي كانوا يعدّونها أرقى من حضارة غيرهم، وتارةً يتعمّدون تغيير الواقع، وعدم الإخبار بالحقيقة، تقليلاً للأهمّية، وتنقيصاً من شأن أولائك القوم، لحاجة في نفس يعقوب.

قسّم المؤلف دراسته إلى أربعة أقسام :

– القسم الأول : (الجزآن : الأول والثاني)

ضمّنه تاريخ العُدوتين الرقراقيتين : سلا ورباط الفتح، منذ نشأتهما إلى العصر الحاضر، وجعل له مباحث تندرج في فصول، على حسب الأزمنة والدول، منذ عهد بني يَفْرَن إلى عهد الدولة العلوية. فبيّن كيف نشأ العمران وازدهر بهما في عهد كل دولة، وما خلّفته من الآثار الباقية، الشاهدة باعتنائها بهما، ووصف كل بناء من تلك الآثار، كالأسوار والأبراج والحصون والأبواب والمساجد والمعاهد والمدارس والزوايا، وغير ذلك وصفاً كاشفاً.

وأطال الحديث في كيفية عمران مدينة سلا في أول عهدها. وخصّ «بني عشرة» الذين مصّروها وعمّروها بدراسة ضافية، وترجم لعدد من أعلامها، وخلّل ذلك بأدبيات وأشعار، وذكر ما تجدّد في هذه المدينة من حوادث، كإيواء لسان الدين ابن الخطيب إليها في دولة بني مرين، وأسهب في الكلام على ثلاثة مشاهد مشهورة بها : المسجد الأعظم ومدرسة أبي الحسن، وزاوية النسّاك، دون إهمال باقي المآثر الموجودة بها.

ثم انتقل للحديث عن حدوث رباط الفتح وعمرانه، لمّا بلغت الدولة الموحدية أوج عظمتها، أيام واسطة عقدها، يعقوب المنصور، وخصوصاً بعد الهجرة الأندلسية، وازدهار الحضارة به ازدهاراً لافتاً للأنظار، ونبّه على أنه أُسّس من أول يوم ليكون صلة وصل بين مدن المغرب الشمالية والجنوبية، ومجتمعاً للجيوش المرابطة فيه، بقصد الجهاد والعبور إلى العُدوة الأندلسية ؛ وعلى أنه كان دائماً محلّ اعتناء الملوك به، بتردّدهم عليه، وإقامتهم به، إلى أن أصبح في عصرنا هذا عاصمة المملكة المغربية.

وخصّ كُلاّ من شالّة ومسجد حسّان وقصبة الأوداية بدراسة شاملة أظهرت فخامة ومحاسن كل واحد منها.

وختم كلامه عن هاتين المدينتين المتقابلتين بمقامتين أدبيتين تجلّت من خلالهما روائع هاتين الحاضرتين، وأتبع ذلك بباقة من مختار الأشعار البديعة الرائقة التي قيلت فيهما وفي قطّانهما.

القسم الثاني : (الجزآن : الثالث والرابع)

خصّصه للكلام عن القرصنة بصفة عامّة، منذ نشأتها، وعن أسبابها، وحوادثها، وعواقبها، وما احتفّت به من مصائب وأهوال، وفتنة في الدين، وطول أسر واسترقاق، وأتى – للذكرى والعبرة – بأسماء مائتي مغربي نالهم العذاب في السجون والسفن المجذافية (les galères) الفرنسية، ونبّه على أنها تعاطتها جميع الدول التي كان لها شأن وأساطيل وسواحل بحرية، لأسباب عدة، ثم بيّن أن القرصنة السلاوية الرباطية، كانت قبل كل شيء، وفي معظمها جهادية، دفاعاً عن النّفس والدّين والوطن، وجواباً عن طرد المسلمين من الأندلس، ثم تصدّياً لمحاولات الدول الأوربية الهيمنة والاستيلاء على شواطئ المغرب، وعرّف ببعض الأعلام الذين كانوا ضحية لأعمال القرصنة الأوربية ...

وبعد ذلك تفرّغ للكلام بتفصيل وبيان عن السفارات التي تبادلها ملوك المغرب مع ملوك أوروبا لفكاك الأسرى بين الطرفين، وإقرار السلم بينهما، وتسهيل التجارة، ووضع حد نهائي للقرصنة والاسترقاق الناجم عنها، وبيّن حرص المغرب على ذلك، متمثّلاً في الرسالة التي بعث بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى لويس السادس عشر، طالباً منه في نفس الوقت إبلاغ فحواها إلى باقي ملوك أوروبّا. لكن هذه الصّرخة الإنسانية المدوّية من أرجاء المغرب لم تجد، مع الأسف، آذاناً صاغية بأوروبّا.

القسم الثالث : (الجزء الخامس)

تطرّق فيه المؤلف للكلام عن الأسطول المغربي عبر التاريخ، من بداية الفتح الإسلامي إلى أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، عندما استقر الأندلسيون بالعُدوتين السلاوية ـ الرباطية، وكان كمقدمة للتفرغ إلي الحديث عن الأسطول القرصاني السلاوي ـ الرباطي، وعن أعماله القرصانية بصفة خاصة.

فبيّن أن هذا الأسطول كان فيما سلف من الدهر، تُخشى صولته، وتُتّقى في البحار جولته ؛ وما كان قائماً به من مواصلة بين العُدوتين المغربية والأندلسية، وباقي مراسي البحر الأبيض المتوسط، وسائر موانئ العالم الإسلامي ؛ وأنه هو الذي ساعد على نشر حضارة الشرق بين أمم هذا البحر، فامتزجت بحضارة الغرب، وتكونت منها حضارة إسلامية بالبلاد الأندلسية، وعمّت بعد ذلك سائر إفريقيا الشمالية، وعطّر أريجها جنوب القارة الأوربية.

ثم تصدّى للكلام بإسْهاب عن الأسطول القرصاني السلاوي ـ الرباطي، فذكر أنّه صال وجال حيناً من الدّهر في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ، وأنّ رؤساءه وبحريته كانوا يمخرون عُبابهما، ويتخلّلون شواطئ أوروبّا، ويصلون إلى الدُّول الإسكاندينافية

وسواحل إيسلاندا، بالشمال، وطرفاً من إفريقيا والجزر الخالدات وجزر أسوريس (Açores)، جنوباً ؛ وأنه كان الشجا في حلق الدول الغربية المتلهّفة إلى الاستيلاء على السواحل المغربية، وأطلعنا بتفصيل عن أنواع سفنه وعدد رجاله، ونظامه، وكيفية معيشة بحّارته وأعماله القرصانية، وعظم مغانمه، وكيفية تقسيمها ؛ وما كان له من آثار بالغة في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأقصى، إلى أن أخذ هذا الأسطول في الاضمحلال، واضطرَّ ملوك المغرب إلى تعطيله نهائياً بعد ما ظهرت القوة الخارقة للدول الغربية في جميع الميادين، وانعدم بذلك كل توازن بين القوتين المتحاربتين.

وأنهى كلامه بالإشارة إلى الجهود التي بذلها السلطان المولى الحسن الأول لبناء أسطول مغربي عصري قادر على مسايرة دواعي الدّهر، إلاّ أن تلك الجهود لم يكن لها غد...

القسم الرابع : (الجزء السادس)

جعله ذيلا وتكملة للقسم الثالث من دراسته، حيث حشر فيه ما أمكنه الوقوف عليه وجمعه من أخبار رجال ذلك الأسطول القرصاني الذي حدثنا عنه وعن أعماله آنفا، في شكل تراجم لرؤسائه وأميرالاته، منها ما هو مطوّل، ومنها ما هو مختصر، حسب غزارة أو شحّة الأخبار المتعلقة بكل واحد منهم، والتي استقاها من مصادر مغربية وأجنبية، وذلك من بداية القرصنة السلاوية ـ الرباطية في أواخر العهد السعدي، إلى نهايتها في دولة المولى عبد الرحمان بن هشام، مروراً بعهد الأندلسيين وحكومتهم الانفصالية، وعهد العياشي والدّلائيين، ثم عهد الدولة العلوية وملوكها : المولى الرشيد، والمولى إسماعيل، والمولى محمد بن عبد الله، والمولى سليمان، والمولى عبد الرحمان بن هشام والمولى الحسن الأول، رحمهم الله.

حرَّر المؤلف مباحث فصول دراسته بدقّة وموضوعية، واختار لكتابتها أسلوباً عربياً فصيحاً، مشرقاً، يرقى في كثير من الأحيان إلى نثرٍ فني، ونوّع فيه التعبير ما بين تسجيع وإرسال، حسبما تقتضيه طرق البلاغة ومقتضيات الأحوال، على النمط الأدبي العتيق، وهو ما أضفى على تآليفه حلة قشيبة.

عَملُنا في تحقيق الكتاب

اعتمدنا في ذلك على النسخة الفريدة الموجودة بخزانة المؤلف، رحمه الله، المكتوبة بخطّ يده، والمشتملة على خمسة أجزاء، مجموع صفحاتها 1024 صفحة، حجمها 20/30، مسطّرة، سالمة من كل ما يمكن أن يعتري المخطوطات من عيوب كالبرودة واليبوسة والبتر والتمزيق وعمل الأرضة.

كتبها مؤلفها بالخط المغربي، بقلم أزرق وأحمر في ما يخص عناوينها. وحرص على كتابة مراجعها وإحالاتها، وأسماء الأعلام والأماكن الجغرافية الأجنبية المذكروة فيها بالحروف اللاتينية، لتسهُل قراءتها، ويرتفع كل إشكال في ما يخصها.

هذا، ونريد أن نلفت نظر الواقف على هذه السطور، أننا أضفنا ملحقاً إلى هذا القسم من الدراسة، وهو الجزء السادس، يجمع بعض الوثائق التاريخية ذات الصلة بالموضوع، وصوَر عدد من المآثر والمشاهد التاريخية لمدينتي سلا والرباط، والله الموفّق.

الرباط، في ربيع النبوي 1427/أبريل 2006

أحمد الناصري

ترجمة المؤلف

هو أبو الفضل، جعفر الناصري، من سلالة حسب ودين، وأسرة عريقة في العلم والصلاح، يتّصل نسبه بالشيخ الإمام الشهير محمد بن ناصر الجعفري الزينبي، ثم الدرعي مؤسس الزاوية الناصرية بتامگروت، جنوب المغرب.

ولد بسلا في 23 شوال عام 1310، الموافق لـ 10 ماي سنة 1893، من أبوين كريمين : العلاّمة أحمد بن خالد الناصري، صاحب كتاب «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا» والسيدة الفاضلة البتول بنت الفقيه العلاّمة محمد عوّاد، وتكفّل بشؤون تعليمه وتربيته أخوه الأكبر، العلاّمة محمد العربي، فأدخله الكتّاب القرآني، حيث أخذ في حداثته المبكّرة كتاب الله عن أشهر الشيوخ المقرئين بسلا : أحمد التّيّال المتوفى عام 1900/1317 ؛ محمد حسيسو المتوفى عام 1907/1324 ؛ محمد بن عبد الله بريطل المتوفي عام 1916/1334، وعن هذا الأخير أخذ أحكام الرسم والتجويد والقراءات السبع.

وتابع بعد ذلك أخذ القراءات عن : الشيخ جلُّول الكفتي العنتري، إمام الزاوية القادرية بثغر الصويرة الذي انتقل إليه مع أخيه محمد العربي، وبعد رجوعه إلى مسقط رأسه سلا، أتمّ دراسته على الشيخين : محمد بوشعرة المتوفى عام 1943/1361، وعبد السلام السهلي المتوفى في نفس السنة.

وقد حفظ جعفر الناصري في صباه المتون العلمية المختلفة حفظاً متقناً، كالمرشد المعين، وألفية ابن مالك، ومختصر خليل، وتلخيص المفتاح، وغير ذلك من المتون الأصولية، وكذلك المعلقات السبع، ودواوين فحول الشعراء الستة، ممّا هو من أصول اللغة العربية.

ثم تفرّغ بعد ذلك لأخذ العلم بمعناه الأعمّ، وخصوصاً الفنون اللّسانية، والعلوم العقلية والنقلية والأدبية، بدءاً مع أخيه محمد العربي، المتوفى عام 1943/1362. وإليه يرجع الفضل في تكوينه الأوّلي بتلقين مبادئ العربية والسيرة النبوية والأصول الأدبية، وسرد الكتب الستّة الحديثية، وملازمة المذاكرة في المسائل العلمية المتنوّعة، والإرشاد إلى كيفية البحث عنها، والاهتداء إليها، والتصرُّف في خزائن الكتب لمعرفة مضانّها ومصادرها.

ثم مع ابن عمه الطيب بن المدني الناصري، مفتي الديار المغربية، المتوفى عام 1940/1359 وأحمد بن الفقيه الجريري، المتوفى عام 1935/1354 والشيخ السلفي شعيب بن عبد الرحمن الدكالي، المتوفى عام 1937/1356. لازمه إلى وفاته، وهو عمدته، وأجازه بخط يده تلقائياً، ودون سابق رغبة.

ومن جملة ما درس عليه معلقات الشُّعراء السَّبع، والمعاني والبيان والبديع واصطلاح الحديث والأصول ومختصر الشيخ خليل ؛

ثم مع الفقيه المحدِّث القاضي محمد الهاشمي ابن خضراء، المتوفى عام 1972/1354 ؛ وقاضي سلا علي بن محمد عواد، المتوفى عام 1935/1354 ؛

على أن أكثر دراسته كانت على يد العلامة النفّاعة، شيخ الجماعة بسلا، أحمد بن عبد النبي السلاوي، المتوفى عام 1972/1392

فقد لازم دروسه، صباح مساء، زهاء عشرين سنة، سواء بالمسجد الأعظم بسلا، أو غيره. حضر عنده في أمهات اللغة وقواعدها والفقه وأصوله، والحديث ومصطلحه، والمنطق، وأدب البحث والمناظرة، وأجازه إجازة عامّة، بخط يده، ودون سابق رغبة.

يُضاف إلى هؤلاء الأعلام الذين لازم دروسهم ومجالسهم أعلام آخرون، جمعته وإياهم الوظيفة المخزنية زمنا طويلاً، مدة الدولة اليوسفية وشطراً من الدولة المحمدية، وهم :

عبد الرحمن بن القرشي، محمد الرّنْدة الرباطي، الشريف السلَفي محمد بن العربي العلوي. فقد استفاد منهم الفوائد الجمّة، وقيّد من مذاكراتهم ومحاضراتهم أموراً مهمّة، فقهية وأدبية وتاريخية.

وفي أثناء رحلاته بإفريقية الشمالية ومصر والحجاز، اجتمع بعدة أعلام، وأجازوه على الطريقة والعادة الجارية بين العلماء في ذلك العهد.

ولما فُتحت المدارس العصرية لتعليم اللغة الفرنسية، كان جعفر الناصري من أوّل الوالجين أبوابها، المتنقّلين من ابتدائها إلى ما فوقه، بسلا أوّلاً، ثم بثانوية مولاي يوسف بالرباط، إلى أن تخرَّج منها حاصلاً على المسكة العلمية التي تفتح الآفاق الخارجية في مجال البحث العلمي.

هكذا ازدوجت ثقافة مترجَمنا، فكانت في نفس الوقت أصيلة متينة، وحديثة مُتفتّحة، وعُرف، وهو ما يزال في ريعان الشباب، أديباً ممتازاً وشاعراً رقيقاً، وناثراً بليغاً، وباحثاً مُدقّقاً...

كما أُشرب حبَّ علم التاريخ من والده مؤلف «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا» و«طلعة المشتري في النسب الجعفري» و«كشف العرين عن ليوث بني مرين»، فكانت له جَوَلات في مختلف الميادين الأدبية والتاريخية المتعلِّقة بعُدْوَتَيْ المغرب والأندلس...

وأكثر ما انصبَّ اهتمامه على تاريخ مسقط رأسه سلا، وجارتها رباط الفتح ؛ وشُغف بابن الخطيب منقّباً عن آثاره، متتبّعاً ما يُنشر عنه في الداخل والخارج، مُنشئاً في شأنه من البحوث والرسائل والقصائد، تحليلاً وتعليلاً، ومعارضة ومحاكاة، وإشادة وتنويهاً، ومنافرة ومنابذة، وتفجعاً ورثاءاً...

انتحل جعفر الناصري الشعر في زمن مبكّر، إبَّان التعاطي ومجالس الأنس مع الأحباب، وخواصِّ الأصدقاء والأتراب. ولم يكن له اعتناء بجمعه وتدوينه، فلم يبق منه إلاَّ النَّزْر اليسير، أثبته في ديوان صغير ضمَّ شوارده وحفظ أوابده. وقد نُشر بعضه في بعض المؤلفات والصحف والمجلات، وغالبه لا يخرج عن أوصاف الجمال، وعيشة التَّصافي والأنس والمرح والإخوانيات ومدح الأشياخ بمناسبة ختْم المُتون. ولم يخطر بباله قطُّ التخصُّص بالقَريض، والطّموح إلى الوصف بالشاعر. وإنما كان همُّه من الشعر معرفة مادَّته، وتحصيل آلته، تكميلاً لحياته التربوية، ومعلوماته الأوَّلية، لأن ذلك كمال لِلْفتى، ومظهر من مظاهر نخوته ونجدته ومجده، وبه يُعْرَف مقامُه بين قومه. وإلى ذلك يشير أبو العلاء المعرِّي بقوله :

أَرَى المَجْدَ سَيْفاً وَالْقَرِيضَ نِجَادَهُ وَلَوْلاَ نِجَـادُ السَّـيْفِ لَمْ يُتَـقَلَّدِ
وَخَيْـرُ حَمـالاَتِ السُّيُوفِ حَمَالَةٌ تَحلَّتْ بِأَبْكَارِ الثَّنَاءِ الْمُـــخَلَّدِ؛

وأبو تمّام بقوله :

وَلَوْلاَ خِـلاَلٌ سَنَّهَا الشِّعْرُ مَادَرَتْ بُغَـاةُ النَّدَى مِنْ أَيْنَ تُوتَى الْمَكَارِمُ

خلَّف جعفر الناصري ما لا يقلُّ عن عشرين مؤلفاً، نذكر منها :

«المحيط بالمهمّ من صحراء المغرب وشنقيط»

«الإحصا لِمَا وقع بعد الاستقصا»

«الكتابة والكتب والمكاتب»

«ابن الخطيب بسلا»

«ماضي القرويين وحاضره»

«الأسطول المغربي عبر التاريخ»

هذا ما يخصُّ بعض إنتاجه الفكري، أما عن حياته وسيرته، فقد كان - رحمه الله - متشبّثاً بالفضائل والمثل العليا، وعلى جانب كبير من الاستقامة والنزاهة، دمث الأخلاق، لَيِّنَ الجانب، طَيِّبَ المعاشرة، عفيف اليد واللسان ؛ اشتهر بذلك عند الخاص والعام.

كما كان مُغْرماً بجمع الكتب، شغوفاً بالبحث عن نفائسها، باذلاً الغالي والنفيس في اقتنائها. وقد حكى في تأليفه : «الكتابة والكتب والمكاتب» ما وقع له من النَّوادر في تيسيرها، والحصول عليها، كلما تشوَّفت النفس للوقوف عليها، أو مراجعة شيء فيها، دؤوباً على نسخ الغريب أو النادر منها، ولا زال بخزانته زُهاء عشرين مجلداً بخط يده.

وكانت وفاة جعفر الناصري يوم الأحد 26 ذي الحجة عام 1399، الموافق لـ 16 نونبر سنة 1980، ودُفن بمسقط رأسه، بزاوية أجداده، رحمه الله تعالى.

الحمد لله

تاريخ الشرفاء السعدية والعلوية الهاشمية

وضعية المغرب الجغرافية الطبيعية (1)

إن وضعية المغرب الجغرافية الطبيعية، كانت أحد الأسباب التي قربت الأوروبيين عنه، وغلقت أبوابه في وجوههم دهرا طويلا، مع أنه على قرب منهم من أوروبا، ويقع سواحله شمالا وغربا بحران عظيمان، فهما أكبر في الكائنات البشرية، منذ عصور وأجيال متطاولة، تحرمهما السفن [illegible] منع الإنسان ركوب البحار وتمرن عليهما. وهما: البحر الأبيض المتوسط شمالا، والمحيط الأطلسي غربا. [illegible] سواحله على هذين البحرين العظيمين غير قابلة لارتياد السفن والإرساء فيها بسهولة وأمن واطمئنان.

وإذا وجدت بعض الأجوان والمواني الصالحة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فإن المسالك الزراعية منها إلى الداخل تعترضها في الغالب سلاسل الجبال الشاهقة التي تجعل المواصلة الصعبة [illegible] العسيرة [illegible] الجوانب الرابطة بين الساحل والداخل، والمدن والقرى والعمائر التي في المغرب الحقيقي.

أما سواحل المحيط الأطلسي فإنها وإن كانت سهلة أيضا، لعدم وجود جوانب كبيرة بها، فإن الداخل فيها بالفرصة، اختاروها للدخول إلى داخلية المغرب بأنها أقل خطرا من غيرها.

ولذلك، تجد الغزاة الأجانب طرقوا سواحل المغرب الغربية، وأسسوا فيها مراكزهم التجارية، وحصروها عند مصب الأودية والأنهار في هذا البحر.

[illegible] حول

مصب نهر أبي رقراق

ومن مصاب الأودية المشهورة التي تشق حوضها الحمراء منذ العصور القديمة مصب نهر أبي رقراق. الجارية فيها سفن القرصنة من الأندلس الوسطى، وقد اكتسب هذا الجزء من هذا أهمية كبرى، لكونه حدا طبيعيا فاصلا بين شمال المغرب وجنوبه.

هذا، ومع أن مجرى أبي رقراق تجتمع فيه الرمال عند مصبه في البحر فتصير حاجزا خطرا على السفن الداخلة إليه، والخارجة منه، فإنهم كانوا يجوبونها [illegible] وسائر تجرها التيار في بعض الأحيان.

---

(1) مقدمة المجلد الثاني من الوثائق الغير المطبوعة من تاريخ المغرب، سلسلة السعديين، البعثة الفرنسية للكونت دوكاستري " De Castries "، صفحة 10 وما بعدها

الصفحة الأولى من مخطوطة المؤلف

بسفن مصحوبة من المراكب الحربية، والخدمة البحرية.
وقرأت في الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن زيدان، بيتاً يختم إتحاف
أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس(1)، واشتهرت تسمين
الكرارعة راسية من سنتجية بشاطئ العرائش، وكانت تتردد
من حين لآخر بين بعض المراسي المغربية الأخرى إذا اقتضى الحال ذلك،
إلى أن كان ما سنذكره من مآلها، وانتهاء أمرها.

بيع قطع الأسطول
المغربي وانتهاء أمره.

كان السبب في بيع قطع الأسطول المغربي أن السلطان المولى
الحسن الأول رحمه الله، يشير إلى أن يجعله قوة لأساطيل مغربية
يساير بها روح العصر، ويتقدم مع الأيام، ويحيي به ما سلف من عز غابر،
وعز تليد، للبحرية المغربية.

ولما اشتدت الأزمة المالية، وتضايقت ملابساتها، عقب
سنة أربع وتسعمائة والألف 1904 (1322)، ومؤتمر الجزيرة
الخضراء، وقلت المداخيل، وتعذر تنفيذ مشروع الترتيب، ونفر
أرباب الشكل للمخزن فيه محذوراً من المال للتنفيذ على إقراض
بعض البنوك، يشترط أن لا يتحصل عوضاً عن جباية الترتيب،
أرضى القوانين، حتى يطبق ما أقره المؤتمر بشأنها، لم يجد
المخزن ما يسدد به نفقات الخزينة، ويغطي به حاجيات الدولة.

بادر حينئذ إلى بيع ما كان تبقى من قطع الأسطول، للقيام ببعض
الشؤون الضرورية، وفقاً بقول الزيادة الحالة المستعجلة،
واستراحة مما كان ينفق عليه، وعلى الموظفين القائمين به من القوائم
المتوالية الثقيلة.

قال ويز جيربير "Weisgerber" في كتابه المسمى "على
عتبة المغرب الحديث" "Au Seuil du Maroc Moderne"
(2) تم بيع [illegible] الجميلة الحربية "بشير الإسلام"، بتواطؤ الأعلام،
إلى كولومبيا، "Calambia" بكيفية غريبة، [illegible]
الباريسية، ولكن قبل تسليمها، بعشر [illegible] من الليالي، بثمن
خمس دراهم معروفة، وما شاهدها من الناظرين.

ثم بعثتها البواخر الأخرى المسماة: "التركي الكبرى والتركي
الأصغر"، وتلتها الباخرة المسماة "الحسني"، ولم يبق للمغرب ذلك
العهد علم يرفرف على وجه البحر، ولم يبق أعلام الأسطول المغربي وخدمته وحزبه
من الوجود، وسبحان الحي الدائم الموجود الذي بيده الأمر، ويفعل
ما يريد في الوجود.

---

(1) صفحة 605 من الجزء الثاني، (2) صفحة 154 [illegible].

الصفحة الأخيرة من مخطوطة المؤلف

الفصل الأول

عن تأسيس سلا
وعن بني عشَرة

المبحث الأول
نشوء العمران حول مصبِّ نهر أبي رقراق [1]

وضعية المغرب الجغرافية الطبيعية

إن وضعية المغرب الجغرافية الطبيعية، كانت إحدى الأسباب التي صرفت الأوربيين عنه، وغلقت أبوابه في وجوههم دهرا طويلا، مع أنه على رمية سهم من أوربا. ويغمر سواحله شمالا و غربا، بحران عظيمان، لهما اثر كبير في الحضارة البشرية منذ عصور وأجيال متطاولة، تجري فيها السفن منذ عرف الإنسان ركوب البحار و تدرب عليها، وهما : البحر الأبيض المتوسط شمالا، والمحيط الأطلانطيقي غربا، لأن سواحله على هذين البحرين العظيمين، غير قابلة لإيواء السفن والإرساء فيها بسهولة وأمن واطمئنان.

وإذا وُجِدَتْ بعض الأجوان أو الموانيء السَّهلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فإن المسالك الذاهبة منها إلى الداخل، تصطدم في الغالب بسلاسل الجبال الريفية الشامخة السامقة الصعبة المرتقى، العسيرة التخطي والجواز، إلى البسائط السهلة الخِصبة، والمدن والقرى والعمائر، التي هي المغرب الحقيقي.

أما سواحل المحيط الأطلانطيقي، فإنها وإن كانت صعبة أيضا لعدم وجود موانيء طبيعية فيها، فإن الملاحين القدماء اختاروها للولوج إلى داخلية المغرب، لأنها أقل خطرا من غيرها.

ولذلك، نجد القرطاجنيين طرقوا سواحل المغرب الغربية، وأسسوا فيها مراكزهم التجارية، خصوصا عند مصب الأودية والأنهار في هذا البحر.

---

1) مقدمة المجلد الخامس من الوثائق غير المطبوعة من «تاريخ المغرب»، سلسلة البلاد المنخفضة للكونت دو كاستري "De CASTRIES" ص 10 وما بعدها.

مصبّ نهر أبي رقراق

ومن مصاب الأودية المغربية التي نشأ حولها العمران منذ العصور القديمة، مصب نهر أبي رقراق، الجارية مياهه الغزيرة من الأطلس الأوسط.

وقد اكتسب وَضْعُهُ الجغرافي هذا أهمية كبرى، لكونه حَدّاً فاصلا بين شمال المغرب وجنوبه.

هذا، ومع أن مجرى أبي رقراق تجتمع فيه الرمال عند مصبه في البحر فتصير حاجزا خطرا على السفن الداخلة إليه، والخارجة منه، فإنهم كانوا يعالجونها أو يجرفونها، وتارة يجرفها التيار في بعض الأحيان. وإذا جاوزته السفن وجدت عمقا جيدا، أو مرسى آمنا ترسي فيه، وتأوي إليه المراكب التجارية، والأساطيل الحربية، لاتخاف دَرَكاً ولا تخشى.

مدينة سلا الحديثة العامرة الآن[2]

وعلى الضفة الشمالية المنخفضة لهذا النهر، تلاحق عمران مدينة سلا الحديثة العامرة الآن، بعد خراب شالة لمقصد حربي في حروب بَرَغواطة، والمرتبط اسمها بالقرصنة الجهادية الرقراقية، أواخر الربع الأول من القرن الثالث الهجري، الموافق لأواخر العقد الرابع من القرن التاسع للميلاد.

وأما سلا القديمة أو شالة، وكيفية حدوثها وعمرانها في العهد القديم، فهو موضوع خاص، وبحث مستقل، يحتاج إلى درس خاص.

كانت عمارة سلا الحديثة، في أول تكوينها، كتلا وعمائر متفرقة من مهاجرى شالة، ومن انضاف إليهم من المجاهدين والمرابطين برباطها حول شالة البَرَغواطية. ولم تزل تنمو وتسمو إلى أن اتخذها بنو يفرن، ملوك ناحيتها إلى تادلا وما والاها من البلاد، مركزا من مراكزهم، وفي عهدهم تزايد عمرانها، وتواصل بنيانها، وذكر في التاريخ اسمها.

---

2) مراجع فصول عمران سلا «جغرافية ليون الإفريقي»، «جغرافية الإدريسي»، «جغرافية ابن حوقل»، «الاستبصار»، «جغرافية أبي الفدا»، «معجم البلدان»، «ابن خلدون»، «نفح الطيب»، «الاسقصا»، «إتحاف أشراف الملا» لابن علي الدكالي، «القرصنة السلاوية» لروجي كواندرو.

Les corsaires de Salé par Roger Coindreau

واشتهرت في ذلك العهد، بمرابطة المجاهدين برباطها للجهاد في البَرَغْواطيين بتامسنا، حتى قيل : إنه في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد)، كان يجتمع فيها نحو مائة ألف من المرابطين المجاهدين في سبيل الله.

وفي ذلك يقول مؤرخ سلا أبو عبد الله محمد بن علي الدكّالي السلاوي في رجزه المسمى : «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار عدْوتي الرباط وسلا» :

تَمَّتَ دَوْلَةُ بَنِي الأَفْرَانِ　　أَهْلِ الجِهَادِ عُظَمَاءِ الشَّانِ

إلى أن قال :

واشْتَهَرَتْ فِي عَهْدِهَا القَدِيمِ　　بِمَرْبِطِ الجِهَادِ فِي الإقْلِيمِ
فِي رَابِعِ القُرُونِ كَانَتْ مُجْتَمَعْ　　لِمِائَةٍ مِنَ الأُلُوفِ قَدْ وَقَعْ
لِغَزْوِ كُفَّارِ البَرَابِرِ وَقَدْ　　عَمَرُوا تَامَسْنَا وَشَرُّهُمْ وَقَدْ
فَاقْتُلِعَتْ جُرْثُومَةُ الأَغْمَارِ　　مِنْ كُلِّ بَرْغَاطٍ بِلاَ إِنْكَارِ
وَطَهَّرَ اللَّهُ بِلاَدَ المَغْرِبِ　　بِمَنْ بِهَا رَابَطَ مِنْ كُلِّ أَبِي

المبحث الثاني

بَنو عَشَرة

تمهيد

منذ سَبْع وعشرين سنة مضت، كان كتب لي الشيخ الفقيه، مؤرخ سلا والباحث في آثارها ومآثرها، وتراجم علمائها، ومشاهير أعيانها، أبو عبد الله محمد بن علي الدكّالي السلاوي، بطاقة يطلب فيها مني إعانته بالبحث عن ترجمة الأخوين : إبراهيم وأحمد ابني المُدَبّر، لأنَّ ابن الأبَّار ذكر في «أعتاب الكتاب»، وابن عبد الملك المراكشي ذكر في «الذَّيْل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» أن بني عشرة السلاويين ينتسبون إلى أحمد بن المُدَبِّر، وعدَّ هذه الإعانة من الحقوق المتعينة علينا لإحياء مجد سلا وأهلها.

ونص بطاقته :

الحمد لله،

المرجو من السيادة المعظمة، حرس الله مجدها، أن تراجعوا لمحبكم في اللّه وأخيكم من أجله، ترجمة إبراهيم بن المُدَبِّر، وزير المعتمد على الله العباسي.

فإن القاضي ابن عبد الملك المراكشي ذكر في ترجمة قاضي سلا الشهير، علي بن محمد ابن موسى بن القاسم بن عشرة، أنه ينتسب لأحمد بن المدبر، أخي وزير المعتمد على الله.

ومثله عند ابن الأبَّار في «أعتاب الكتاب».

ولأني لم أعثر فيما عندي من المواد التاريخية على ترجمة الرجلين، فأرغب من السيادة أن تعينوني على البحث في هذا الموضوع، لأنه من الحقوق المتعينة علينا وعليكم، إحياء لمجد سلا و أهلها.

ودمتم في عناية الله والسلام

محمد بن علي الدكّالي.

وحيث كانت المهمة في ذلك الوقت مصروفة في درس مسائل أُخْرى :

علمية وأدبية، تستغرق ما يفضل من الوقت النَّفيس الذي كانت تشغله الوظيفة العمومية التي كنا مطوقين بها، فقد اكتفيت في جوابه إذ ذاك بإحالته على بعض المظان المهمَّة التي يُظَنُّ فيها استيعاب أخبار «آل المُدَبِّر» ووجهت له بعض المراجع التي كانت موجودة عندي في خزانتي في ذلك العهد.

ونص ما أجبته به :

الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

وعلى سيادة حبيبنا وصفينا الودود المحبوب، العلامة المؤرخ، أبي عبد الله، سيدي محمد بن علي الدكالي، أزكى السلام وأعذبه وأطيبه ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، وصلت بطاقتكم السنية، في شأن البحث عن ترجمة الأخوين : أبي إسحاق، وأبي العباس ابني المدبر...

فليكن في علم السيادة، أننا راجعنا ما أمكننا مراجعته الآن مع ضيق الوقت حرصا على التعجيل بجوابكم، وها خلاصة ذلك.

ءال المدبر هم : أحمد، ومحمد، وإبراهيم، وكلهم كاتب بليغ، وشاعر مجيد، وما منهم إلا من ولي الولايات الجليلة، وعمل للسلطان الأعمال النافعة، في عهد الخلفاء العباسيين من المعتصم إلى المعتضد.

ولأحمد وإبراهيم أخبار حسان، وآثار في كتب الأدب والتاريخ.

وجاء في ذكر مؤلفات الجاحظ أن له كتابا سماه : «كتاب آل إبراهيم بن المدبر في المكاتبة»[3].

وقد ترجم لإبراهيم هذا، ياقوت في «معجمه» وأبو الفرج الاصبهاني في «كتاب الأغاني»، (ج 19، ص 114) ترجمة واسعة، كما ذكره أبو جعفر الطبري في تاريخه، وابن الأثير، عند الكلام على دولة المعتمد على الله، والمعتضد بعده، وكذلك فيما قَبْلَهُمَا من الخلفاء منذ المعتصم.

---

3) «إرشاد الأديب» لياقوت، ص 108، ج 16.

وكانت وفاته بمدينة منبج سنة تسع وسبعين ومائتين 279 (يناير سنة 894) رحمه الله تعالى.

وورد ذكره أيضا في «الأغاني»[4] في ترجمة عريب.

في الجزء 18 صفحة 175 وما بعدها

وفي الجزء 9 صفحة 25

وصفحة 27

وصفحة 108

وصفحة 113

وفي الجزء 19 صفحة 29

وفي الجزء 15 صفحة 88

وأما أخوه أحمد، فلم نعثر له الآن[5] على ترجمة مستقلة، وإنما وردت أخباره مدرجة في ترجمة أخيه أبي الفرج، ومبعثرة في غيرها من التراجم، فورد ذِكْرُهُ في الأغاني :

في الجزء 5 صفحة 95

وفي الجزء 9 صفحة 27

وفي صفحة 32

وفي الجزء 8 صفحة 41

وها الجزء التاسع عشر من «الأغاني»، والأول من «معجم ياقوت» يصلانكم صحبته لتطالعوا ما فيهما، وان يسر الله في العثور على شيء آخر فسنوافي السيادة به بحول الله.

ونحن على استعداد لإعانتكم بكل ما في وسعنا، لاَ عَدِمْنَا أخوتكم ومحبتكم وإعانتكم، فانكم أسبق في هذا الميدان، ولا يقعقع لكم فيه بالشنان، والله يتولى حفظكم، وعلى المحبة والسلام.

---

4) طبع الساسي.

5) نعم ترجم له ترجمة مستقلة ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ص 60 من ج 2 طبع دمشق.

تسميتهم ببني عَشَرة

ليس لدينا نص صريح نعتمد عليه في سبب تسميتهم ببني عشر، أو تسمية جدهم بعشرة، واشتهارهم بذلك.

وإنما يؤخذ مِمَّا أحال عليه ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة» في رسم أبي علي الحسن منهم، انه تكلم على الأسطورة المنسوبة إليهم، وهي أنهم ولدوا عشرة في بطن واحد، ولذلك سموا ببني عشرة، حسبما يؤخذ مِمَّا نقله عنه الفقهاء مُحَرَّفًا عند الكلام على إيقاف قسم المتروك لأجل الحمل، كما سيأتي بيانه والتنبيه عليه وعلى إصلاح التصحيف الواقع فيه في الفصل المعقود لهذه الأسطورة، آخر هذه الدراسة.

وحيث أننا لم نقف على هذا الرسم المحال عليه، فانَّنَا لا ندري ما انفصل عليه من نفي أو إثبات لهذه الأسطورة، ولعله نفاها، لأنه قال : ويقول بعض الأغمار، كما يؤخذ من النص المُحرَّف الذي نقله الفقهاء.

والذي يظهر لنا، ان اسم جدهم عشرة، منقول من اسم العدد، على عادة أهل الأندلس. فقد كانوا يُسَمُّونَ بالأعداد، كابن عاشر، وابن خمسين، وابن سبعين، ونَحْوِ ذلك، فَنَسِبُوا إليه وسُمُّوا «بني عشرة»، والله أعلم.

انتساب بني عشَرة لآل المدبّر وما قيل في ذلك

ذكر بعض المؤرخين وكُتَّاب التراجم أن بني عشرة السلاويين ينتسبون إلى أحمد بن محمد بن المدبّر العراقي الشهير.

وأول من وقفنا عليه حتى الآن ذكر ذلك أبو الحسن علي بن بسَّام الشنتريني المتوفى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة (1147/542) في كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»[8] لما ترجم للشاعر أبي بكر محمد بن سوار الأشبوني بلفظة (بلغني) فقال :

ولبني القاسم (يعني بني عشرة) خيم كريم، ولهم تقدم مشهور معلوم، بلغني أن جدهم الأكبر أحمد بن المدبر، حامل تلك الفضائل، وصاحب الأعمال الجلائل، إذ كان أحد نجوم تلك الآفاق، ببلاد الشام والعراق، واشتهار معرفة قدره، يمنع عن ذكره...

8) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1324 D. ورقة 148.

ثم أردف هذا التعريف، بذكر نبذة من أخبار ونوادر آل المدبر في عهد المتوكل العبَّاسي.

وقال ابن الأبَّار في كتابه «أعتاب الكُتَّاب»[9] في ترجمة ابن الوكيل اليابري الذي استجار ببني عشرة في نكبة نزلت به (ويذكر أن جدهم الأكبر، أحمد بن محمد بن المدبر).

ولما ترجم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي في كتابه «الذيل والتكملة، لكتابي الموصول الصلة»[10] لابن الحسن علي بن القاسم، من بني عشرة، زاد «الفزاري» وقال : وقد تقدم أصل بيان هذه الشهرة في رسم أبي علي حسن منهم، وأعقبه بقوله : «ويذكر أنهم من عقب أحمد بن محمد بن المدبر الكاتب، أخي إبراهيم وزير المعتمد وكبيره»، فاتفق في ذلك مع ابن بسَّام وابن الابَّار.

وحيث اتفق هؤلاء المؤرخون الثلاثة على نقل وحكاية هذه النسبة، وان كانت بصيغة لا تدل على الجزم، فيؤخذ منها أنها كانت معروفة مقولة منقولة عند الكتاب والمؤرخين منذ القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر، والثالث عشر الميلاديين) لان ابن بسَّام، توفي كما تقدم سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة (1147/542)، وابن الأبار قُتل سنة ثمان وخمسين وستمائة (1259/658)، وابن عبد الملك المراكشي توفي سنة ثلاث وسبعمائة (1303/703).

أما زيادته في ترجمة أبي علي حسن لفظة «الفزاري» فإننا نتوقف فيها الآن، مادمنا نجهل ما قال، ولا ندري ما أحال عليه في الترجمة المذكورة، لفقدان حرف الحاء من النسخة المخطوطة التي بين أيدينا، لاسيما وهم ينتسبون إلى ضبَّة، كما سيأتي بيانه.

ومع أن فزارة وضبَّة قبيلتان عدنانيتان، فإنه لا يمكن النسبة إليهما معا في آن واحد، اللهمَّ إلا أن يكون أراد بقوله الفزاري، النسبة إلى «العُشَرَاء» بضم العين وفتح الشين المعجمة. وهم بطن من مازن بن فزارة، وينسب إليهم جماعة من الشعراء، منهم : هرم بن قطْبة بن سيار الذي تحاكم إليه عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة، والربيع بن مقنب الشاعر، وغيرهم.

وفزارة من جملة القبائل العربية التي رافقت بني هلال في هجرتهم إلى مصر، ثم إلى المغرب الأوسط أولا، والأقصى ثانيا.

---

9) ص 244.

10) مخطوط أبي عبد الله محمد التطواني السلاوي.

وقال القلقشندي في «صبح الاعشى»[11] : «إنهم اختلطوا بسُلَيْم في طرابلس».

والحاصل أن النسبة إلى العُشَرَاء، مجرد احتمال لاغير، لأننا لم نعرف مراده بالفزاري.

وعليه، فلنعتمد النسبة المدبرية ونبحث فيها، ونأتي بشيء من أخبار آل المدبر، وأحمد المنتسب إليه، وكيف انحدر من العراق إلى الشام، ثم إلى مصر.

وليس ببعيد ولا غريب أن تكون ذريته تسربت من مصر إلى المغرب الأوسط، لوجود الأسباب الداعية إلى هذا التسرب في ذلك العصر، حسبما سيأتي بيانه مفصلا في محله.

---

11) صفحة 345 من المجلد 1.

المبحث الثالث

آل المدبِّر

آل المدبِّر، بكسر الباء المشددة، كما ضبطها ابن خلكان، وفَتْحِهَا مشددة كما ضبطها الذهبي في كتاب «المشتبه من أسماء الرجال»، ونص في أوله على أنه لايضبط من الأسماء بالحروف إلا ما يتعين ضبطه لخلاف فيه.

أصلهم

اختلف الأخباريون وكتَّاب التراجم وأدباء عصرهم في تحرير نسبهم، وتحقيق أصلهم، وهل هم عرب أم عجم.

فذكر ياقوت في «معجم الأديب» في ترجمة إبراهيم[12] انه كان يدعي النسبة في ضبَّة ولم يبين هل صلبية أو ولاء.

وضبَّة بن أُدّ بن طابخة من العدنانية، معدودة في جمرات العرب الثلاث، وكانت منازلهم بجوار بني تميم اخوانهم بالناحية الشمالية التِّهامية من نجد، ثم انتقلوا في الإسلام إلى العراق بجهة النعمانية[13].

وكانوا مع عائشة رضي الله عنها يوم الجمل، وفي ذلك يقول شاعرهم[14] :

---

12) ص 292 من ج 1 طبع مرجُليوت.

13) «قبائل العرب» ص 661 من ج 2.

14) «تاريخ الطبري» ص 209 من ج 5.

نحن بنو ضَبَّـة أصحـاب الجَـمَلْ نَنْعى ابن عـفـان بأطراف الأسَلْ
المـوت أحلى عندنا من العَسَلْ رُدُّوا علينـا شـيـخنـا ثم بَجَلْ

وفي نسبتهم إلى ضبة يقول مخلد بن الشامي الحوراني يهجو أحدهم ولعله ابراهيم[15].

عـلـى أبـوابـه مـن كـل وجـه قَـصَـدتٌ لـه أخـو مُـرٍّ بْـنِ أدٍّ

يعني ضبَّة بن أُدّ، ويقصد أن أبوابه مُضَبَّبة باللؤم ومحكمة عن الخير.

وبعد ذكر ياقوت لادعائهم النسب في ضبَّة قال . [16] إن أصلهم من سِتِمْسِيان، وهي غير معروفة، ولذلك علق عليها مُصَحِّحة مَرْجِلّيوت، بأنها لعلها سَلَمْسين وهي كما في «معجم البلدان»، قرية قرب حرَّان من نواحي الجزيرة بينها وبين حرَّان فرسخ[17].

ولما ذكر ابن حزم في «جمهرة أنساب العرب»[18] ضَبَّة ابا القبيلة، وعدَّد أفخاذها ومشاهير من يُنْسَبُ إليها، لم يذكر آل المدبّر منهم، ولكنه قال : يقال : «إن الديْلَم من ولده»، فهل آل المدبّر ينتسبون إلى ضبَّة من طريق الديلم ؟

وعلى كل حال فإن أبا عمر يوسف بن عبد البر، قد بسط الكلام في كتابه «القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم»[19] على الديلم وانتسابهم إلى ضبَّة، فقال :

ذكر الشرقي بن القطامي : أنه الديلم بن باسل بن ضبَّة بن أُدّ، ويزعمون أن باسلاً غزا أرض الأعاجم، فَأَثْخَن فيهم، ثم مات، فصار ابنه الديلم بمن تبعه من قومه إلى الموضع الذي هلك فيه أبوه باسل، فصادف الأعاجم قد استقام أمرهم وخشي الهلكة، فانحاز إلى الجبال التي بها الديلم اليوم، فأقام بها هو وولده.

واستدلوا على ذلك باتفاق هيئات الديلم وهيئات العرب.

وقال آخرون : بل خرج باسل مُغاضباً لأبيه حتى صار إلى أرض العجم.

---

15) «تاريخ ابن عساكر» ص 60 من ج 2 طبع دمشق عام 1330.

16) ص 292 من ج 2 «معجم الأدباء»، طبع مَرْجِلّيوت Maryolıouth.

17) ص 111 من ج 5.

18) ص 192، دار المعارف بمصر.

19) طبع دار السعادة بالقاهرة، عام 1350.

وذكر أحمد بن يعقوب الكاتب وغيره : أن الديلم من بني ضبَّة بن أُدّ بن طابخة بن إلياس ابن مُضَر.

وذلك أنَّ باسل بن ضبَّة، نافر إخوته، فصار إلى بلاد الديْلم، فأقام بها، وأنْسَلَ فيما يزعمون .

قال : وهذه الطائفة من الديلم مقيمون على هذا النَّسب، مُعْتَزِلُون لسائر أجناس الديلم.

قال أبو عمر . هذا يدلّ على أن أكثر الديلم وأصلهم ليس من العرب، فهم - والله أعلم - من ولد البُرْجان بن يونان، بن يافث، بن نوح، عليه السلام، كما قيل.

وقد رَوى عن النبي ﷺ، فَيْروز الديْلمي، وهو أحد الذين كتب إليهم رسول الله ﷺ في قتل الأسود العنسي المتنبئ الكذاب.

ولفيروز الديلمي أبيات فيها.

بَنو الدَّيْلَمِ المِـقْـدامِ مِنْ ءال بَاسِلٍ   أَبى الخَفْضَ واخْتار الحَزْونَ على السَّهْلِ

انتهى كلام أبي عمر، ولم يرد فيه ذكر لآل المدبّر، وهذا يدل على أنَّ ادِّعاءَهم النسْبة لضبَّة كان مجرد قول منهم.

أمَّا ابن خلِّكان، فقد ذكر أحمد بن المدبّر استطراداً في ترجمة أبي بكريموت بن المزرع وقال في نسبه الضَّبِّي الرسْتَساني[20]، ولم نقف على هذا الإسم في المعاجم البلدانية التي بأيدينا الآن، ولعلها الرُّسْتُن، بُلَيْدَة قديمة كانت على نهر العاصي، على نصف الطريق بين حمص وحماة.

قال ياقوت : وقد اضمحلَّت وبقيت منها آثار.

ولما ترجم ابن عساكر لأحمد بن المدبّر قال : أصله من سَامَرًّا، ولعله أراد أنه كان من سُكَّانها، لكونها مقرَّ الخلافة وعاصمة الدولة في عهده، وقد كان أحد كبار موظفيها، وذوي الجاه والمكانة السامية بين أعيانها.

والذي يؤخذ صراحة من عدة قصائد من أمداح البحتُري فيهم أنهم فُرْس أعاجم ساسانيون كِسراويون.

---

20) وفيات، ص 54 من ج 6

ومن ذلك قوله من قصيدة يمدح بها إبراهيم : [21].

أُنَاسٌ قَدِيمُ المَكْرُمَاتِ وَحَدْثُهَا   لَهُمْ وَسَرِيرُ العُجْمِ فِيهِمْ وَتَاجُهَا

معناه : أنهم أناس عُرِفوا بالكرم قديما وحديثا، وكان في أسلافهم سرير ملك العجم وتاجها. وقوله من قصيدة أخرى يمدحه بها[22].

نَشَدُوا فِي بَنِي المُدَبِّر عَهْداً   غَيْرَ مُسْتَقْصَرٍ وَلاَ مَذْمُومِ

فِي المَحَلِّ الجَلِيلِ مِنْ رُتْبَةِ المُلْـ   ـكِ اسْتَقَلَّتْ وَالمَذْهَبِ المُسْتَقِيمِ

لِلنَّدَى الأوَّلِ الأخِيرِ الذِي بَرَّ   زَ وَالسُّؤْدَدِ الحَدِيثِ القَدِيمِ

هِيَ أُكْرُومَةٌ نَمَتْ مِنْ بَنِي سَا   سَانَ فِي خَيْرِ مَنْصِبٍ وأُرُومِ

لِلصَّرِيحِ الصَّرِيحِ والأشْرَفِ الأشْـ   ـرَفِ إنْ عُدَّ وَالصَّمِيمِ الصَّمِيمِ

يعني أنهم طلبوا في ءال المدبّر عهدا، أي ذمة ومودة غير ناقصة ولا مذمومة، لأنهم في المَحَلِّ الرفيع من الرُّتَبِ الملكية، ولأنهم موصوفون بالسؤدد والجود والفضل، وهذه أُكْرُومة، أي فِعْلُ كرم، نمت، أيْ نُسِبَتْ إليهم من بني ساسان، الذين لهم المرجع في الأصل والشرف والنسب الصريح المَحْضِ الخالص...

وقوله من قصيدة أخرى يمدح بها أبا غالب بن أحمد بن المدبّر[23].

رضِيتُ خَلِيلِي أَبَا غَالِبٍ   لِكَسْرِ الخُطُوبِ وَإِيهَانِهَا

تُعَدُّ لَهُ فَارِسٌ قُرْبَةٌ   وَزُلْفَى بِكِسْرَى بْنِ سَاسَانِهَا

إذَا سُئِلَتْ عَنْهُ عِنْدَ الفَخَا   رِ قَالَتْ بِأَصْدَقِ عِرْفَانِهَا

يَطُولُونَ مِنْهُ بِإِنْسَانِهِمْ   وَلِلْعَيْنِ طُولٌ بِإِنْسَانِهَا

21) «ديوان البحتُري»، ص 140 من ج 1، طبع الجوائب.
22) نفس المصدر، ص 130 من ج 2.
23) نفس المصدر ص 133 من ج 2.

أي أنه رضى خليله أبا غالب بن أحمد المدبر لكَسْر خُطوبه العظيمة، ودواهيه الجسيمة، إذا نَزَلَتْ به، وتبديدها، أي تشتيتها وايهانها، أي اضعافها، لأنَّ فارسا تعد له زُلفى، ومنزلة وقربى، من كسرى بن ساسان، وإذا سُئلت عنه عند الفخار والمباهاة بالخصال الكريمة المحمودة، قالت ذلك بصدق عرفانها، أي بما في علْمِهَا، وأنهم أي آل المدبر يَطولون منه، أي من كسرى بن ساسان، ويترفعون على غيرهم بانْسَانِهم أي كريمهم، وهو الممدوح، كما أن العين تطول، أي تفضل غيرها من الأعضاء بانسانها الذي هو سوادها أو حَدَقَتها.

ولولا أن البحتري الذي عاش في أيامهم، وعاشرهم، وعاصرهم، وجالسهم، وكان يَغْشَى مجالسهم، كان يعلم فارسيتهم وساسانيتهم، لما صرح بها في شعره، وتزلف إليهم بذكرها ونشرها.

ولولا أنه كان يعلم أنهم كانوا يُحِبُّون سماع ذلك منه، ويرتاحون لترديده وتسجيله في قصائده التي مدحهم بها، وأجازوه عليها، لما أقدم عليْه وتَقَرَّب إليهم به.

ولا يخفى أن الشاعر لا يمدح الممدوح إلا بما يتحقَّق أنه يحب أن يُمدح به من نسب عريق صريح، وحسب مَوْثُوق به صحيح، إلى غير ذلك من الخصال الحميدة التي يُمْتدح ويُتَمَدَّحُ بها كالجود والفضل والعلم والشجاعة... لأن الشعر سجل يحفظ للأجيال ما يُسَجَّل فيه أكثر من النثر.

وعليه، فإن القول بفارسيتهم رَاجِحٌ جداً لإقرارهم لهذه النسبة من شاعر كبير، وتسليمهم لها، بقولهم تلك القصائد وما جاء فيها.

وأما الإنتماء إلى ضبَّة، فالظَّاهر أنه كان انتماء ولاء فقط، كغيرهم من الأُسر الغير العربية في ذلك العهد.

وقد كان للأسر الفارسية والعجمية الشَّهيرة في الدين والعلم والأدب والرياسة ولاء في قبائل العرب لعزتها، وعظم شأنها في ذلك العهد، عهد الفتوح والسيادة العربية، وخصوصا عهد المنصور ومن بعده من الخلفاء إلى أن ظهر الترك والممالك في زمن المعتصم والمتوكل، فزاحموهم في ميدان الحكم والرياسة. والولاء لحمة كلحمة النسب، وَمَوْلى القوم منهم، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، كما في الحديث الشريف.

والفرس هم الذين نظَّموا دواوين الدولة العبَّاسية، ووضعوا دساتيرها، ورتَّبوا دخلها وخرجها، وفرَّقوا كما شاؤوا جبايتها وأموالها، وعدَّلوا خراج ضياعها، وألْبَسوها حلَّة

كسراوية ساسانية، وخلعوا عنها الشَّملة والعباءة المُضَرية القَحْطانية، وأدخلوا عوائد الفرس وأخلاقهم إلى بساط الخلفاء، فلبسوا جلْدتهم، وتقمَّصوا زيهم، وسلكوا سبيلهم، واقتبسوا نظامهم في أكلهم وشربهم، وعيشهم ولهوهم، وترتيب مجالس منادمتهم وأُنْسِهِم، واحتفالاتهم في أعيادهم ومواسمهم، وسائر مراسمهم.

وقد كان لآل المدبر السَّبْق في هذا الميدان، والقِدْح المعلَّى في هذا الشأن، وخصوصا إبراهيم وأحمد منهم، حسبما سيأتي في أخباره مفصلا. وآل المدبر ثلاثة إِخْوة : محمد وإبراهيم، وأحمد.

– فأما محمد

فلم نقف له الآن على أثر يذكر، فيما توفر لدينا من المراجع وكتب الأدب والأخبار والتراجم، ولعله لم تكن له جولة في الميادين الأدبية والسياسية في عصره.

– و أما إبراهيم

فقد ترجم له جماعة من المؤرخين والكُتَّاب والأدباء في معاجمهم التاريخية، ومعالمهم الأدبية، وقلَّما نجد كتابا من كتب الأدب القديمة إلاَّ وفيه ذكر له ولأخيه أحمد.

وقد جمع أبو الفرج الاصبهاني في كتابه «الأغاني» من أخبارهما الشيء الكثير، وسجَّل من نوادرهما مع الخلفاء والأمراء والوزراء والشعراء المعاصرين لهما أشعارا رائقة، ونوادر فائقة.

وتولَّى الولايات الجليلة، ووزر للمعتمد على الله لمَّا خرج من سُرَّمَنْ رَأى يُرِيدُ مصر[24]، وكان من وجوه الكُتَّاب بالعراق، وذوي الجاه والمتصرفين في كبار الأعمال، ومذكور الولايات.

وكان المتوكل على الله يقدمه ويؤَيده ويفضله، وامْتُحِنَ ونُكِبَ كأمثاله من الكُتَّاب والأدباء والوزراء البارزين في كل زمان ومكان.

وكانت بينه وبين عريب الغانية المغنية، نجم المحافل والمجالس، وأُنْس كل أنيس ومجالس، دمية قصور الخلفاء والأمراء والوزراء في وقتها، مداعبات ومُخَاطبات ومراسلات

---

24) «معجم ياقوت» ص 226 من ج 11 طبع مرجليوت.

ومناظرات، يستحليها السمع، ويسترقُّها الطبع، إذ كان يهواها وتهواه، ويرضاها وترضاه، وأخبارهما ونوادرهما كثيرة مُفَرَّقة في الدواوين الأدبية.

ومن آثاره الباقية في عالم الأدب وصناعة التَّرسيل، «الرسالة العذراء» في موازين البلاغة وأدوات الكتابة.

وقد أدرج عدة فصول منها أبو العبَّاس ابن عبد ربه الأندلسي في «كتاب المجتبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة» من عقده الفريد، ولم ينسبها إليه، ونسبها إلى أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الشيباني[25] وطُبعت في كتاب «رسائل البلغاء»، لكرد علي، بمطبعة مصطفى بابي الحلبي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف (1913/1331) وأُدرجت قبل ذلك في الجزء التاسع من المجلد الرابع من مجلة «المقتبس» الصادرة في رمضان عام سبع وعشرين وثلاثمائة وألف (1909/1327)، وأعاد طبعها مصحَّحة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية، عن فن الإنشاء ومذاهب الكتابة في العراق في القرن الثالث الهجري، زكي مبارك، بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة خمسين وثلاثمائة وألف (1931/1350).

ومات وهو يتقلَّد ديوان الضياع ببغداد سنة تسع وسبعين ومائتين (892/279).[26]

– وأما أحمد،

فهو موضوع بحثنا ودراستنا، وإليه يساق حديثنا في الفصول الآتية :

---

25) لم نقف له على ترجمة.

26) «معجم ياقوت» ص 227 من ج 1 طبع مرجليوت.

المبحث الرابع

أخبار أحمد بن المدبّر الجدّ الأكبر لبني عشَرة

لمّا كان أحمد بن عبد الله، أبو الحسن، المعروف بابن المدبّر هو الجد الأكبر لبني عشرة كما يقال، رأينا أن نُلِمَّ هنا بشيء من أخباره وآثاره المتفرقة في بطون الدفاتر وكتب التراجم والأخبار، لتكون الفائدة أتم، والموضوع أشمل وأعم، لاسيما وهو يتعلق بتحقيق نسب أسرة سلاوية مُنْتَقِلَة من العراق، عريقة في القدم، وإليها ينسب تمصير مدينة سلا الحديثة، وعليها دار سورها، وسنتكلم على ترجمته من ناحيتين.

- الأولى : الناحية الأدبية.

- الثانية : الناحية الإدارية.

- **فأمّا الناحية الأدبية**

فقد اتفق كتّاب عصره ومن بَعْدَهُم على أنه كان من الأدباء البارزين بالعراق، ومن حملة الأقلام في عهد الخليفة المتوكل ومن بَعْدَهُ من خلفاء بني العبّاس في زمنه.

قال ابن عبد ربّه في «العقد الفريد» :[27] وسمّى جماعة ممن نبه بالكتابة بعد الخمول، فيهم أحمد بن محمد بن المدبّر : فهؤلاء نبلوا بالكتابة واستحقّوا اسمها.

وقال ابن النديم في «الفهرست» :[28] بنو المدبّر، أحمد ومحمد وإبراهيم، جميعهم مُتَرَسِّلٌ بليغ ؛ ولأحمد : كتاب «المجالسة والمذاكرة».

---

27) ص 256 من ج 4.

28) ص 123 من ج 1.

• ومن شعره يخاطب أخاه إبراهيم في نكبته، وقد أهدى إليه شعره مجموعا فقرأه وكتب عليه.

أَبَا إِسْحَاقَ إِنْ تَكُنِ اللَّيَالِي ... عَطَفْنَ عَلَيْكَ بِالخَطْبِ الجَسِيمِ

فَلَمْ أَرَ صَرْفَ هَذَا الدَّهْرِ يَجْرِي ... بِمَكْرُوهٍ عَلَى غَيْرِ الكَرِيمِ[29]

ومن شعره أيضا قوله ·

صَبَاحُ الحُبِّ لَيْسَ لَهُ مَسَاءُ ... وَدَاءُ الحُبِّ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ

وَلِي نَفْسٌ تَنَفُّسُهَا اشْتِيَاقٌ ... وَعَيْنٌ فَيْضُ عَبْرَتِهَا الدِّمَاءُ

وَلَيْلِي وَالنَّهَارُ عَلَيَّ مِمَّا ... أُقَاسِي فِيهِمَا أَبَداً سَوَاءُ[30]

وكان لا يقبل من الشعر إلا الجيد، ويُشَدِّدُ على الشعراء في انتقاد أشعارهم، وإذا مدحه شاعر فلم يرض شعره، قال لغلامه : «امض به إلى المسجد الجامع، ولا تفارقه حتى يصلي مائة ركعة ثمّ اطلقه»، فتحاماه الشعراء إلاّ أفراد من ذوي الإجادة، فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري، المعروف بالجمل، فاستأذنه في النشيد، فقال له : «قد عرفت الشرط»، قال : «نعم» ثم أنشده :

أَرَدْنَا فِي أَبِي حَسَنٍ[31] مَدِيحًا ... كَمَا بِالمَدْحِ تُنْتَجَعُ الوُلاَةُ

وَقُلْنَا أَكْرَمَ الثَّقَلَيْنِ طُراً ... وَمنْ كَفَّاهُ دِجْلَةُ وَالفُرَاتُ

فَقَالُوا : يَقْبَلُ المِدْحَاتِ لَكِنْ ... جَوَائِزُهُ عَلَيْهِنَّ الصَّلاَةُ

فَقُلْتُ لَهُمْ، وَمَا تُغْنِي صَلاَتِي ... عِيَالِي إِنَّمَا الشَّأْنُ الزَّكَاةُ

فَتَأمُرُ لي بِكَسْرِ الصَّادِ مِنْهَا ... فَتُصْبِحُ لِي الصَّلاَةُ هِيَ الصِّلاَتُ

---

29) «اعتاب الكتاب» لابن الابّار، ص 159.

30) «تاريخ ابن عساكر» ص 60 من ج 6.

31) كان أحمد بن المدبّر يكنى أبا الحسن.

فضحك أحمد بن المدبّر واستظرفه وقال : من أين أخذت هذا ؟ فقال من قول أبي تمام :

هُنَّ الحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَابَةً مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ[32]

ومن أخباره الأدبية، ما ذكره أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «الأغاني» :[33] قال : أخبرني عمي والحسن بن علي جميعا، قالا : حدثنا محمد بن أبي القاسم بن مهرويه قال : حدثني أبي، قال : كنت عند أحمد بن المدبّر ليلة من الليالي، فأنشدته لدِعْبَل في أحمد بن أبي دُؤَاد قوله .

إِنَّ هَذَا الَّذِي دُؤَادٌ أَبُوهُ وإِيَادٌ قَدْ أَكْثَرَ الأَنْبَاءَ

سَاحَقَتْ أُمُّهُ وَلاَطَ أَبُوهُ لَيْتَ شِعْرِي عَنْهُ فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ

جَاءَ مِنْ بَيْنِ صَخْرَتَيْنِ صَلُودَيْـ ـنِ عِقَاقَيْنِ يُنْبِتَانِ الهَبَاءَ

لاَ سِفَاحٌ وَلاَنِكَاحٌ وَلاَمَا يُوجِبُ الأُمَّهَاتِ وَالآبَاءَ

قال : فاستعادها أربع مرات، فظننت أنه يريد أن يحفظها، ثم قال : جئني بِدعْبل حتى أوصله إلى المتوكل، فقلت له : دِعْبل مَوْسُوم بهجاء الخلفاء والتشيع، وإنما غايته أن يخمل ذكره، فأمسك عني. ثم لقيت دِعْبَلا، فحدثته بالحديث فقال : لو حضرت أنا أحمد بن المدبّر لما قَدَرْتُ أن أقول أكثر مما قلت.

وروى أبو الفرج أيضا،[34] قال : أخبرني محمد يحيى الصُّولي، قال : سمعت إبراهيم ابن المدبّر يقول : جرى بين إبراهيم بن العباس (يعني الصُّولي) وبين أخي أحمد بن المدبّر شيء، وكان يودُّني دون أخي فلقيته فاعتذرت إليه عنه، فقال لي : يا أبا إسحاق :

خَلِّ النِّفَاقَ لأَهْلِهِ وَعَلَيْكَ فَالْتَمِسِ الطَّرِيقَا

وَاذْهَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرَى إِلاَّ عَدُوّاً أَوْ صَدِيقَا

32) «تاريخ ابن عساكر» ص 60 من ج 6، و«ابن خِلكان» ص 54 من ج 6.

33) ص 41 من ج 19، طبع الساسي.

34) ص 27 من ج 9.

وقال أبو الفرج أيضا :[35] أنشدني الأخفش لإبراهيم بن العباس، يقولها لأحمد بن المدبّر وقد جاءه بعد خلاصه من النكبة مهنئا، وكان استعان به في أمر نكبته فقعد عنه، وبلغه أنه كان يُحَرِّضُ عليه ابن الزيات.

وَكُنْتَ أَخِي بِالدَّهْرِ حَتَّى إِذَا نَبَا   نَبَوْتَ فَلَمَّا عَادَ عُدْتُ مَعَ الدَّهْرِ
فَلاَ يَوْمَ إِقْبَالٍ عَدَدْتُكَ طَائِلاً   وَلاَ يَوْمَ إِدْبَارٍ عَدَدْتُكَ فِي وِتْرِ
وَمَا كُنْتَ إِلاَّ مِثْلَ أَحْلاَمِ نَائِمٍ   كِلا حَالَتَيْكَ مِنْ وَفَاءٍ وَمِنْ غَدْرِ

وللصُّولي في أحمد بن المدبّر وقد عاتبه أحمد بن المدبّر على شيء بلغه فقال :

هَبِ الزَّمَانَ رَمَانِي   الشَّأْنُ فِي الخُلاَّنِ
فِيَمْن رَمَانِيَ لَمَّا   رَأَى الزَّمَانَ رَمَانِي
وَمَنْ ذَخَرْتُ لِنَفْسِي   فَصَارَ ذُخْرَ الزَّمَانِ
لَوْ قِيلَ لِي خُذْ أَمَانًا   مِنْ أَعْظَمِ الحَدَثَانِ
لَمَا أَخَذْتُ أَمَانًا   إِلاَّ مِنَ الخُلاَّنِ

وحدث الجهشياري عن وهب بن سليمان بن وهب قال :[36].

كنت أكتب لإبراهيم بن العباس علي ديوان الضياع، وكان رجلا بليغا، ولم يكن له في الخراج تقدم، وكان بينه وبين أحمد بن المدبّر تباعد، وكان أحمد مُقدّما في الكتابة، فقال أحمد بن المدبّر للمتوكل : قلّدت إبراهيم بن العباس ديوان الضياع، وهو متخلف، ءاية من الآيات، لا يُحْسِنُ قليلا ولا كثيرا، وطعن عليه طعنا قبيحا، فقال المتوكل : في غدٍ أَجْمَعُ بينكما. واتّصل الخبر بإبراهيم، فأيقن بالمكروه، وعلم أنه لا يفي بأحمد ابن المدبر في صناعته، وغدا إلى دار السلطان آيسا من نفسه ونِعْمته، وحضر أحمد، فقال له المتوكل : قد حضر إبراهيم وحضرت، ومن أجلكم قعدت، فهات : أذكر ما كنت فيه أمس، فقال أحمد : أي

35) ص 32 من نفس ج.

36) «معجم الأدباء» لياقوت، ص 194 من ج 1.

شيء أذكر عنه ؟ فإنه لا يعرف أسماء عماله في النواحي، ولا يعلم ما في دساترهم وكيولهم، وحمْلَ من حَمَلَ منهم، ومن لم يحمل، ولايعرف أسماء النواحي التي تقلّدها، وقد اقتطع صاحبه بناحية كذا، كذا ألفا، واختلّت ناحية كذا في العمارة، وأطال في ذكر هذه الأمور، فالتفت المتوكل إلى إبراهيم فقال : ماسكوتك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين جوابي في بيتي شعر قلتهما، فإن أذن أمير المومنين في إنشادهما أنشدتهما، فإذن له فأنشده :

رَدَّ قَـــولِي وَصَـــدَّقَ الأَقْـوَالاَ   وأَطَاعَ الوُشَـــاةَ وَالعُـــذَّالاَ

أَتَرَاهُ يَكُونُ شَـــهْـــرَ صُـــدُودٍ   وَعَلَى وَجْـــهِـــهِ رَأَيْتُ الهِلاَلاَ

فقال المتوكل : زه، زه[37] أحسنت، إيتوني بمن يصنع في هذا لحنا وهاتوا ما نأكل، وجيئوا بالنساء، ودعونا من فضول ابن المدبّر، واخلعوا على إبراهيم بن العباس، فخُلِع عليه، وانصرف إلى منزله.

قال الحسن : فَمَكَثَ يومه مغموما فقلت له : هذا يوم سرور وجذل بما جدَّد الله لك من الإنتصار على خصمك، فقال : يابني، الحق أولى بمثيلي وأشبه، إني لم أدفع أحمد بحجّة ولا كذب في شيء مما ذكر ولا أنا ممن يعشره[38] في الخراج كما أنه لا يعشرني في البلاغة، وإنما فلجت بِرطازة[39] ومخرقة، أفلا أبكي فضلا عن أغتم من زمان يدفع ذلك كله.

وقال أبو الفرج :[40] حدثني سليم بن الأخفش قال : حدثني محمد بن الحسن بن الحرون، قال : كنا يوما عند أحمد بن المدبّر، فغناه مغن كان عنده لحن إسحاق :

فَأَصْبَحْتُ كَالحَوْمَانِ يَنْظُرُ حَسْـرَةً   إِلَى المَاءِ عَطْشَانًا وَقَدْ مُنِعَ الـوِرْدَا

فقال ابن المدبّر زد فيه :

وَأَمْسَيْتُ كَالمَسْلُوبِ مُهْجَة نَفْسِهِ   يَرَى المَوْتَ فِي صَدْرِ الحَبِيبِ إِذَا صَدَّا

---

37) كلمة تقولها الأعجام عند الإستحسان.

38) أي يبلغ عشرة في معرفة ذلك.

39) الرطازة : الخرافة، والجمع رطازات.

40) ص 93 من ج 5.

وأخبار أحمد بن المدبر ونكته ونوادره الأدبية مع الخلفاء ووزراء عصره كثيرة مفرقة في كتب الأدب والنوادر والتراجم، وإنما التقطنا منها ما أثبتناه هنا.

وقد مدحه كبار الأمراء وحاملوا راية الأدب في وقته لمَا كان يوصف به من الجاه والنفوذ واليد الطُولى، والكلمة المسموعة عند الخلفاء، كالبحتري، وديك الجن، وغيرهما.

وفيه يقول شريف من الهاشميين:[41].

يَا ابْنَ المُدَبِّرِ أَنْتَ أَكْرَمُ مَاجِدٍ　　عَاذَتْ بِهِ السَّادَاتُ عِنْدَ عِثَارِي

إِنِّي امْتَدَحْتُكَ مِدْحَةً شَرَّفْتُهَا　　شَرَفَيْنِ مِنْ أَصْلِي وَمِنْ أَشْعَارِي

وكان هذا الشريف عليه دين مبلغه مائة ألف درهم، فتحمله عنه.

ومن أمداح البحتري فيه وفي أخيه إبراهيم قصيدته التي يقول فيها[42].

عَنَانِي مِنْ صُدُودِكَ مَا عَنَانِي　　وَعَاوَدَنِي هَوَاكِ كَمَا بَدَانِي

وَذَكَّرَنِي التَّبَاعُدُ ظِلَّ عَيْشٍ　　لَهَوْنَا فِيهِ أَيَامَ التَّدَانِي

أُلاَمُ عَلَى هَوَى الحَسْنَاءِ ظُلْمًا　　وَقَلْبِي فِي هَوَى الحَسْنَاءِ عَانِ

إِذَا انْصَرَفَتْ أَضَاءَتْ شَمْسُ دَجْنٍ　　وَمَالَ مِنَ التَّعَطُّفِ غُصْنُ بَانِ

وَيَوْمَ تَأَوَّهَتْ لِلْبَيْنِ وَجْدًا　　وَكَفَّتْ عَبْرَتَيْنِ تَبَارَيَانِ

جَرَى فِي نَحْرِهَا مِنْ مُقْلَتَيْهَا　　جُمَانٌ يَسْتَهِلُّ عَلَى جُمَانِ

وَكَانَ الحَجُّ لِلْقَلْبِ المُعَنَّى　　ضَمَانًا زِيدَ فِيهِ إِلَى ضَمَانِ

وَمَا ذِكْرُ الأَحِبَّةِ مِنْ ثَبِيرٍ　　وَ بَلْدَحَ غَيْرَ تَضْلِيلِ الأَمَانِي

نَظَرْتُ إِلَى طَدَانَ فَقُلْتُ لَيْلَى　　هُنَاكَ وَأَيْنَ لَيْلَى مِنْ طَدَانِ

وَدُونَ لِقَائِهَا إِيجَافُ شَهْرٍ　　وسَبْعٌ لِلْمَطَايَا أَوْ ثَمَانِ

تَجَاوَزْنَ السِّتَارَ إِلَى شَرَوْرَى　　فَأَظْلَمَ وَاعْتَسَفْنَ قُرَى الْهَوَانِ

---

41) «أعتاب الكتاب» ص 159.

42) «ديوان البحتري»، ص 137، 146، 148 من ج 1 طبع الجوائب سنة (1882/1300).

وَلَمَّا غَرَّبَتْ أَعْرَافُ سَلْمَى ... لَهُنَّ وَشَرَّقَتْ قُنَنُ القَنَانِ
وَخَلَّفْنَا أَيَاسِرَ وَارِدَاتٍ ... جُنُوحَاً وَالأَيَامِنَ مِنْ أَيَانِ
وَخَفَّضَ عَنْ تَنَاوُلِهَا سُهَيْلٌ ... فَقَصَّرَ وَاسْتَقَلَّ الفَرْقَدَانِ
تَصَوَّبَتِ البِلاَدُ بِنَا إِلَيْكُمْ ... وَغَنَّى بِالإِيَابِ الحَادِيَانِ
أَمُبْهِجَتِي العِرَاقُ وَلَيْسَ فِيهَا ... عَقِيدَايَ اللَّذَانِ تَكَنَّفَانِي
وَمُؤْنِسَتِي وَكَيْفَ شُهُودُ أُنْسِي ... بِهَا وَابْنَا المُدَبِّرِ غَائِبَانِ
حُسَامَا نُصْرَةٍ وَيَدَا سَمَاحٍ ... وَبَحْرَا نَائِلٍ يَتَدَفَّقَانِ
إِذَا ابْتَدَرَا مَدَى مَجْدٍ بَعِيدٍ ... تَمَطَّرَ دُونَهُ فَرَسَا رِهَانِ
هُمَا كَنْزِي لأَحْدَاثِ اللَّيَالِي ... إِذَا خِيفَتْ وَذُخْرِي لِلزَّمَانِ...

ثم استرسل في مدح إبراهيم إلى آخر القصيدة.

ومنها قصيدته التي يمدحه وأخاه إبرهيم بها:[43]

لَئِنْ ثَنَى الدَّهْرُ مِنْ سَهْمِي فَلَمْ يَصِلِ ... وَرَدَّ مِنْ يَدِيَ الطُّولَي فَلَمْ تَنَلِ
لَقَدْ حَمِدتُّ صُرُوفًا مِنْهُ عَرَّفَتْنِي ... مَذْمُومُهَا عُصَبًا مِمَّنْ عَلَيَّ وَلِي
بَنِي المُدَبِّرِ مَا اسْتَبْطَأْتُ سَعْيَكُمُ ... وَلاَ أَرَدتُّ بِكُمْ فِي النَّاسِ مِنْ بَدَلِ
أَيَامُكُمْ هِيَ أَيَامِي التِي عَدَلَتْ ... مَيْلِي وَدَوْلَتُكُمْ حَظِّي مِنَ الدُّوَلِ
أَقَمْتُ مِنْ سَيْبِكُمْ فِي يَانِعٍ زَهِرٍ ... وسِرْتُ مِنْ جَاهِكُمْ فِي يَانِعٍ خَضِلِ..

وتخلّص بعد هذا لمدح أخيه إبراهيم.

وفي مدحهما أيضا يقول قصيدته الآتية،[44] ويذكر ولاية أحمد الخراج بدمشق.

---

43) «ديوان البحتري» ص 137، 146، 148 من ج 1 طبع الجوائب سنة (1882/1300).

44) «ديوان البحتري» ص 137، 146، 148 من ج 1 طبع الجوائب سنة (1882/1300)

أَمَحَلَّتَيْ سَلْمَى بِكَاظِمَةَ اسْلَمَا ... وَتَعَلَّمَا أَنَّ الجَوَى مَا هِجْتُمَا

هَلْ تُرْوِيَانِ مِنَ الأَحِبَّةِ هَائِمًا ... أَوْ تُسْعِدَانِ عَلَى الصَّبَابَةِ مُغْرَمَا

أَبْكِيكُمَا دَمْعًا وَلَوْ أَنِّي عَلَى ... قَدْرِ الجَوَى أَبْكِي بَكَيْتُكُمَا دَمَا

أَيْنَ الغَزَالُ المُسْتَعِيرُ مِنَ النَّقَا ... كَفَلاً وَ مِنْ نَوْرِ الأَقَاحِي مَبْسِمَا

ظَمِئَتْ جَوَانِحُنَا إِلَيْهِ وَرِيُّهَا ... فِي ذَلِكَ اللَّعَسِ المُمَتَّعِ وَاللَّمَى

مُتَعَتِّبٌ فِي حَيْثُ لاَ مُتَعَتَّبٌ ... إِنْ لَمْ يَجِدْ جُرْماً لَدَيَّ تَجَرَّمَا

أَلِفَ الصُّدُودَ فَلَوْ يَمُرُّ خَيَالُهُ ... بِالصَّبِّ فِي سِنَةِ الكَرَى مَا سَلَّمَا

خُلِّفْتُ بَعْدَهُمُ أُلاَحِظُ نِيَّةً ... قَذَفاً وَ أَنْشُدُ دَارِساً مُتَرَسَّمَا

طَلاً أُكَفْكِفُ فِيهِ دَمْعاً مُعْرِبًا ... بِجَوىً وَأَقْرَأُ فِيهِ خَطّاً أَعْجَمَا

تَأْبَى رُبَاهُ أَنْ تُجِيبَ وَلَمْ يَكُنْ ... مُسْتَخْبِرٌ لِيُجِيبَ حَتَّى يَفْهَمَا

اللَّهُ جَارُ بَنِي المُدَبِّرِ كُلَّمَا ... ذُكِرَ الأَكَارِمُ مَا أَعَقَّ وَ أَكْرَمَا

أَخَوَانِ فِي نَسَبِ الإِخَاءِ لِعِلَّةٍ ... بَكَرا وَرَاحَا فِي السَّمَاحَةِ تَوْأَمَا

يَسْتَمْطِرُ العَافُونَ مِنْ نَوْئَيْهِمَا ... الشِّعْرَى العَبُورَ غَزَارَةً وَالمِرْزَمَا

غَيْثَانِ أَصْبَحَتِ العِرَاقُ لِوَاحِدٍ ... وَطَناً وَغَرَّبَ وَاحِدٌ فَتَشَأَّمَا

وَلَوْ أَنَّ نَجْدَةَ ذَاكَ أَوْ هَذَا لَنَا ... أَمَمٌ لأَدْرَكَ طَالِبٌ مَا يَمَّمَا

قَدْ كَانَ آنَ لِمُغْمَدٍ أَنْ يُنْتَضَى ... فِي حَادِثٍ وَلِغَائِبٍ أَن يَقْدَمَا

إِنِّي وَجَدْتُ لأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ... خُلُقاً إِذَا خَنَسَ الجَبَانُ تَقَدَّمَا

مُتَقَلْقِلُ العَزَمَاتِ فِي طَلَبِ العُلاَ ... حَتَّى يَكُونَ عَلَى المَكَارِمِ قَيِّمَا

المُسْتَضَاءُ بِوَجْهِهِ، وَبِرَأْيِهِ ... إِنْ حَيْرَةٌ وَقَعَتْ وَخَطْبٌ أَظْلَمَا

أَلْقَى ذِرَاعَيْهِ وَأَوْقَدَ لَحْظَهُ ... بِدِمَشْقَ يَعْتَدُّ النَّوَائِبَ أَنْعُمَا

مُسْتَصْغِرٌ لِلْخَطْبِ يَجْمَعُ حَزْمَهُ ... لِمُلِمَّةٍ حَتَّى يُرَى مُسْتَعْظِمَا

تَقَعُ الأُمُورُ بِجَانِبَيْهِ وَإِنَّمَا ... يَبْعَثْنَ رَضْوَى أَوْ يَرُمْنَ يَرَمْرَمَا

كَلِفٌ بِجَمْعِ الخَرْجِ يُصْبِحُ حَوْلَهُ مُتَفَرِّقاً فِي إِثْرِهِ، مُتَقَسِّماً
شَغَلَ المُدَافِعَ عَنْ مَحَالَةِ كَيْدِهِ وَأَذَلَّ جَبَّارَ البِلاَدِ الأَعْظَمَا
بَخَعُوا بِحَقِّ اللَّهِ فِي أَعْنَاقِهِمْ لَمَّا أَتَاحَ لَهُمْ قَضَاءً مُبْرَمَا
لَمْ يَغْبَ عَنْ شَيْءٍ فَيَطْلُبَهُ وَ لَمْ يَجُزِ الَّذِي حَدَّ الكِتَابُ فَيَظْلِمَا

ثم تخلّص لمدح أخيه أبي إسحاق إبرهيم إلى آخر القصيدة.

وفي مدح أحمد يقول أيضا : (45).

لَعَمْرُ المَغَانِي يَوْمَ صَحْرَاءَ أَرْثَدٍ لَقَدْ هَيَّجَتْ وَجْداً عَلَى ذِي تَوَجُّدِ
مَنَازِلُ أَضْحَتْ لِلرِّيَاحِ مَنَازِلاً تَرَدَّدُ مِنْهَا بَيْنَ نُؤْيٍ وَرِمْدَدِ
شَجَتْ صَاحِبِي أَطْلاَلُهَا فَتَهَلَّلَتْ مَدَامِعُهُ فِيهَا وَمَا قُلْتُ أَسْعِدِ
وَقَلَّتْ لِدَارِ المَالِكِيَّةِ عَبْرَةٌ مِنَ الشَّوْقِ لَمْ تُمْلَكْ بِصَبْرٍ فَتُرْدَدِ
سَقَتْهَا الغَوَادِي حَيْثُ حَلَّتْ دِيَارُهَا عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَسْقِ ذَا الغُلَّةِ الصَّدِي
رَأَتْ فَلَتَاتِ الشَّيْبِ فَابْتَسَمَتْ لَهَا وَقَالَتْ نُجُومٌ لَوْ طَلَعْنَ بِأَسْعُدِ
أَعَاتِكَ مَا كَانَ الشَّبَابُ مُقَرِّبِي إِلَيْكِ فَأَلْحَى الشَّيْبُ إِذْ طَارَ مُبْعِدِي
تَزِيدِينَ هَجْراً كُلَّمَا ازْدَدْتُ لَوْعَةً طِلاَبًا لأَنْ أَرْدَى فَهَا أَنَا ذَا رَدِ
مَتَى أَلْحَقِ العَيْشَ الَّذِي فَاتَ آنِفاً إِذَا كَانَ يَوْمِي فِيكِ أَحْسَنَ مِنْ غَدِ
لَعَمْرُ أَبِي الأَيَّامِ مَا جَارَ حُكْمُهَا عَلَيَّ وَ لاَ أَعْطَيْتُهَا ثِنْيَ مِقْوَدِي
وَكَيْفَ أَخَافُ الحَادِثَاتِ وَصَرْفَهَا عَلَيَّ وَ دُونِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ
مَلُومٌ عَلَى بَذْلِ التِّلاَدِ مُفَنَّدٌ وَلاَ مَجْدَ إِلاَّ لِلْمَلُومِ المُفَنَّدِ
وَ أَبْيَضُ نُعْمَاهُ لأَقْصَرِ مَاتِحٍ رِشَاءٌ وَجَدْوَاهُ لأَوَّلِ مُجْتَدِ

45) «ديوان البحتري» ص 149 من ج I طبع الجوائب سنة (1300/1882).

إِذَا بَدَرُوهُ بِالسُّؤَالِ انْتَحَى لَهُمْ عَلَى وَفْرِهِ، حَتَّى يَجُوزَ فَيَعْتَدِي
بَعِيدٍ عَنِ الفِتْيَانِ أَنْ يَلْحَقُوا بِهِ إِذَا سَارَ فِي نَهْجٍ إِلَى المَجْدِ مَصْعَدِ
وَفِي النَّاسِ سَادَاتٌ يَرُوحُ عَدِيدُهُمْ كَثِيراً وَلَكِنْ سَيِّدٌ دُونَ سَيِّدِ
غَدَا وَاحِداً فِي حَزْمِهِ وَاضْطِلاَعِهِ يَنُوءُ بِنُصْحٍ لِلْخِلاَفَةِ أَوْ حَدِ
قَرِيبٌ لَّهَا مِنْ حِفْظِ كُلِّ مُضَيَّعٍ سَرِيعٌ لَهَا فِي جَمْعِ كُلِّ مُبَدَّدِ
يَضِينُ عَنِ الشَّيْءِ الطَّفِيفِ يُخَانُهُ وَإِنْ هُوَ أَمْسَى وَاسِعَ الصَّدْرِ وَاليَدِ
أَبَا حَسَنٍ تَفْدِيكَ أَنْفُسُنَا الَّتِي بِسَيْبِكَ مِنْ صَرْفِ النَّوَائِبِ تَفْتَدِي
وَمَا بَلَغَتْ آمَالُنَا مِنْكَ غَايَةً نَرَاهَا رِضىً فِي قَدْرِكَ المُتَجَدِّدِ
وَكَيْفَ وَذَاكَ الرَّأْيُ لَمْ يُسْتَنَدْ بِهِ مُشِيرٌ وَ ذَاكَ السَّيْفُ لَمْ يُتَقَلَّدِ

وفيه يقول أيضا هذه القطعة : (46).

يَأْبَى سُمُوُّكَ وَ اعْتِلاَؤُكْ إِلاَّ الَّتِي فِيهَا سَنَاؤُكْ
عَمْرِي لَقَدْ فُتَّ الرِّجَا لَ وَبَانَ يَوْمَ السَّبْقِ شَأْنُكْ
يَا ابْنَ المُدَبِّرِ وَالنَّدَى وَ بْلٌ تَجُودُ بِهِ سَمَاؤُكْ
عَظُمَ الرَّجَاءُ وَرُبَّ يَوْ مٍ حَقَّ فِيهِ لَنَا رَجَاؤُكْ
وَيَفُوتُنِي لَيْلٌ مَسَا فَتُهُ كِتَابُكَ أَوْ لِقَاؤُكْ
فَغَنَاءُ مَنْ يُرْجَى إِذَا لَمْ يُرْجَ فِي حَدَثٍ غَنَاؤُكْ
وَعَطَاءُ غَيْرِكَ إِذْ بَذَلْـ ـتَ عِنَايَةً فِيهِ عَطَاؤُكْ

46) «ديوان البحتري»، ص 150 من ج 1.

وقد كان لأحمد بن المدبر ولد اسمه أبو غالب، ورد ذكره في «تاريخ الطبري»[47]، وأنه كان مسجونا مع عمه إبراهيم أيام نكبته، وفر معه من السجن، وساد في حياة أبيه، ووصف بالجود والسماح، كغيره من أفراد أسرته، وفي مدحه يقول البحتري أيضا :[48].

لَمْ تَبْلُغِ الحَقَّ وَلَمْ تُنْصِفِ　　عَيْنٌ رَأَتْ يَبْناً فَلَمْ تَذْرِفِ

مِنْ كَلَفِي أَنْ تَنْقَضِي سَاعَةٌ　　يأتِي بِهَا الدَّهْرُ وَلَمْ أَكْلَفِ

لاَتَدَعُ الأَحْشَاءَ إِلاَّ لَهَا　　تَحَرُّقٌ ذَاتُ الحَشَا المُرْهَفِ

يَضِيعُ لُبُّ الصَّبِّ فِي لَحْظِهَا　　ضَيَاعُهُ فِي القَهْوَةِ القَرْقَفِ

صِفْوَتِيَ الرَّاحُ وَسَاعٍ بِهَا　　فَدُونَكَ العَيْشُ الذِّي تَصْطَفِي

أَحْلِفُ بِاللَّهِ وَلَوْلاَ الذِّي　　يَعْرِضُ مِنْ شَكٍّ لَمْ أَحْلِفِ

أَقْبَلُ مِنْ مُؤْتَمِنٍ خَائِنٍ　　عَهْدٌ وَلاَ مِنْ وَاعِدٍ مُخْلِفِ

إِذَا الرِّجَالُ اعْتَمَتْ أَجْوَادُهُمْ　　فَاسْمُ إِلَى الأَشْرَفِ فَالأَشْرَفِ

ادْفَعْ بِأَمْثَالِ أَبِي غَالِبٍ　　عَادِيَةَ العُدْمِ أَوِ اسْتَعْفِفِ

أَرْضَاهُ لِلْمُعْتَمِدِ المُشْتَرِى　　حَظّاً وَ لِلْمُخْتَبِطِ المُعْتَفِي

مَنْ شَأْنُهُ القَصْدُ وَلَكِنَّهُ　　إِنْ يُعْطِ فِي عَارِفَةٍ يُسْرِفِ

لَوْ جُمِعَ النَّاسُ لأُكْرُومَةٍ　　وَلَمْ يَكُنْ فِي الجَمْعِ لَمْ نَكْتَفِ

وَوَقْعَةٍ لِلدَّهْرِ بِي لَمْ أَهُنْ　　لَحَزِّهَا فِيَّ وَلَمْ أَضْعُفِ

مَا كُنْتُ بِالمُنْخَزِلِ المُخْتَتِي　　فِيهَا وَلاَ بِالسَّائِلِ المُلْحِفِ

ضَافَتْهُ أُخْرَى مِثْلُهَا فَاعْتَدَى　　مُسَانِدِي أَوْ وَاقِفاً مَوْقِفِ

مُسْتَظْهِراً يَحْمِلُ مَا نَابَهُ　　ونَابَنِي فِي المَغْرَمِ المُجْحِفِ

يَزْدَادُ مِنْ كَلِّي إِلَى كَلِّهِ　　تَوْقِيرَ ثِقْلِ الرَّاكِبِ المُرْدَفِ

---

47) ص 216 من ج 11.

48) «ديوان البحتري» ص 151 من ج 1.

كَمْ رَقَـعَتْ حَـالِي إِلَى حَـالِهِ   يَدُ مَـتَى تُخْلِفْ غِنًى تُتْلِفِ
جَـزَيْتُ إِذْ فَـاجَرَهُمْ غَـادِرٌ   مَـثُـوبَةَ البِـرِّ لَدَيْنَا الوَفِـي
غَنِيتَ مِـثْـلاً لَكَ فِي تَالِدٍ   مِنْ مَـالِكِ الرُّغْبِ وَمُسْـتَطْرِفِ
وَهَاهُنَا رُجْـحَانُ حَـالٍ عَلَى   حَـالٍ فَـجُدْ بِالعَدْلِ أَوْ أَسْعِفِ
عِنْـدَكَ فَضْـلٌ فَأَعِـدْ قِسْمَةً   تَرْجِعُ فِي العِـقْـدِ وَفِي النَّيِّفِ
تَجْـعَلُهَا رِفْـدًا لِمُسْـتَرْفِدٍ   أَوْ سَلَفًا قَـرْضًا لِمُسْـتَسْلِفِ
هَلُمَّ نَجْـمَعْ طَرْفَيْ حَـالِنَا   إِلَى سَـوَاءٍ بَيْنَنَا مُنْصِفِ
وَ مَـا تَكَافَـا الحَـالُ إِنْ لَمْ يَقَعْ   رَدٌّ مِنَ الأَقْـوَى عَلَى الأَضْـعَفِ

وله فيه قصيدة أخرى يقول فيها .[49]

مَـتَى تَسْأَلِي عَنْ عَـهْدِهِ تَجِـدِيهِ   مَلِيًّا بِوَصْلِ الحَـبْلِ لَمْ تَصِلِيهِ
يُكَلِّفُنِـي عَنْكِ العَـذُولُ تَصَـبُّرًا   وَأَعْـوَزُ شَـيْءٍ مَـا تُكَلِّفُنِيهِ
وَيُحْـزِنُكِ اللُّوَّامُ لَسْتُ أُطِيـعُـهُمْ   وَقَـوْلٌ مِنَ العُـذَّالِ لَسْتُ أَعِـيهِ
عَلَى أَنَّنِي أَخْـشَى عَلَيْكِ وَأَتَّقِي   زِيَادَاتِ مُـغْـرًى بِالحَدِيثِ يَشِـيهِ
عَنَاءُ المُـحِبِّ مِنْ عَـقَـابِيلِ لَوْعَةٍ   تَحُلُّ قُـوَى صَـبْـرِ الجَلِيـدِ وَتُوهِي
مُـعَلِّلُهُ بِالْوَعْـدِ لَيْسَ يَفِي لَـهُ   وَقَـاتِلُه بِالحُبِّ لَيْسَ يَدِيـهِ
وَ أَهْيَفُ مَـأْخُـوذٌ مِنَ النَّفْسِ شَكْلُهُ   تَرَى العَـيْنُ مَـا تَحْـتَاجُ أَجْمَعَ فِيـهِ
وَلَمْ يَشْفِ قَلْبِي مَـا سُـقِيتُ بِكَفِّهِ   مِنَ الرَّاحِ إِلاَّ مَـا سُـقِيتُ بِفِـيهِ
أَرَى غَـفْلَةَ الأَيَّامِ إِعْطَاءَ مَـانِعٍ   يُصِـيبُكَ أَحْـيَانًا وَحِلْمَ سَـفِـيهِ
إِذَا مَـا نَسَـبْتَ الحَـادِثَاتِ وَجَدتَّهَـا   بَنَاتِ الزَّمَـانِ أَرْصَـدَتْ لِبَنِيـهِ

49) «ديوان البحتري» ص 152 من ج 1 طبع الجوائب سنة (1882/1300)

مَــتَى أَرَتِ الدُّنْيَــا نَبَــاهَةَ خَــامِلٍ فَـــلاَ تَرْتَقِبْ إِلاَّ خُــمُــولَ نَبِــيــهِ
وَمَا رَدَّ صَرْفَ هَذَا الدَّهْرِ مِثْلُ مُهَذَّبٍ أَبَى الدَّهْــرُ أَنْ يَأْتِــي لَهُ بِشَــبِـيـهِ
أَبُو غَــالِبٍ بِالجُــودِ يَذْكُــرُ وَاجِـبِي إِذَا مَــا غَــبِيُّ البَــاخِلِينَ نَسِــيــهِ
تَطُولُ يَدَاهُ عِنْدَ أَوْدَعِ سَــعْــيِــهِ ذَوِي الطَّوْلِ مِنْ أَكْــفَــائِهِ وَذَوِيهِ
إِذَا مَــا تَوَجَّــهْنَا بِهِ فِـي مُلِمَّــةٍ فَلَجْنَــا بِوَجْــهٍ فِي الكِرَامِ وَجِــيـهِ
تَقَــيَّلَ مِنْ ءَالِ الـمُــدَبِّرِ سَــيِّـدًا يَقُــودُ إِلَى العَلْيَــاءِ مُــتَّــبِــعِــيـهِ
وَمَـا تَابِعٌ فِـي الـمَـجْدِ نَهْجَ عَدُوِّهِ كَـمُــتَّـبِـعٍ فِي الـمَـجْدِ نَهْــجَ أَبِيهِ
يُذَلِّلُ صَــعْبَ الأَمْــرِ حِـينَ يَرُوضُــهُ وَيَحْـفَـظُ أَقْـصَى الأَمْـرِ حِـينَ يَلِيهِ
جَـدِيدُ الشَّـبَـابِ كُـبْـرُهُ بِفِـعَـالِـهِ وَبَعْـضُ الرِّجَــالِ كُـبْـرُهُ بِسِنِيـهِ
مَــخِـيلَةُ حِلْـمٍ فِي النَّدَى كَـأَنَّهَـا إِذَا اشْـتَـهَـرَتْ مِنْهُ مَـخِـيلَةُ تِيـهِ
إِذَا بَاتَ يُعْطِي بِالسَّـمَـاحِ حَلِيـفَـهُ تُوُهِّمَ يَعْطُــو بِالسَّــحَــابِ أَخِـيـهِ
فَدَاكَ مِنَ الأَسْوَاءِ مَنْ بِتَّ مُسْمِحًا بِـمَـــالِكَ تَفْــدِي مَــالَهُ وَتَقِــيــهِ
حَلاَوَةُ لاَ فِي نَفْـسِـهِ جَـدُّ صَـدْقَـةٍ وَطَعْمُ نَعَمْ، فِـي فِـيـهِ جَـدُّ كَـرِيـهِ
وَمُطَّلِبٌ مِنْكَ الـمُــسَــامَــاةَ لَمْ تَزَلْ أُلُوفُكَ حَــتَّى أَجْــحَــفَتْ بِمِــئِــيـهِ
وَلَوْ كَانَ يَبْغِي مَوْضِعَ المَجْدِ لاَكْتَفَى بِـمُــسْــمِـعِــهِ أَيْنَ العُــلاَ وَمُــرِيهِ
فَـإِيهٍ لَكَ الخَـيْـرَاتُ مِنْ سَـيْبِكَ الذِي مَـحَـقْتَ بِهِ ذِكْــرَ الـمُـسَـاجِلِ إِيهِ

وقال أيضا يمدحه : (50).

تَعَــاطَ الصَّـبَــابَـةَ أَوْ عَــانِهَــا لِتُــعْــذَرَ فِي بَرْحِ أَشْــجَــانِهَــا
وَمَـــا نَـقَلَتْ لَوْعَـــتِي لِـمَّـةٌ تَـنَـقُّـلُ فِـي حِـــــدْثِ أَلْـوَانِـهَــا

---

50) «ديوان البحتري» ص 132 من ج 2 طبع الجوائب سنة (1882/1300)

أَوَائِلُ شَيْبٍ يُشِيرُ العَذُو   لُ إِلَيْهَا وَيُكْبِرُ مِنْ شَأْنِهَا

إِذَا حَرَّمَ اللَّهْوَ مِنْ أَجْلِهَا   غَلاَ فِي مَقَادِيرِ أَوْزَانِهَا

وَإِلاَّ تَجِدْنِي مُطِيعًا لَهَا   فَلَمْ أَعْصِهَا كُلَّ عِصْيَانِهَا

مَتَى جِئْتُ بَائِقَةً فِي الهَوَى   فَإِسْرَارُهَا دُونَ إِعْلاَنِهَا

تَعَامَى رِجَالٌ عَنِ المَكْرُمَا   تِ وَقَدْ مَثُلَتْ نُصْبَ أَعْيَانِهَا

وَلَمْ تَلْتَفِتْ لِوُجُوبِ الحُقُو   قِ وَوَاجِبُهَا خَلْفَ ءاذَانِهَا

فَتَحْتُ يَدِي ثَانِيَ العِطْفِ عَنْ   كَذُوبِ المَوَدَّةِ خَوَّانِهَا

وَقَدْ عَلِمَتْ خُلَّتِي أَنَّنِي   أُفَارِقُهَا عِنْدَ هِجْرَانِهَا

وَإِنِّي لأَسْكُنُ جَأْشًا إِلَى   رِبَاعِ الكِرَامِ وَأَوْطَانِهَا

وَبَعَّدتُ نَفْسِيَ مِنْ مَالِهَا   وَمَا أَبْعَدَتْ مَالَ إِخْوَانِهَا

رَضِيتُ خَلِيلِي أَبَا غَالِبٍ   لِكَسْرِ الخُطُوبِ وَإِيهَانِهَا

تَعُدُّ لَهُ فَارِسُ قُرْبَةً   وَزُلْفَى بِكِسْرَى بْنِ سَاسَانِهَا

إِذَا سُئِلَتْ عَنْهُ عِنْدَ الفَخَا   رِ مَالَتْ بِأَصْدَقِ عِرْفَانِهَا

يَطُولُونَ مِنْهُ بِإِنْسَانِهِمْ   وَلِلْعَيْنِ طُولٌ بِإِنْسَانِهَا

هَتَكْنَا إِلَيْهِ حِجَابَ الدُّجَى   بِخُوصٍ تَبَارَى بِرُكْبَانِهَا

تُكَلِّفُنَا لِنَرُومَ الوِدَا   عَ مَسَافَةَ قُمٍّ وَخَاسَانِهَا

وَسِنَّ سُمَيْرَةَ طَيْفَ الفَتَا   ةِ تَبْسِمُ عَنْ ظَلْمِ أَسْنَانِهَا

إِذَا اسْتَشْرَفَتْ لَمَعَانَ الثُّلُو   جِ أَطَاعَتْ لَهُ قَبْلَ إِبَّانِهَا

تَبِيتُ مَطَايَا تُرَاقِي النُّجُو   مَ فِي مُشْمَخِرَّاتِ صِيدَانِهَا

مُرَاكِبَةَ الطَّيْرِ فِي جَوِّهِـ   ـنَّ فَوْقَ السَّحَابِ وَأَعْنَانِهَا

إِلَى مَلِكٍ غَلِقَتْ عِنْدَهُ   رِقَابُ المَدِيحِ بِأَثْمَانِهَا

وُقِيتَ الحِمَامَ بِمَثْنَى النُّفُو   سِ مِنَ الحَاسِدِينَ وَ وُحْدَانِهَا

تَبُوحُ المَعَالِي إذَا لَمْ تَكُنْ ... بِكَفَّيْكَ إذْكَاءُ نِيرَانِهَا

وَتَجْزِلُ فِي القَوْمِ حَتَّى تَكُو ... نَ فِعَالُكَ أَنْجَزَ أَعْوَانِهَا

حَمَتْ قُضُبَ المَجْدِ مِن أَنْ تَكُو ... نَ صِلاَءً صَلاَبَةُ عِيدَانِهَا

وَعَافَتْ بِكَ الذَّمَّ نَفْسٌ جَرَتْ ... إلَى الحَمْدِ فِي طُولِ مَيْدَانِهَا

أَخَذْتَ العَطَايَا بِتَكْرَارِهَا ... وَأَبْدَاءَ طَوْلٍ بِتُثْنِيَانِهَا

أَرَى بَذْلَهَا عِنْدَ إِعْوَازِهَا ... سِوَى بَذْلِهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا

وَأَحْسَنُ مَأْثُرَةٍ لِلْكِرَا ... مِ إِحْسَانُهَا عِنْدَ إِحْسَانِهَا

وَمَا يَتَنَمَّى إلى المَكْرُمَا ... تِ فَيَفْرَعُهَا غَيْرُ فُرْسَانِهَا

لِمَنْ عَادَ بُعْدِيَ عَنْ سَاحَتَيْ ... كَ بِنَقْصِ حُظُوظِي وَخُسْرَانِهَا

وَكَانَ اجْتِنَابِيكَ إحْدَى الذُّنُو ... بِ فَقَصْدِيكَ أَوْلَى بِغُفْرَانِهَا

وَمَا عُوقِبَتْ عُصْبَةٌ أَمِنَتْ ... عَلَى كُفْرِهَا بَعْدَ إِيمَانِهَا

فَإِنَّ خَوَاتِمَ أَعْمَالِ مَا ... تَرَاه جَوَامِعُ أَدْيَانِهَا

وقال الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» . [51] كان محمد بن إسحاق، أبو العنبس الصميري، أحد الأدباء الملحاء، وكان خبيث اللسان، هاجي أكثر شعراء عصره، ونادم جعفر المتوكل، وهو القائل يهجو أحمد بن المدبر، ومازال الكريم يُمدح ويُهْجَى.

أَسَلُ الذِي عَطَفَ المَوَا ... كِب بِالأَعِنَّةِ نَحْوَ بَابِكْ

وَأَرَاكَ نَفْسَكَ مَالِكًا ... مَا لَمْ يَكُن لَّكَ فِي حِسَابِكْ

وَأَذَلَّ مَوْقِفِيَّ العَزِ ... يزَ عَلَى وُقُوفٍ فِي رِحَابِكْ

أَلاَّ يُطِيلَ تَجَرُّعِي ... غُصَصَ المَنِيَّةِ مِنْ حِجَابِكْ

---

51) ص 238 من ج 1، «تاريخ ابن عساكر» ص 61 من ج 1.

وكما كان ابن المدبر تُقَدم له القصائد الرفيعة الشعرية مدحا، فقد كان الكُتَّاب وكبار الأدباء من أقرانه في عصره، يتقربون إليه في قضاء أغراضهم بالقطع النثرية البليغة ثناءً وشكراً؛ ومنها ما خاطبه به الكاتب ابن مُكْرِم[52] قال . إن جميع أكفائك ونُظَرائك، يتنازعون الفضل، فإذا انتبهوا إليك، أقَرّوا لك، ويتنافسون المنازل، فإذا بلغوك، وقفوا دونك، فزادك الله وزادنا بك وفيك، وجعلنا ممن يقبله رأيك، ويقدِّمه اختيارك، ويقع من الأمور بموقع موافقتك، ويجري فيها على سبيل طاعتك.

وقال أيضا في قطعة أخرى :

إن من النعمة على المثني عليك، أن لا يخاف الإفراط، ولا يأمن التقصير. ويَأمَن أن تلحقه نَقيصَةُ الكذب، ولا ينتهي به المدح إلى غاية إلاَّ وجد فضلك تجاوزها، ومن سعادة جدك، أنَّ الراعي لا يعدم كثرة المتابعين له والمومنين معه.

ومن نثر أحمد بن المدبر الرائق البليغ قوله جوابا عن «رسالة عتاب» : [53]

«وصل كتابك المفتتح بالعتاب الجميل، والتقريع اللطيف، فلولا ما غلب عليَّ من السرور بسلامتك، لتقطَّعْتُ غَمّاً بعتابك الذي لَطُفَ حتى كاد يَخْفَى على أهل الرقة والفطنة، وغَلُظَ حتى كاد يفهمه أهل الجهل والبَلَه، فلا أعْدَمَني الله رضاك مجازيا به على ما استحقه عتبك، فأنت ظالم فيه، وعتابك وَلِيُّ المخرج منه».

ومن نوادره الأدبية اللطيفة[54] ما وقع بحضرة الخليفة المتوكل، مع قاضي القضاة يحيي بن أكتم لما قال له : أنت كاتب تتفقَّه، وتذكر أنك لا تلزم الناس إلاَّ بحجج فقهية، أو كما قال، فمن كتب للنبي ﷺ، فأجابه أحمد، ليس على الكاتب أن يعلِّم ذلك ولا يتعلَّمه، ولا على الفقيه أيضا، لأنه ليس يحل حلالا، ولا يحرم حراما، ولا يزيد نظرا في صناعة، وقد روى الناس : أنَّ عثمان، وعليا، وزيد بن ثابت، وحنظلة، ومعاوية، كتبوا للنبي ﷺ، ولكن اخبرني من عمل عملك على عهد النبي ﷺ، فأمر عليه الصلاة والسلام بقتله، يُعَرِّض له باللواط، فأفحم يحيى، واستغرب المتوكّل في الضحك.

ويُؤخذ من هذا كله، أن ءال المدبر، من الأسر القديمة الشهيرة العريقة في العراق، كآل طاهر أمراء خراسان، وآل حميد الطُّوسي، وآل مخلد، وآل سهل بن دينار، وغيرهم، وأنهم

52) «العقد الفريد» لابن عبد ربه، ص 320 من ج 4.

53) «العقد الفريد» لابن عبد ربه، ص 320 من ج 4.

54) «أعتاب الكُتاب» لابن الأبَّار، ص 157.

كانوا مُمَدَّحين من الشعراء، مقدَّمين في مجالس الخلفاء والوزراء، لهم الجاه العريض، والوَجَاهَة عند الخاص والعام، لِما اتّصفوا به من الجود والعطاء، والنِّعمة الواسعة، والأدب الغض الأريض، ولذلك يقول البحتري فيهم كما تقدم :

وَمَا زَالَتِ الْعِيسُ الْمَرَاسِيلُ تَنْبَرِي فَتُقْضَى لَدَى ءَالِ المُدَبِّرِ حَاجُهَا

وقد ابْتُلِيَ إبراهيم وأحمد منهم بالنكبة والسجن، لأنهم كانوا مُحْسَدِينَ من أقرانهم كما سياتي، وكل ذي نعمة مَحْسُود.

هذا مقام أحمد بن المدبّر في قومه، وبين أهل عصره، وقطره ومصره، من الناحية الأدبية.

– وأما الناحية الإدارية،

وما تقلَّب فيه من المناصب السّامية، فقد تولَّى في مذكور الولايات، وأُسندت إليه وظيفة الكتابة، وجباية الأموال، وتنظيم خراج الدولة، كأخيه إبراهيم، منذ عهد الخليفة الواثق ومن بعده من الخلفاء بالعراق والشام ومصر، فسنَّ سننا وابتدع أنظمة جَرَى العمل بها بعده بالأقطار المذكورة. وكان له إدلال وزُلْفَى لدى الخلفاء، وكلمة مسموعة.

تقلده مجلس الاسكدار[55] وكتابته لجعفر الخياط لمّا خرج المامون لبلاد الروم

قال أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري في «كتاب الوزراء والكُتَّاب» .[56]
"حدثني عبد الواحد بن محمد الحصيني قال : حدثني عبد الله[57] بن محمد بن أحمد بن

---

55) الاسكدار لفظة فارسية، معناها «إذكُوَداري» أي، من أين تُمْسِكُ، وهو مدرج يكتب فيه عدد الخرائط، والكتب الواردة والنافذة وأسامي أربابها (عن مفاتيح العلوم للخوارزمي هـ) من هامش كِتَاب «الوزراء والكتاب» للجهشياري.

56) ص 199.

57) عبد الله هذا راوي هذا الحديث، حفيد أحمد بن المدبر، ووالده محمد، غَيْر أبي غالب ممدوح البحتري المتقدم الذكر.

المدبّر قال : سمعت جدّي أحمد بن المدبّر يقول : كنت أتقلّد مجلس الأسكدار في ديوان الخراج، وكانت نفسي تنازعني على أشياء لم تكن تنالها، وكنت أرفع نفسي عن التعرض لكسب الخسيس، فلمّا خرج المامون إلى بلاد الروم، سألني جعفر الخياط الخروج معه لأكتب بين يديه، ففعلت على كره من أبي لذلك، وجَهَدَ أنْ لا أخرج فلم أُطِعه، فدفع إلي بعض إخوانه الذين يثق بهم من حيث لا أعلم خمسة ءالاف درهم، وقال له : تكون هذه الدراهم معك من حيث لا يعلم بها أحد، فإن اختلّت حاله، أو رأيت به خصاصة، عرضت عليه القرض، واسلفته حسبما تراه صوابا، على حسب ما تشاهد من حاله.

قال : فكنت يوما بين يدي جعفر أعمل، حتى دخلت عَرِيبُ الكبيرة اليه، وكنت قد اكتملت، فنظرت إلي، فأطالت النظر، وكنت غلاما، فقالت لجعفر : من أين لك هذا الطير المُرَارِي ؟[58]، فاسْتَحْيَيْتُ وخَجِلْتُ ونهضتُ، وخرجت عريب. فدعاني جعفر، فقال : لعل ما كلمتك به هذه العبارة قد غمّك، وأمر لي بعشرة ءالاف درهم. وما كنت رأيتها مجتمعه قط في ملكي. فخرجتُ وما أعقل فرحا، فاستبدلتُ دابّتي واشتريتُ بغْلاً، يركبه غلامي خلفي. فلمّا كان بعد أيام، لقيني ذلك الصديق الذي كان أودعه أبي الدّراهم، فسألني عن خبري، ورأى أثر حسن حالي، فشرحت له أمري، فخبّرني بخبر المال الذي دفعه إليه أبي، وقال : ما لمكانه الآن عندي وجه، فوجّه به إلي، فرأيت حين جاءني أني في ذلك العسكر أجل من المامون، وكان ذلك أول مالٍ اعتقدته، ثم أتانا الله بما نحن فيه، ولم يكن لذلك سبب غير كلمة عريب".

ويستفاد من هذه القصة أمور ألقت أشعّة كشّافة على ابتداء حياة أحمد بن المدبّر الإدارية، وتكوين ثروته المالية .

– منها، أنه افتتح أعماله الإدارية، بتقلده وظيفة الأسْكُدارْ، أو تسجيل الصادر والوارد بديوان الخراج. وكان ذلك فاتحة أعماله في هذا الديوان الى ءاخر عمره.

– ومنها، أنه كان منذ ابتداء أمره طموحا إلى أشياء أخرى أعلى وأهم، وهي الظهور في عالم الرياسة والسياسة، واقتناء الأموال، كغيره من أقرانه أعيان عصره، ولكنه كان يترفّع عَنِ الدنس وسقوط الهمّة، ولعل هذا كان سرّ نجاحه.

– ومنها، أنه انتظم في سلك موظفي الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المامون .

---

58) لا ندري ما المراد بالمراري هنا.

– ومنها، أن جعفر الخياط، لمّا اختاره للخروج معه صحبة الخليفة المامون لأرض الروم،[59] قَبِلَ ذلك منه على كره من والده لصغر سنه إذْ ذاك، حسبما يوخذ من تعبيره أثناء حديثه بأنه كان غلاما، والغلام الطّاَر الشارب، والغالب فيه أن يكون أدرك سن البلوغ أو راهقه. ويوخذ منه أنه كان يحب الأسفار والتنقل ولو كانت طويلة بعيدة، سعيا وراء الشهرة والوظيفة، كغيره من الشبان، في كل زمان ومكان، ولو كانت في ذلك مغامرة.

– ومنها، أن والده أشفق عليه، وحاول منعه من التّغرب في سفر طويل مجهول الْمَئَال مع الجيش في دار الحرب. وحيث لم يستطع ردّه عن عزمه، كلّف بعض من يَثِقُ به من أصدقائه المرافقين للجيش بمراعاته من بعيد، وأودعه مالا لإنقاذه من الخصاصة والضياع، إذا طال السفر واشتدّت حاجته، واختلّت حاله، لأنه كان في ذلك الوقت لا مال له.

– ومنها، أن والده كان من ذوي اليسار في قومه، ولذلك استطاع أن يُخصِّص قَدْرا من ماله لإعانته سراً إذا دعت الضرورة لذلك.

– ومنها، أنَّه كان في فجر شبابه يستلفت الأنظار بطلعته وهيئته، ولذلك أطالت النظر إليه عريب الكبيرة، وهي من هي عيارة.

– ومنها، أنَّه خَجِلَ واستحيى وبارح المجلس، وذلك يدل على حسن تربيته ونشأته في بيته ومَنْبِتِه.

– ومنها، أن رئيسه جعفر الخياط، لمّا رأى خجله وحياءه، استدعاه وأنعم عليه بمبلغ مهم من المَالِ، أصلح به حاله ومظهره بين أقرانه في الجيش.

– ومنها، أن صديق والده، لاحظ صلاح حاله، وسأله عن أمره، فأخبره بما كان منه. ولمّا علم أنه حازم ضابط مُدبِّر كاسمه، يُؤْتمن على الأموال، سلَّم له الوديعة التي كانت عنده من قِبَلِ أبيه.

– ومنها، أنه صار غنيا بالصلة التي وصله بها رئيسه، والوديعة المالية التي استلمها من صديق والده، حتى ظن نفسه أنه أجل من المامون في ذلك العسكر، يعني رفاهية وترفا؛ وقد يخطر هذا ببال بعض الشبّان وخصوصا إذا كان حديث عهد بنعمة.

---

59) دخل المامون أرض الروم غازيا سنة (830/215) وسنة (832/217).
وفي سنة (833/218) توفي في غزواته، هذه، ودفن بطرسوس، كما في الطبري، ص 280 ـ 281 ـ 283 ـ 295، ج 1 وابن الأثير، ص 154-155 من ج 6.

– ومنها، أن ذلك المال كان البَذْرة الأولى التي أثمرت ما هو فيه من الثَّروة والغنى، والنعم الدَّافقة، وأن سبب ذلك كله هو كلمة عريب.

كتابته لمحمد بن عبد الملك الزيات[60]

وفي عهد الخليفة المعتصم، تولّى الكتابة للوزير أبي عبد الله محمد بن عبد الملك الزيات على الجيش.

ويُحكى أنه قال :[61] كتبتُ لمحمد بن عبد الملك الزيات، فاحتيج إلى توجيه بعض القواد في أمْرٍ مُهِمّ، فعملتُ باستحقاقه ورجاله عملا مفصلا، ثم أجملت التفصيل فغلطت فيه، وصَكَّكْتُ به، وحمل المال إلى القائد وقبضه وشخص، ثم رجعت إلى العمل فتتبَّعته، فوقعت عل الغلط، فاستحييت من محمد بن عبد الملك، فجلست عنه ثلاثة أيام، فوجه إلي فاستحضرني. فكتبتُ إليه أصدقه عن القصَّة، واعترف بالخطإ، وأعلمته أنَّ الحياء منعني من الحضور، وأحكِّمه في نفسي في العقوبة، فوقَّع لي : لا جرم عليك فيما لم تتعمَّد، فارجعْ إلى مكانك، وتحرَّزْ من الوقوع فيما كان منك. وقاص الرجل وأصحابه بما قبضوه عند استحقاقهم.

ثم حدث ما غيره عليه، فأغرى به الخليفة فنكبه وسجنه.

نكبته وسجنه

روى القاضي أبو علي المحسن التَّنُوخِي في كتابه «الفرج بعد الشدة»[62] والفخرى في كتابه «الآداب السلطانية والدول الإسلامية»[63] أنَّ أحمد بن المدبّر قال : لمّا أمر محمد بن عبد الملك الزيات بحبسي، أُدْخلت مَحْبَسًا فيه أحمد بن اسرائيل، وسليمان بن وهب، وهما

---

60) محمد بن عبد الملك الزيات وُزِّرَ للمعتصم والمتوكل، وكان داهية ذا حزم وقوة. ولد سنة (789/173)، وتوفي سنة (847/233).

61) «اعتاب الكتّاب» لابن الأبّار، ص 158.

62) ص 165 من ج 1، طبع دار الهلال.

63) ص 225 طبع القاهرة سنة (1899/1317)

يطالبان، قال فَجُعِلْتُ في بيتٍ ثالث، وكنا نتحدَّث ونأكل جميعًا، وربَّما أُدْخل إلينا النَّبيذ فنشرب، وكان أحمد بن إسرائيل شديد الجبن، وكان ينكر علينا ويمنعنا أن نتحدَّث بشيء أو نرْجو لأنفسنا، فجَاءني يوما سليمان بن وهب فقال : رأيت البارحة في نومي كأن قائلا يقول : يموت الواثق إلى ثلاثين ليلة، فَقُمْ بنا إلى أبي جعفر حتى نحدِّثه، فقلت : والله لئن سمع أبو جعفر هذا لَيَشُقَّنَّ ثوبه، ولَيَسُدَّنَّ أذنيه، فقال لي : قُمْ على كلِّ حال، فقمنا فدخلنا عليه، فأخبره سليمان بالخبر، فقال : يا هذا أنت أحسن النَّاس وأشدهم تحنُّنًا على نفسك وعلينا، وانما تريد أن يشيع هذا فَنُقْتَل، فقال له : أكتب هذه الرؤيا عندك لنمتحن صدقها فَنَفِرَّ، فقال : أنا لا أكتب مثل هذا، فكتبت أنا في رُقعة صغيرة اليوم. فلما جاز يوم الثلاثين، دخل عليَّ أحمد بن اسرائيل فقال لي : يا أبا الحسن، هذا يوم الثلاثين فأخرجت الرّقعة، فإذا هو قد حفظ اليوم، قال : ومضى يومنا إلى آخره. فلمّا كان في الليل، لم نشعُر بالباب الا وقد دُقَّ دَقًّا شديدا، وصاح بنا صائح : البشرى قد مات الواثق واخرجوا إن شئتم. فضحك أحمد بن اسرائيل، وقال : قوموا لقد تحقَّقت الرؤيا، وجاء الفرج . فقال سليمان بن وهب : كيف نمشي مع بُعْدِ منازلنا، ولكن نوجه من يأتينا بمراكبنا. فاغْتَاظَ أحمد بن اسرائيل وقال : نعم نقْعُدُ حتى يجلس خليفة آخر، ويقال له : في الحبس جماعة من الكُتاب عليهم أموال، فيامر بالتَّوَثُّقِ منَّا، إلى أن ينظر في أمرنا. قم عافاك الله حتى نخرج، فخرج وخرجنا على اثره. وقبل ان نخرج من باب الهادوني، رأينا رجلين يقول أحدهما لصاحبه : سأل أمير المومنين جعفر المتوكل عمَّن في الحبس، فقيل له : جماعة من الكُتاب، فقال : يكونون فيه إلى أنْ ينظر في أمورهم. فجددنا السير، وقصدنا غير منازلنا، فَاسْتَتَرْنَا وبحثنا عن الأخبار، فبلغنا إقرار الخليفة محمد ابن عبد الملك الزيات، فكتبت إليه رقعة عن جماعتنا، نُعرِّفه خبرنا، واتساع آمالنا فيه، ونستأذن فيما نفعل. فلمَّا وصلت إليه وَقَّعَ على ظهرها :

ولِمَ اسْتَخْفَيْتُمْ ؟ وليس منكم إلاَّ من عِنَايَتِي تَخُصُّهُ، ورأيي فيه جميل. أمَّا أبو أيوب، فقد تكلم في أمره أبو منصور ايناخ، واستوهبه، فوهبته له، وأمرت بإحضاره يُخْلع عليه، فليحضر.

أمَّا أبو جعفر، فإنه طولب بما ليس يلزمه، وقد وضحت حجّته في بطلانه، فليصر إلي.

وأما أبو الحسن، يعني ابن المدبّر، فإنه قُذف بباطل.

فاظهروا جميعًا واثقين بما عندي من حياطتكم ورعاية حرماتكم. قال : فصرنا إليه جميعا، وزال عنا ما كنا فيه، وخلع على سليمان بن وهب خاصّة.

ولايته قَهْرَمَة الدار

بعد خروج أحمد بن المدبر من هذه النكبة، استرجع نعمته ورتبته، وجاهه ووجاهته. وتولى في عهد المتوكل قهرمة الدار، وهي رتبة ذات أهمية كبرى بدور الخلافة، لما فيها من النفوذ والكلمة المسموعة، والدنو من الخلفاء، واليد الطولى في قصورهم.

فاحتال الفضل بن مروان[64] في حمل المتوكل على عزله منها فَعَزَلَهُ[65] حسدا له، بعدما تتبع هفواته، وفضحه بها عند الخليفة.

ومن ذلك[66] انه تلاحى معه يوما بين يديه، قال الصُّولِي : وكان الخلفاء لا ينكرون تنازع الكُتاب بين أيديهم، وابن المدبّر يلي في ذلك الوقت امر دار المتوكل كله : المطابخ، والفرش، وغير ذلك، وفي المجلس مِرْفقته[67] قد جُعلت لامر ولم ترفع، فضرب الفضل بيده على المرفقة ضربا شديدا، فقام منها غبار كثير، فقال له أحمد : أتغبر بين يدي أمير المومنين ؟ أمالك أدب ؟ اما خدمت الملوك ؟ فضحك الفضل وقال : من خدمتي للملوك فعلت هذا، ليرى أمير المومنين قلة كفايتك في فرشه، وانك لا تهتم بنفضها، ويعلم كيف يكون فيما يبعد عنه، ولولا خوفي من سوء الأدب حقا لضربت البساط، فيرى ماهو أعظم من هذا، فبُهِت أحمد، وجعل يعتذر، فما مضت أيام حتى عُزِل عن الدّار.

ولايته عملا لعبيد الله بن يحيى ابن خاقان وهربه وسجن أخيه إبراهيم

قال أبو الفرج الاصبهاني في «الأغاني»[68]حدثني عمي قال : حدثني محمد بن داود بن الجرّاح قال : كان أحمد بن المدبّر وَلِيَ لعبيد الله بن يحيى بن خاقان[69] عملا فلم يحمد اثره

---

64) الفضل بن مروان استوزره المعتصم وخدم بعده جماعة من الخلفاء، ولد سنة (786/170) وتوفي سنة (864/250).

65) «اعتاب الكتاب»، ص 157.

66) نفس المصدر، ص 133.

67) المرفقة كمكنسة · المخدة

68) ص 115 من ج 19 طبع الساسي.

69) عُبَيْد الله بن يحيى بن خاقان، تولى الوزارة للمتوكل والمعتمد. ولد سنة (824/209) وتوفي سنة (876/263).

فيه، وعمل على ان ينكبه، وبلغ أحمد ذلك فهرب. وكان عبيد الله مُنْحَرِفاً عن إبراهيم، شديد النَّفاسة عليه برأي المتوكل فيه، فأغراه به، وعرَّفه خبر أخيه، وادَّعى عليه مالا جليلا، وذكر أنه عند إبراهيم أخيه وأوغر صدره عليه حتى أذِن له في حبسه، فقال إبراهيم وهو محبوس :

تَسَلَّى فَلَيْسَ طُولُ الْحَبْسِ عَارُ وَفِيهِ لَنَا مِنَ اللَّهِ اخْتِبَارُ

فَلَوْلاَ الْحَبْسُ مَا بُلِيَ اصْطِبَارُ وَلَوْلاَ اللَّيْلُ مَا عُرِفَ النَّهَارُ

وَمَا الأَيَامُ إلاَّ مُعْقِبَاتٌ وَلاَ السُّلْطَانُ إلاَّ مُسْتَعَارُ

سَيُفْرَجُ مَا تَرَيْنَ إِلَى قَلِيلٍ مُقَدَّرَةٌ وَإِنْ طَالَ الإِسَارُ

وزاد ابن الأبَّار في «اعتاب الكُتَّاب»[70] بعد نقل هذه القصة، ان احمد كان أسَنَّ من أخيه إبراهيم، واعلم منه بالاعمال، إلاَّ أنَّ سعده أقل من سعد إبراهيم.

ولايته ديوان الخراج الأعظم

قال اليعقوبي في «تاريخه» :[71]

"كان المتوكل ولَّى علي بن عيسى بن يزدانيروذ ديوان الخراج الأعظم، سنة ست وثلاثين ومائتين (850/236)، وبعد شهرين عزله. وولَّى مكانه أحمد بن محمد بن المدبّر، فنظَّم عُمَّالهُ على طساسيج[72] السواد، وصالحهم على أموال عظيمة.

وكان تحت نظره سبعة دواوين، ديوان الخَرَاج، والضياع، والنفقات الخاصّة والعامّة، والصدقات، والموالي والغلمان، والجند، والشاكرية، فوفَّر أموالا عظيمة.

وقد كانت بينه وبين سلفه في هذه الوظيفة، علي بن سليمان المذكور، عداوة ربما نشأت عن تسابقهما في حلْبة الرياسة والولاية بهذا الديوان الأعظم، وهي عداوة أو داءٌ، قلَّمَا يوجد له دواء.

وكان ابن المدبر يترفَّع على خصمه، ولا يلتفت إلى الجُزْئيَّات، أو يرضى فيه -كما قال- بالمحقَّرات، او يكتفي بحرمانه من رزق يأخذه، او اقتطاع يشمله، ولا يقنع منه الا بسفك دمه، وقطع جرثومته".

---

70) ص 158.

71) ص 488 من ج 2.

72) الطساسيج · النواحي، والطُسُوج أيضا حبَّتان، والدَّانَق أربع طساسيج.

وتفسير ذلك، هو ما نقله لنا، ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري في "كتاب الوزراء والكتَّاب" قال :[73].

«كان بين أحمد بن المدبّر وبين علي بن عيسى يزدانيروذ عداوة مشهورة، وكانت لعلي مقاطعة، يُكتب له بها من الدواوين في كل سنة، فلمّا حضر وقت الكتاب وأحمد يتقلّد الديوان، قال علي بن عيسى لصاحبه : ادخل الديوان سراً، واغرم غرما، حتى تاخذ الكتاب بالمقاطعة، ولا يراك أحمد فيبطلها، ففعل ذلك صاحبه، واجتهد في ستْر الأمر، وانتهى الخبر إلى أحمد ابن المدبّر قبل فراغه، فدعا به، وأنْكَرَ عليه مساترته له، ودعا بالكُتَّاب حتى انتسخوا الكتاب بحضرته، وعلَّمُوا عليه، ودفعه إليه، فأفاض الرجل في شكره وكثَّر، فقال له : تقول له : أظننت أنني أرضي فيك بالمحقرات، وأقتصر على أن أعترض عليك في مقاطعتك ؟ هيهات ! الأمر بيني وبينك أعظم من ذلك، ليس بيني وبينك إلاَّ الدم».

ولما تمكّن أحمد بن المدبر من ديوان الخراج الأعظم، وكان وظيفة عظيمة في الدولة، عظم جاهه، وازدادت وجاهته، واتّسعت دائرة نفوذه، واظهر براعته في تدبير وتوفير الأموال وجبايتها، وضيق بكُتَّاب الدواوين، فاحتالوا عليه لخوفهم منه، وقالوا : إن دمشق والأردن في احتياج إلى التعديل، ولا يقوم بالتعديل إلا من وُلي ديوان الخراج[74].

ولايته ديوان الخراج بدمشق والأردن

لما أشاع الكُتَّاب عن دمشق والأردن احتياجهما إلى التعديل،[75] نقل المتوكل أحمد بن المدبّر من ولاية الخراج بالعراق إلى دمشق والأردن سنة أربعين ومائتين (854/240) وقيل : سنة احدى وأربعين ومائتين (855/241)، وكان ذلك أول انحداره من العراق نحو المغرب، فعدَّلهما، وحمَّل كل أرض ما تستحقه.

وذكر ابن عساكر في تاريخه،[76] ان المتوكل ولَّى أحمد بن المدبر خراج جُنْدِيْ دمشق والأردن، والمساجد وغيرها.

وحين عزم المتوكّل على المسير إلى دمشق، ووصف له برد هوائها، وكان محرورا، كتب إليه يامره باتخاذ القصور، وإعداد المنازل، وإصلاح الطريق، وإقامة المنازل والمرافد.

---

73) ص 252.

74) «تاريخ اليعقوبي» ص 490 من ج 2

75) «تاريخ اليعقوبي» ص 490 من ج 2

76) ص 160 من ج 1

وسـار من سُرَّ من رأى يوم الإثنين لعشـر بقين من ذي القـعدة سنة ثـلاث وأربعـين ومائتين (ذو القعدة 243/ فبراير 858).

ونزل دمشق يوم الأربعاء لثمان بقين من صفر سنة أربع وأربعين ومائتين (صفر 244/ ماي 858)، فحل بتلك القصور، وأقام بها ثمانية وثلاثين يوما...[77].

ولايته خراج مصر

قال اليعقوبي في تاريخه :[78]

لمَّا تولَّى محمد المنتصر الخلافة، نقل أحمد بن المدبر من ولاية خراج الشام إلى ولاية خراج مصر، وَفَرَّقَ أعمال الشام على جماعته، وذلك سنة ثمان وأربعين ومائتين (248/ 862).

ونصَّ المقريزي في كتابه «المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار»[79] على أن ولاية أحمد بن المدبِّر خراج مصر، كانت بعد سنة خمسين ومائتين (864/250).

وإذا كان المنتصر هو الذي ولاَّه، فقد بويع في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين (247/ 861)، وتوفي في ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين (862/248).

وعليه فإن قول اليعقوبي اولى بالاعتبار، لأنه بغدادي الدار، وكان معاصرا لابن المدبِّر، وتوفي سنة ثمان وسبعين ومائتين (891/278).

وأمَّا المقريزي فقد وُلد ونشأ ومات بالقاهرة، سنة خمس وأربعين وثمانمائة (845/ 1441)، فهو متأخر جدا زمانا ومكانا.

ثم قال المقريزي أَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَ مَالاً سوى مَال الخَرَاج بمصر، أحمد بن محمد بن المدبر، لَمَّا وُلِّيَ خراج مصر، بعد سنة خمسين ومائتين (864/250)، وكان من دهاة الناس وشياطين الكُتَّاب، فابتدع في مصر بدعا صارت مستمرة من بعده، لا تُنقض، فأحاط بالنَّطْرُونَ وَحَجَّرَ عليه بعدما كان مباحا لجميع الناس، وقرَّر على الكلإ الذي ترعاه البهائم، مالا سمَّاه المراعي، وقرَّر على ما يطعم الله من البحر مالاً، وسمَّاه المعايد، إلى غير ذلك. فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجي وهلالي. وكان الهلالي يعرف في زمنه وما بعده بالمرافق والمعاون.

---

77) «تاريخ اليعقوبي» ص 491 من ج 2.

78) نفس المصدر ص 493

79) ص 167 من ج 1، مطبعة النيل سنة 1906/1324.

وكان شديدا على الناس في إِلْزامهم اداء ما يقرره عليهم من الضرائب، ولو بالسجن، ولا يستثني منه احدا، ولو كان عالما أو ذا مكانة في الهيئة الإجتماعية.

ومن ذلك ما ذكره ياقوت في «معجم الأدباء» :[80] في ترجمة أحمد بن يحيى بن الوزير ابن سليمان بن مهاجر، الفقيه العالم بالشعر والأدب والأخبار وأيام الناس والأنساب، من انه توفي في حبس ابن المدبّر صاحب الخراج بمصر، لخراج كان عليه، قال : ودفن يوم الأحد لاثنين وعشرين ليلة خلت من شوال سنة خمسين ومائتين (864/250).

وكما كان يُلْزم الناس بالاداء ولو بالسجن، كان يماطل في اداء ما تكتب له به الحكومة المركزية، وتامره بتنفيذه وأدائه من أرزاق الناس وَذَوِي الحاجات.

ومن ذلك ما رواه ياقوت أيضا في «معجمه» :[81] من أنَّ محمد بن القاسم المعروف بأبي العَيْناء، وكان من ظرفاء العالم، ءاية في الذكاء واللَّسْنِ وسرعة الجواب واسْتِحْضَارِ النكتة، شكا تأخر أرزاقه إلى عبيد الله بن سليمان فقال له : ألم نكن كتبنا لك إلى ابن المدبّر، فما فَعَلَ في أمرك ؟ قال : جرني على شوْك المطل، وحرمني ثمرة الوعد، فقال : أنت اخترته، فقال : وما علي وقد (اخْتَار موسى قومه سبعين رجلا). فما كان منهم رجل رشيد (فأخذتهم الرَّجْفَةُ) واختار النبي ﷺ ابن ابي سرح كاتبا فلحق بالمشركين مُرْتَدًّا، واختار علي بن أبِي طالب أبا موسى الأشْعَرِي حكما فحكم عليه.

وقال ياقوت أيضا : ووعده بدابَّة، فلما طالبه بها قال : أخاف أن أحملك عليها فتقطعني ولا أراك، فقال : عِدْني أن تضم إليها حمارا لأواظب مقتضيا. ووعده يوما أن يعطيه بغلا

فلقيه في الطريق، فقال كيف أصبحت يا أبا العيناء ؟ فقال · أصبحت بلا بغل، فضحك منه وبعث به إليه.

وهكذا استمر ابن المدبّر في ولايته المصرية، يقرر الضرائب، ويُنَمِّي الدخل المالي، فكرهه الناس، وكادوا له كيدا، فأحسَّ بذلك، واحتاط لنفسه، واتخذ حرسا وجندا يبلغ نحو مائة غلام هندي ممتازين بالقوة والشجاعة، فكانوا لا يفارقونه في حلِّه وترحاله[82].

80) ص 149 من ج 5.

81) نفس المصدر ص 286 و 293 من ج 18.

82) «تاريخ مصر الحديث» ص 190 من ج 1.

المبحـث الخامـــس

أحمد بن المدبّر وأحمد بن طولون

قـال المـقريزي في «خطط» :[83] لمـا اسـتلم أحـمـد بن طُولُونَ ولاية مـصـر سـنة أربع وخمسين ومائتين (868/254)، كان على الخراج أحمد بن مـحـمد بن المـدبر، وهو من دهاة الناس وشياطين الكتاب كما تقدم، فأهدى إليه هدايا قيمتها عشرة ءالاف دينار، بعدما خرج إلى لقائه هو وشقير الخادم، غلام فتحية أم المعتز، وهو يتقلّد البريد، فرأى ابن طولون، بين يدي ابن المدبر، المائة غلام المتقدمة الذكر، قد انتخبهم وصَيَّرَهُمْ عُدة وجمالا، وكان لهم خَلْق حسن، وطول أجسام، وبأس شديد، وعليهم أقْبِيَةٌ ومناطق ثقال عراض، وبأيديهم مقارع غلاظ، على طَرَف كل مقرعة مقمعة من فضة، وكانوا يقفون بين يديه في حافتي مجلسه إذا جلس. فإذا ركب ركبوا بين يديه، فيصير له بهم هيبة عظيمة في صدور الناس.

فلما بعث ابن المدبر بهديته إلى ابن طولون رَدَّها عليه، فقال لابن المدبّر : إنَّ هذه لهمَّة عظيمة، ومن كانت همته هكذا، لا يومن على طرف من الأطراف، فخافه وكره مقامه بمصر معه، وسار إلى شقير الخادم، صاحب البريد، واتفقا على مكاتبة الخليفة بإزالة ابن طولون.

فلم يكن غير ايام، حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول له : قد كنتَ أعزك الله، اهديت لنا هدية وقع الغنى عنها، ولم يجز أنْ يغتنم مَا لَكَ كَثَّرَهُ الله، فرددتها توفيرا عليك، ونحب ان تجعل العوض عنها الغلمان الذين رأيتهم بين يدك. فأنا اليـهم احوج منك. فقال أحمد بن المدبر لما بلغته الرسالة : هذه أخرى أعظم ممّا تقدم قد ظهرت من هذا الرجل، إذْ كان يردُّ الأعراض ويستهدي الرجال ويثابر عليهم، ولم يجد بُدّاً من بعثهم إليه، فتحولت هيبة ابن المدبر إلى ابن طولون، ونقصت مهابة ابن المدبر لمفارقة الغلمان مجلسه.

---

83) ص 105 من ج 2.

قلت : هذا من دهاء ابن طولون وحكمته، فإنَّه تعفَّف او تعالى عن اخذ ماله وهديته، ولكنه جرَّده من قوته، ومنعه من الركون والاطمئنان الى حاشيته وحراسته، ليسهل تناوله باليد، اذا ساعدت الظروف الزمانية والمكانية على سلبه من وظيفته، وسجنه او اذهاب مهجته.

إنَّ الأُسُودَ أُسُودُ الغَابِ هِمَّتُهَا   يَوْمَ الْكَرِيهَةِ فِي المَسْلُوبِ لاَ السَّلَبِ

وكذلك كان كما سياتي :

ثم كتب ابن المدبر فيه إلى الحضرة يغري به، ويحرِّض على عزله، فبلغ ذلك ابن طولون، فكتمه في نفسه ولم يبده.

واتَّفق موت المعتز في رجب سنة خمس وخمسين ومائتين (869/255)، وقيام المهتدي بالله محمد بن الواثق، وقتل بابك، ورد جميع ما كان بيده إلى ماجور التركي حمو ابن طولون، فكتب إليه : تسلم من نفسك لنفسك، وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر، وكتب إلى اسحاق بْن دينار، وهو يتقلَّد الإسكندرية، أنْ يُسلمها لأحمد بن طولون، فعظمت بذلك منزلته، وكثر قلق ابن المدبر وغمّه، ودعته ضرورة الخوف من ابن طولون إلى ملاطفته، والتقرب من خاطره.

ثم حدثت أحداث بالشام والعراق، وحاول أحمد بن المدبر اغتنامها فبعث بسبعمائة ألف وخمسين ألف دينار حملا من مصر إلى بغداد، ففرقت بدون نتيجة.

وبعد قتل المهتدي، وبيعة المعتمد بن المتوكل سنة ست وخمسين ومائتين (870/256)، كتب لابن المدبر أنْ يطلق من المال لابن طولون ما شاء لمحاربة المشغِّبين على الدولة بالشام، ففعل.

ثم تلاحق[84] أحمد بن المدبر، وأحمد بن طولون، وكشف كل منهما اللثام عن وجهه، وأفسد بينهما شقير الخادم المعروف بأبي صحبة، وكان يتولى البريد وضياعا من ضياع الأقطار، وما يستعمل للسلطان من المتاع، وكتب كل منهما إلى الحضرة يغرى به، وكان لابن طولون أعْيُن واصحاب يطلعونه على سائر ما يروج بالحضرة.

فلمّا بلغه ذلك، تلطَّف حتى توصل بكتب ابن المدبر، وشقير، من غير أن يعلما بذلك، فإذا فيها : ان أحمد بن طولون عزم على التغلب على مصر والمجاهرة بالعصيان، فكتم ذلك.

---

84) «تاريخ اليعقوبي» ص 493 من ج 2، و«الخطط» المقريزية. صفحة 107، ص ج 2.

وبإثْره مات شقير، وانفرد ابن المدبر، فكتب حينئذ ابن طولون إلى الحضرة يسأل صرفه عن الخراج وتقليد محمد بن هلال، فأجيب إلى ذلك، وصدر أمر الخليفة بعزله، وتولية ابن هلال.

وحينئذ قبض أحمد بن طولون على أحمد بن المدبر وحبسه وقيده. زاد اليعقوبي : والبسه جبة صوف واوقفه في الشمس، فاقام بهذه الحالة ثلاثة أشهر.

ثم ورد الامر برده إلى خراج مصر، فاقام تسعين يوما وورد الامر أيضا بازالته ورد محمد بن هلال.

قال اليعقوبي :[85] ثم جاء امر المعتمد إلى ابن طولون متعقبا ما سبق، بِرَدِّ أحمد بن المدبر إلى تدبير خراج مصر كما كان سابقا، فوجده الحال محبوسا في سجن ابن طولون، فأخرج يوم السبت لسبع ليال بقين من ذي القعدة، سنة ست وخمسين ومائتين (870/256)، وتولى الخراج. وكان حبسه تسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما.

وبعد ذلك اشتد الصراع بين الأحمدين، وحدثت حوادث، ءالت إلى خروج ابن المدبر عن مصر، وتقلد ابن طولون خراجها، وجمع بين الرياستين المالية والحكومية.

رجوع أحمد بن المدبر لتدبير خراج الشام

قال اليعقوبي[86] في المحرم سنة ثمان وخمسين ومائتين (محرم 258/ نونبر 871)، خرج أحمد بن المدبر من الفسطاط متوجها إلى الشامات فأقام بها، وقصد مدينة دمياط، وتَوَلَّى أعمال الخراج، وصُرِف خراج مصر إلى أحمد بن محمد بن شجاع.

ولما رجع إلى الشام، ابتهج به الشاميون.

قال ابن عساكر، حاكيا عن أبي زرعة عبد الرحمان بن عمرو : قلت لابن المدبر بعد عوده من مصر : سبحان من أتى بك بعد إبَائكَ على فاقة إليك، وحاجة وخَلة واختلال، ولقد أمَّلْتُ بمقدمك، – مدَّ الله في طول أيامك –، أنْ تكون بركة، كغيث نزل بأرض قَفْرَاءَ امْحلت لفقد الغيث، فلمّا أُغيثت أخرجت بركتها، وظهرت زينتها وبهجتها، وإني لأرجو أن يصلح الله بك،

85) «تاريخ اليعقوبي»، ص 508 من ج 2.
86) ص 509 من ج 2.

وعلى يديك، وان يعمر الأرض ويزكوَ الفَيْئ. قال أبو زرعة : فلما خرجنا عنه قال لي عبد الله ابن ذَكْوَانٍ : ليته كان قاضيا علينا.

قالوا :[87] وقبل مفارقته مصر، اجْتَهَدَ حتى أعاد صِلاتِ الوصل بينه وبين ابن طولون، وتوطيداً لها، زوج ابنته لخُمارويه بن أحمد بن طولون، ووهبه معها جميع الأملاك التي كانت له بمصر.

ومع هذا كله، فإن هذا الصلح كان مبنيا على دخن، إذ كانت الشام داخلة تحت نفوذ ابن طولون، وكان المثال ان ابن طولون أعاد الكرة على خصمه ابن المدبر، واصطلم نعمته، وسجنه وداس كرامته.

قتل أحمد بن المدبّر
ووفاة أحمد بن طولون

بقي أحمد بن المدبر بالشام، وأحمد بن طولون بمصر يتجاذبان حبل الرياسة، ويتسابقان في ميدان السياسة، ويستغل كل واحد مِنْهُمَا الظروف والحوادث التي تبرزها الأيام، ويتربَّص كُل واحد منهما بصاحبه الدوائر.

وحدثت فتنة العباس بن أحمد بن طولون، وخلافه على أبيه، وخروجه إلى برقة والمغرب الأوسط، ولم نقف على نص صريح يفصح عن موقف أحمد بن المدبر منها، الا ما سنستنتجه من أقوال بعض المؤرخين، وأخيرا كانت الدٌبرة على ابن المدبر، فأدبرت أيامه، ولحق به خصمه، فطويت أعلامه، وعند الله تجتمع الخصوم.

قال ابن عساكر، نقلا عن صالح بن مسافر الكاتب،[88] ان ابن طولون استدعى ابن المدبر من دمشق، فلما قدم عليه، حبسه وضيق عليه، فكتب إليه رقعة من الحبس، ودفعها إلى من كان يتولى خدمته، وامره ان لا يدفعها إلا في يد ابن طولون، فأوصلها إليه، فدعا ابن طولون كاتبه ابن حدار، وكان شاعرا أديبا وقال له : اقرأ فقرأها فإذا مكتوب فيها.

---

87) «تاريخ مصر الحديث»، لزيدان ص 195 من ج 2.

88) «تاريخ ابن عساكر» ص 61 من ج 1.

أُريتُ قُبَيْلَ الصُّبْحِ رؤيا كأنَّنا جميعاً على سَطْحٍ يُنيفُ بِنَا السَّطْحُ
إذْ فارسٌ يهوي إلى السطح مُقْبِلاً أخُو شكَّةٍ بُرْهَانُه السيفُ والرُمْحُ
يُلَوِّحُ بالبُشْرى إليْك مُبادراً بعقْب كَتابِ الفتح إذْ قُرِئَ الفَتْحُ
وَقُل لِّي فَدَتْكَ النفسُ منْ كلِّ حادث وإنْ بانَ بالنَّفْس النَّفاسَةُ والشُّحُّ
أما كان دونَ الحَبْسِ لِلْمَرْءِ مَعْتَبٌ بتَمْويه واشٍ شأنُهُ القَذْفُ والقَدْحُ
يُصَرِّحُ بالبُهْتان تصْريحَ مَازِحٍ ويَا رُبَّ جِدٍّ قادَهُ اللَّعْبُ والمَزْحُ

فقال لابن حدار : أجبه، فقال : بالرضا أم بالسخط ؟ فقال : بالسخط فقلب الرقعة، وكتب في ظهرها :

أأحمدُ كان السَّطْحُ بَيْنَ محمد مُنيفًا، ولو عالَيْتَهُ انْخَسَفَ السَّطْحُ
مَتَى كُنْتَ بالإخلاصِ للَّه موقناً فتَصْدُقُ في رؤياك إذْ قُرِيءَ الفَتْحُ
ولَكِنْ أدام اللَّه عزَّ أميرنَا ودامَتْ له النُّعْمَى ودام له النُّجْحُ
فَكَمْ ذَبَحَتْ كَفَّاكَ منْ رَبِّ نعْمةٍ بلاَ شَفْرة بَلْ يُحْتَوَى المِلْك والسَّرْحُ
فَأصْبَحَ ممَّا خَوَّلَ اللهُ عارياً فلاَ جاهُهُ يَبْقَى وَلا المَالُ والرِّبْحُ
وَمِنْ عَدْلِنا أنْ قَدْزُوِيتَ مُضَيَّقًا عَلَيْكَ فَلاَ عَفْوٌ مُرَجًى ولا صَفْحُ
فَلَوْ جَاءَنا النَّاعِي بِنَعْيِكَ جَاءَنا بِأَنْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ لِلنَّاسِ والفَتْحُ

فلما قرأها عند ذلك يئس من نفسه.

وقال أحمد بن خاقان : إنَّ احمد بن طولون أشخص أحمد بن المدبر إلى مصر سنة خمس وستين ومائتين (878/265)، وحبسه في أضيق مجلس حتى مات. فذكر أحمد بن كامل ابن خلف، أنَّ الخبر ورد بموته في حبس ابن طولون سنة سبعين ومائتين (883/270)، وذكر ابن القواس ان ذلك كان سنة احدى وسبعين ومائتين (884/271).

وقال ابن تغرى بردى في «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»[89] :

وفيها، أيْ سنة سبع وستين ومائتين (880/267) وثب احمد بن طولون على احمد بن المدبر، وكان متوليا خراج دمشق والأردن وفلسطين، وحبسه، واخذ أَمْوَالَهُ، ثم صالحه على ستمائة ألف دينار، والظاهر أنه بقي هذه المرة في سجن ابن طولون حتى مات.

---

89) ص 43 من ج 3.

وذكر ابن خلكان :[90] أنه كان متوليا خراج مصر سنة خمس وستين ومائتين (265/ 878)، وحبسه ابن طولون. ومات في حبسه في صفر سنة سبعين ومائتين (883/270)، وهو ما تقدم أعلاه نقلا عن ابن عساكر. و قيل بل قتله ابن طولون، ولم يمت حَتْفَ أنفه، والله أعلم.

وفي ليلة الأحد لعشر خلون من ذي القعدة من هذه السنة، توفي أحمد بن طولون أيضا، ولحق الخصمان بربهما، وهو سبحانه الحكم العدل بينهما.

هذا وقد علمنا مما جمعناه والتقطناه من أخبار أحمد بن المدبر، الذي يقال إنه الجد الأكبر لبني عشرة، المبعثرة في بطون الدواوين، وكتب التراجم والتاريخ والأدب والأخبار، انه كان من كُتاب الدولة العباسية البارزين المشار إليهم بالبنان، ومن جُبَاة أموالها، ومنظمي خراجها بالعراق والشام ومصر. وانه كان من رجالاتها المعدودين، الذين لهم في الدهاء والمعرفة ذكر وشان. ولذلك تجاذب حبل الرياسة والسياسة والظهور مع أحمد بن طولون، وحصل بينهما نزاع وشنآن، انتهى بالقضاء على أحمد بن المدبر، ولم ينفعه معه حزم ولا تدبير، ونفذت فيه مشيئة الحكيم القدير.

أولاد أحمد بن المدبر وذريته بمصر

علمنا مما سبق من أخبار أحمد بن المدبر، أنه كان له ولد بالعراق اسمه أبو غالب، ساد وظهر في حياته، ومدحه البحتري كما مدح والده وعمه ابراهيم. ولا نعلم هل رافق والده إلى الشام ومصر أم لا. ولعله بقي بالعراق، لأننا لم نقف له على ذكر أثناء الأطوار التي تقلب فيها والده، والحوادث التي مرت عليه في القطرين المذكورين.

وعلمنا أيضا مما تقدم، ان أحمد بن المدبر، فارق العراق منحدرا إلى الشام سنة أربعين ومائتين (854/240) .

ودخل مصر سنة ثمان وأربعين ومائتين (862/248).

وأقام بها إلى أن مات، سنة سبعين ومائتين (883/270) ما يزيد على عشرين سنة، تخلَّلتها فترة رجوعه إلى الشام، لما ثارت عاصفة الخلاف والعداوة بينه وبين أحمد بن طولون.

---

90) ص 55 من ج 6، طبع دار النهضة سنة 1948.

ولاشك أنه كان له في هذه الفسحة من حياته بالشام ومصر أزواج وذرية، لم تبلغنا عنها تفاصيل كافية، ولم نعرف عددها، ولا أسماء أفراد أعيانها، وإنما ورد ذكر بعض أحفاده، وأحفاد أحفاده، أو الإشارة إليهم أثناء سياق بعض الأخبار، أو سرد بعض الوقائع التاريخية، وربما أبْهِم اسمهم، واكْتُفِي بنسبتهم إليه كما سيأتي أثناء تلفيق الأخبار القليلة التي التقطناها من كتب التاريخ والتراجم.

ومن ذلك أنه كانت له بنت بمصر، زوَّجها لخُمارويه، ولد أحمد بن طولون، وخَلَفَهُ في الامارة بعده تاميناً له، وتسكيناً لثورته، ورغبةً في ربط صلة الوصل بينه وبينه بالمصاهرة، فلم يُجْدِ ذلك نفعا[91].

ومن ذلك، انه كان له ولد اسمه محمد. وهل هو أبو غالب ؟ وكان لهذا الولد ولد اسمه عبد الله، وهو الذي روى لنا قصة خروج جده في جيش المامون إلى أرض الروم كاتبا مع جعفر الخياط، حسبما تقدم نقلا عن كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشياري[92] وليست لدينا الآن معلومات أخرى عن الوالد وولده.

ومن أعيان حفدته الذين لم نقف على اسمهم بالتعيين «الشيخ ابن المدبر» الكاتب مع وزير الدولة الاخشيدية، بالديار المصرية، أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، المعروف بابن حِنْزابَة[93] وهي جدته، وبها كان يعرف، المتوفى سنة إحدى و تسعين وثلاثمائة (391/ 1001).

وله معه قصة ظريفة طريفة، أوردها كل من ياقوت الحَمَوِي في «معجم الأدباء»[94] ومحمد شاكر في «فوات الوفيات»[95] وللطافتها وطرافتها وغرابتها، وما يستنتج منها، لم نر بُدّاً من إدراجها وهي :

---

91) «تاريخ مصر الحديث»، لجرجي زيدان، ص 195 من ج 1.

92) ص 199.

93) حِنْزَابَة بكسر الحاء المهملة وسكون النون وفتح الزاي وبعد الألف باء موحدة مفتوحة ثم هاء ساكنة المرأة القصيرة الغليظة.

94) ص 170 والتي بعدها من ج 7 طبع الحلبيى.

95) ص 204 والتي بعدها من ج 1.

قال ياقوت :

قرأت بخط الشريف النسَّابة، محمد بن أسعد بن علي الجواني المعروف بابن النَّحوي : كان الوزير جعفر بن الفضل بن الفُرات المعروف بابن حِنْزَابَة، يهوى النظر إلى الحشرات من الأفاعي، والحيات، والعقارب، وأم أربعة وأربعين، وما يجري هذا المجرى. وكان في داره التي تقابل دار الشَّنْتكَانِي ومسجد ورش. – وكانت لِلْمَاذرَائي قبل ذلك – قاعة لطيفة مرخمة، فيها سِلَلُ الحيَّات، ولها قيم فراش حاوٍ من الحُواة، ومعه مستخدمون برسم الخِدْمة، ونقل السِّلل وحطِّها. وكان كل حاوٍ في مصر واعمالها، يصيد له ما يقدر عليه من الحيات، ويتباهون في ذوات العجب من أجناسها، وفي الكبار، وفي الغريبة المنظر. وكان الوزير يثيبهم في ذلك أوْفَى الثواب، ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا في تحصيلها. وكان له وقت يجلس فيه على دكة مرتفعة، ويدخل المستخدمون والحواة، فيخرجون ما في السلل ويطرحونه في ذلك الرخام ويحرِّشون بين الهوام، وهو يتعجب من ذلك ويستحسنه.

فلما كان ذات يوم، أنفذ رقعة إلى الشيخ الجليل ابن المدبر الكاتب، وكان من أعيان كتاب ءابائه ودولته، وكان عزيزا عنده، وكان يسكن في جوار دار ابن الفرات، يقول فيها :

نشعر الشيخ الجليل –أدام الله سلامته– انه لما كان البارحة، وعرض علينا الحواة الحشرات الجاري بها العادة، انساب إلى داره منها الحية البتراء، وذات القرنين الكبرى، والعُقْرُبان الكبير، وأبو صوفة، وماحَصلُوا لنا إلاَّ بعد عناء ومشقة، وبجملة بذلناها لِلْحُواة.

ونحن نامر الشيخ – وفقه الله تعالى – بالتوقيع إلى حاشيته وصبيته، بِصَوْنِ ما وُجد منها، إلى أن نُنْفِذَ الحُواة لأخذها وردها إلى سِلَلها.

فلما وقف ابن المدبر على الرقعة قلبها وكتب في ذيلها :

أتاني أمر سيدنا الوزير – أدام الله نعمته، وحرس مدته – بما أشار إليه في أمر الحشرات، والذي يعتمد عليه في ذلك، أنَّ الطَّلاق يلزمه ثلاثا إن بات هو أوْ واحد من أولاده في الدار، والسلام.

ويستنتج من هذه القصة عدة استنتاجات :

– منها، اعتناء هذا الوزير بجمع الحشرات والحيَّات وأنواع الحيوانات الزَّاحفة، وأنه كان يهوى النظر إليها إما للتسلية والعبرة أو الدرس، شان ما يفعله علماء العصر الإختصاصيون

في علم الحيوانات ودرس طبائعها (Zoologues)، من إحداث أقسام في المتاحف العلمية لعرض هذه الحيوانات حية وميتة. وهو ما يعبرون عنه بعلم الحيوان، أو درس طبائع الحيوان (Zoologie) ويقصدها الناس والسياح من البلاد الدَّانِيَة والقاصية، بقصد التسلية أو العبرة، أو الدَّرس كذلك، حسب مذهب كل واحد منهم ومشربه.

وعليه فليس بغريب ما فعله هذا الوزير، وقد تقدَّم من أتى بعده من علماء درس الحيوان وطبائعه في عصرنا هذا بنحو ألف عام .

– ومنها، ان ابن المدبر هذا، وان كان الوزير ابن حِنْزَابَة أبهم اسمه، فقد كان على ما يظهر من ذوي الإجلال والوقار، ولذلك خاطبه مع مكانته العلمية، ورتبته الوزارية، وما أدْرَاكَ ماهية، في تلك الأزمنة الخالية، – بالشيخ الجليل – ولاشك أن هذا الخطاب يُشْعِر بالاحترام الكبير، ومزيد التقدير.

لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلاَلاً وَتَكْرِمَةً وَقَدْرُكَ المُعْتَلِي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا

– ومنها، أنه كان كاتبا في ديوانه، ولذلك خاطبه بالكاتب.

– ومنها، أنه كان من أعيان كُتَّاب ءابائه من الوزراء ءال الفرات الذين سبقوه، مما يَدُلُّ على أنه كان عريقا في خطة الكتابة التي كان لها اعتبار وشأن عند أولئك القوم في ذلك الزمان، ودولته، يعني الدولة الكافورية الإخشيدية.

– ومنها، انه كان حظيا اثيرا عنده، مرموقا بعين الإعتبار وسُمُوِّ المكانة لديه، ولذلك ألاَنَ له القول ولطف العبارة.

– ومنها، انه كان يسكن بجوار داره، ليكون قريبا منه كلما احتاج إليه، وذلك دليل على اختصاصه به، وملازمته له، شان الكُتَّاب المقربين من الرؤساء والأمراء لكفاءتهم، وقيامهم بوظيفتهم في كل وقت وحين.

– ومنها، أن الشيخ ابن المدبر، لما أتاه أمر الوزير بصيانة الحيات والعقارب المنسابة لداره، استشعر شراً، وخَشِيَ على نفسه وأولاده منها.

فأجاب مقسما بالطَّلاق، بأنه لا يبيت هو أو أحد من أولاده بتلك الدار خوفا من إذايتها، يعني وللوزير الحق في تفتيشها وتطهيرها من الحيات والحشرات، وردها لِسِلِلها في قاعتها المختصةً بها في داره.

ومن أعيان حفدة أحمد بن المدبر الذين ورد لهم ذكر في الدولة الفاطمية "عبد الله بن يحيى بن المدبر"، ولم نقف على من رفع نسبه بعد يحيى، ووصله بأحمد بن المدبر، وعلى كل حال فهو من حفدة حفدته الذين نشأوا بمصر، ولم يفارقوها، إذ بين تاريخ وفاتيهما نحو مائة وخمس وثمانين سنة.

ويؤخذ ممَّا عثرنا عليه حتى الآن من أخباره القليلة، أنه كان من أعيان الدولة الفاطمية ورجالها البارزين، ولذلك ولاَّه الخليفة المستنصر الوزارة بعد عزل الوزير البابلي في المحرم سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة (1061/453).

ثم صرفه في رمضان من السنة، وتداول الوزارة بعده آخرون، إلى سنة خمس وخمسين وأربعمائة (1063/455) فأعيد للوزارة في صفر منها، بَدَلاً من الوزير أبي علي أحمد بن عبد الحكم، وبقي فيها إلى أن مات في شهر جمادى الأولى من السنة نفسها[96].

وجاء في «النجوم الزاهرة» لابن تغرى بَرْدى،[97] انه كان له ابن أخ من رجال الدولة الفاطمية أيضا وأصهارها، لأنه تزوج إحدى بنات نزار بن الخليفة المستنصر. وكان مع ناصر الدولة بن حمدان، لما قتله إِلْدِكَزْ التركي عقب فتنة الترك والسودان انصار أم الخليفة السودانية والمتعصبين لها والمُعْصَوصبين عليها، فانهزم أمامه لما قامت الهيعة في رمضان سنة خمس وستين وأربعمائة (1073/465) في زي المكدين، فأُخذ، وحيث كان تزوج حفيدة الخليفة، فقد قُطع ذكره وجُعل في فمه ثم قُتل.

وجاء فيه أيضا[98] ان بدر الجمالي لما وصل مصر مُلبِّيا دعوة الخليفة المستنصر لما استنصر به على إِلْدِكَزْ المذكور، قاتل ناصر الدولة والمستبد عليه، وجده تغلب على مصر ووصل إلى دمياط. قال : وبها يومئذ ابن المدبر، ولم يذكر إسمه. وكان قد هرب منه، فقتله وصلبه وعاد إلى مصر.

ولما دخل بدر الجمالي مصر، احتال على إِلْدِكَزْ، عدو الخليفة، حتى قتله، وذلك كله سنة سبع وستين وأربعمائة (1074/467)، وهو بلا ريب غير ابن المدبر المتقدم الذكر، الذي

---

96) «حسن المحاضرة» للسيوطي ص 153 و 154 من ج 2 و«تاريخ مصر الحديث» لزيدان ص 269 من ج 1، والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي، المصري، ص 48

97) ص 22 من ج 5 و «تاريخ مصر الحديث» ص 277 من ج 1.

98) نفس الصفحة ونفس الجزء.

كان متزوجا بحفيدة الخليفة، لأنه مُثِّلَ به وقُتِل، سنة خمس وستين وأربعمائة (1073/465). وهذا لم يُقتل إلا في سنة سبع وستين وأربعمائة (1074/467) ولعلّه كان واليًا أو من الموظفين بدمياط، أو ذوي النُّفوذ والجاه بها.

والذي يوخذ من هذا كله، هو أن جميعهم من الأسرة المدبرية النازحة إلى مصر، وحافظت على ذكرها ومركزها فيها نحو قرنين من الزمن، ومن حين لآخر كان يلمع منها نجم يضيء في سماء الرياسة والحكم والسياسة، ثم يختفي. ولله عاقبة الأمور.

انتقال ءال أحمد بن المدبـر
من مصر إلى المغرب الأوسط

تبين لنا مما سطرناه في الفصل السابق، أن ءال المدبر بقيت منهم بقية بمصر، وظهر أفراد منهم في الدولتين الإخشيدية، والفاطمية. وكان لهم ذكر ومقام في الكتابة والوزارة.

وليس لدينا الآن نص صريح نعتمد عليه، يُفصح عن سبب وكيفية انتقال زمرة منهم، أو فرد من أفرادهم من مصر إلى المغرب الأوسط، ولا تعيين الزمن الذي وقع فيه هذا الإنتقال بالضبط. وهذه نقطة غامضة في أخبار بني عشرة المنتَسبين إليهم. ولم يبق لدينا إلاَّ فُروض واحتمالات وظنون واستنتاجات تاريخية تحتمل الصدق والكذب لذاتها، حتى يقوم الدليل بالنص الصحيح على نفيها أو إثباتها. وعليه :

فهل كان هذا الإنتقال في زمن ابن طولون أو بعده ؟ وإذا كان في زمن ابن طولون، فهل فراراً منه لمَّا نكب والدهم وسجنه، وسلبه رياسته ونعمته ؟ وهذا محتمل جدا لأنه :

لاَ يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ... إلاَّ الأذلاَّنِ عَيْرُ الحَيِّ والْوَتِدُ
فَذَا عَلَى الخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِي لَهُ أَحَدُ

أو كان انْتِقَالُهم اختياراً منهم للهجرة من مصر ؟ حيث لم يبق لهم بها رياسة ولا ذكر ولا كرامة في الدولة الطولونية، لأن العز في النقل، وإذا نبا بك منزل فتحول.

أو دخلوا إلى إفريقية، بصفة أخرى مع بعض السَّرايا الحربية، أو القوافل التجارية ؟ أو لسبب آخر من الأسباب، التي لم نعلمها ولم يصلنا خبرها ؟

وهناك احتمال آخر، وهو أن ءال المدبر لما ادبرت عنهم الأيام، وثار العباس بن أحمد بن طولون على والده، و توجه إلى إفريقية، ووصل إلى برقة، سنة خمس وستين ومائتين (878/265) انضمُّوا إليه، انحرافاً عن والده لِمَا بينهم وبينه من العداوة، والتنافس على الرياسة. ولمَّا وصلوا إلى إفريقية التحقوا بالثوار، ومنها تسرَّبوا إلى المغرب الأوسط، فاستقرُّوا به إلى أن كان منهم الأمير عشرة.

ولَعَلَّ هذه الفتنة كانت من الأسباب التي دفعت ابن طولون إلى الوثوب وثبته الأخيرة على أحمد بن المدبر سنة سبع وستين ومائتين (267 / 880)، وحبسه واخذ ماله كما تقدَّم نقلاً عن ابن تغرى بردى في «النجوم الزاهرة»[99]

وقد تعاقبت على إفريقية والمغرب الأوسط منذ انتهاء فتنة العبَّاس ولد أحمد بن طولون في السنة المذكورة إلى أن ظهر عشرة بالمغرب الأوسط ووفد على هشام المؤيد بالأندلس، كما سياتي، عدة دول، وهي :

– الدولة الفاطمية ، بطرابلس وتونس ، قبل أن تنتقل إلى مصر من سنة ست وتسعين ومائتين (909/296) إلى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة (972/362).

– والدولة الرُّسْتُمِيَّة، بالمغرب الأوسط، وشملته كله، ما عدا ناحيتي الزاب وتلمسان، من سنة ستين ومائة (976/160) إلى سنة ست وتسعين ومائتين (972/296).

– والدولة الإدريسية، ولم يمتد نفوذها إلا على طرفٍ من المغرب الأوسط فقط. ولم يشمله كله، من سنة اثنتين وسبعين ومائة (789/172) إلى سنة إحدى عشر وثلاثمائة (923/311).

– والدولة الصَّنْهاجية، ابتدأت سنة إحدى وستين وثلاثمائة (972/361) وطال زمنها، وانقسمت في الأخير إلى قسمين.

شرقي : وعاصمته القيروان

وغربي : وقاعدته القلعة الحمَّادية

---

99) ص 43 من ج 3.

إلى أن قضى عليها عبد المومن بن علي سنة سبع وأربعين وخمسمائة (1153/547)، ولم يرد لآل المدبر ذكر في هذه الدولة، ولا في حروبها بالمغرب الأوسط وإفريقية، بل اختفى هذا الإسم ما يزيد على مائة عام، إلى أن ظهر عشرة الذي قيل إنه منهم مُتَّصفاً بالإمارة من غير تعيين محلها بالمغرب الأوسط.

* * *

وقد ظهر لنا بعد البحث في ءال المدبر، وبنى عشرة المنتسبين إليهم، ان نُنظِّر بينهم وبين بني حمدون، مع مراعاة النظير، ومقابلة المشبه بالمُشَبَّهِ بِهِ في حسن التنظير، بمن تعاقب على هذا المغرب الكبير، من الأسر السرية النبيلة من أمير ووزير، ولا يَخْلُو ذلك من فائدة تاريخية، ومِلَحٍ أدبية، لا تخرج عن نطاق دائرة موضوعنا، وربما ستجر ذيلها على ما سنحرره فيما سياتي من فصول أبحاثنا، فنقول :

المبحث السادس

التنظير بين ءال المدبّر وبين ءال حمدون[100]

نظير ءال أحمد بن المدبِّر، الذين جاءوا من العراق إلى الشام، ثم إلى مصر ثم إلى المغرب الأوسط، وظهر منهم به عشرة الذي كان من شيعة الامويين بالأندلس، واقطعه هشام المُؤَيَّدَ أرض سلا، ءال حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجُذَامي، المعروف بابن الأندلسية، الذين جاءوا من الشام. وجدهم الأكبر، عبد الحميد، كان الداخل إلى الأندلس. ولا نعلم بالضبط تاريخ دخوله.

ثم انتقل أحد حفدته، حمدون، المُسمَّاة به الأسرة، إلى بجاية، وصحب أبا عبد الله الشِّيعي الدَّاعي، وكانت له به معرفة قبل ذلك بالمشرق، وانتحل نِحْلَته، وتشيَّع له ولده علي. وفي أيامه ظهر، وازداد ظهورا في أيام أبي عبيد الله المهدي، وابنه أبي القاسم.

ولما اختطَّ مدينة المسيلة بأرض الزّاب، سنة خمس عشرة وثلاثمائة (927/315)، رسمها برمحه، وهو على فرسه، أمَّره عليها، وأمره ببنائها.

كما مصَّر عشرةُ سلا، وبقي في إمارتها إلى أن هلك في فتنه أبي يزيد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (940/334)، وخَلَّفَهُ عليها ولداه : جعفر ويحيى، فشيَّدا بها القصور

---

100) مراجع هذا الفصل :

«ابن عذاري» ص 361 من ج 2، «ابن خلدون» ص 198-277-291 من ج 1، طبع الجزائر و ص : 76-21-38 من ج 2، نفس الطبعة، «الحلة السيراء» لابن الأبار ص 434، «اعلام الزركلي» ص 119 من ج 2 وص 93 من ج 5، «تاريخ الجزائر» لمبارك الميلي ص 94 وما بعدها من ج 2، «ديوان ابن هانيء»، «نفح الطيب» للمقري ص 213 من ج 2، و ص 4 من ج 4، طبع دار السعادة بمصر عام (1949/1368).

Histoire des Musulmans d'Espagne par Dozy, T II, pages : 198-230-236-237.

Histoire de l'Espagne Musulmane par E Levy-Provençal, T II, pages : 187-188-195-206-224-226-231-260-261-262-263.

Traduction d'Ibn KHALDOUN par le Baron de Slane, Appendice III, p. 554, T II.

الضَّخمة، والمنازل الفخمة. وامتازا من بين أمراء الفاطميين في أوَّل عهدهما، بالإخلاص لهم، وإشاعة مَذهبهم، والكرم الحاتمي، والجود الفيَّاض، والهمَّة العالية.

وكان لجعفر ولد اسمه إبراهيم، ساد في حياة أبيه، وشبهه في جوده وكرمه. ومن شبه أباه فما ظلم. قضمَّت مجالسهم العامرة عيون أعيان الأمراء والعلماء، واجتمع على منادبهم، نخبة الكتاب والأدباء، وتغنى بجودهم وعطائهم الشعراء، ومنهم شاعر الدولة المُعزِّية، أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي، فخلَّد فيهم قصائد، كأنها أزهار الأفنان، او قلائد اللؤلؤ والمرجان، تُضارع ما قَالَهُ المتنبي في ءال حمدان، فكان بأمداحه لهم بمنزلة البحتري من ءال المدبر، أسلاف بني عشرة في الميدان ؛ ومن أمداحه فيهم قوله من قصيدة :

كَأنَّ لِوَاءَ الشمس غُرَّةُ جعفر رأى القِرْنَ فازدادت طَلاَقَتُهُ ضِعْفَا
وقد جَاشَتِ الدَّأمَاء بيضاً صَوَارِماً ومَارِنَةً سُمْراً وَفَضْفَاضَةً زَغْفَا»...

وفي جعفر يقول أيضا :

خَلِيلَيَّ أَيْنَ الزَّابُ مِنِّي وَجَعْفَرُ وَجَنَّاتُ عَدْنٍ بِنْتُ عَنْهَا وَكَوْثَرُ
فَقَلْبِي نَأَى عَنْ جَنَّةِ الخُلْدِ ءَادَمٌ فَمَا رَاقَهُ مِنْ جَانِبِ الأَرْضِ مَنْظَرُ

وفيهم يقول :

أَبَنِي العَوَالِي السَّمْهَرِيَّةِ والسُّيـ ـوفِ المَشْرَفِيَّةِ وَالعَدِيدِ الأَكْثَرِ
كُلُّ المُلُوكِ مِنَ السُّرُوجِ سَوَاقِطٌ إلاَّ المُمَلَّكَ فَوْقَ ظَهْرِ الأَشْقَرِ
مَنْ مِنْكُمُ المَلِكُ المُطَاعُ كَأنَّهُ تَحْتَ السَّوَابِغِ تُبَّعٌ فِي حِمْيَرِ

ويُحكى أنه لما انشد هذه الأبيات، ترجَّل العسكر كله، ولم يبق راكبا سوى الممدوح. ولا يعلم سؤال كان جوابُه نزولَ عسكر جرَّار غيره.

وبعد هذا كله، فقد حصلت وحشة ومنافسة على الرياسة بين الأخوين جعفر ويحيى، وبين زيري بن مُنَادٍ الصنهاجي، انتهت بحرب بينهم قُتِلَ فيها زيري عدو بني أمية، فخرج الاخوان ناجييْن بأنفسهما من إفريقية إلى الأندلس، وافديْن على هشام المؤيد، كما وفد عليه عشرة بعد هذا التاريخ، نابذيْن دعوة الشيعة، ومُراجعيْن طاعة الخلافة الأموية، ومتقربيْن

إليها براس زيري بن مناد عدوها. فاحتفل بهما المنصور بن أبي عامر يوم دخولهما إلى قرطبة، وأمَّرهما على المغرب الأقصى، كما كان عشرة أميرا بالمغرب الأوسط من قبل بني أمية وكان لهما به شان واخبار طويلة.

ثم إن المنصور لما رأى من ظهور الأخوين ما رأى، وخصوصا جعفرا، وما كان له من النفوذ والكلمة المسموعة بين القبائل البربرية بالعدوة المغربية، خافه وحذره، وغار منه، بعد أن استعان به على اعدائه، فاستدعاه إلى قرطبة، واحتفل به احتفالا فاخرا في ليلة من الليالي بقصره، وبَيَّت له كمينا ترصَّد له عند خروجه، فقتله غيلة سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة (982/372)، واظهر الأسف عليه.

وفرَّ يحيى إلى مصر مُرَدِّدا دعوة الشيعة، وملتجئا إلى العزيز بن نزار، فقبله، واقام عنده، محترما سنين عديدة، ووجَّهه في حركة عسكرية إلى برقة، فلم يُقدَّر له النجاح فيها، فرجع إلى القاهرة. وبقي بها إلى أنْ مات أواخر المائة الرابعة للهجرة.

وقد تخلَّف خلف من هذه الأسرة الحمدونية بالمغرب، كان منهم بسلا سمَّى جديْه : الشيخ علي ابن حمدون، ذكره في «التشوُّفِ» في ترجمة الشيخ أبي علي الشريشي البكَّاي، وقال : انه نَزَلَ عنده لما ءاوى إلى سلا بعد مجيئه من مراكش، وذلك أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

وعلى كل حال، فان التَّنظير حاصل مُتمكِّن، والشبه تام بين الأسرتين : العشرية والحمدونية في مجيئهما معاً من المشرق، وإقامتهما دهراً طويلاً بالمغرب الأوسط، ودعايتهما للخلافة الأموية، وانحرافهما عن الشيعة، ووفادتهما على الخليفة هشام المؤيد، واسناد الامارة إليهما من قبله، وبناء الحمدونيين مدينة المسيلة وعمرانها بالمغرب الأوسط، والعشريين مدينة سلا وعمرانها بالمغرب الأقصى، واشتهارهما جميعا بالجود والسخاء وحَمْل الكَلِّ، واكساب المعدوم، وتخليد الشعراء ماثر أعيانهم وكرمهم في أشعارهم.

هذا، واخبار بني حمدون كثيرة متفرقة في كتب التاريخ والتراجم، وإنما ألمعنا إليها هنا إلماعاً لنقابل بينها وبين أسرة بني عشرة.

وكم من أسرة مشرقية أو مغربية هاجرت في ذلك العصر أو قبله أو بعده من المشرق إلى المغرب، أو من المغرب إلى المشرق فكان لها شأن.

قال أبو العباس المقَّري في «نفح الطيب»[101]، لما تكلَّم على الراحلين من الأندلس إلى المشرق، والراحلين من المشرق إلى الأندلس .

«إعْلَمْ – جعلني الله وإياك ممن له للمذهب الحق انتحال –، ان حصر أهل الارتحال، لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحَاطَةِ إلاَّ علاَّم الغيوب الشديد المحال...»

وقال أيضا :[102]

«إعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قومٌ كثيرون، لا تحصر الأعيان منهم فضلا عن غيرهم. ومنهم من اتَّخذها وطنا، وصيَّرها سكنا، إلى أن وفته مَنِيَّتُهُ، ومنهم من عاد إلى المشرق، بعد أن قُضيت بالأندلس أُمنيته...»

قلت : وقد كان لهؤلاء الراحلين أثر كبير في العلم والأدب والحضارة والسياسة ونشر الدعاية إلى المذاهب التي كانت رائجة في ذلك العهد.

ومنهم من حفظ التاريخ أسماءهم ودوَّنه المؤرخون، كبني عشرة وبني حمدون، ومنهم من لم يحفظه التاريخ ولم يدونه المؤرخون، فطوتهم الأيام طيّاً، وجعلتهم نِسْيا مَنْسياً، وما حدَّثت بهم إنْسِيا، فذهب أولئك القوم في الذاهبين الأولين، ولم يتركوا بعدهم أثراً للآخرين، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

---

101) ص 213 من ج 1، طبع السعادة بمصر.

102) ص 4 من ج 4، نفس الطبعة

المبحث السابع

الأمير عشَرة

ليس لدينا معلومات كثيرة عن ترجمة الأمير عشَرة، ولا نعرف حتى اسم والده المنتسب لِآلِ المدبِّر، مع ما في ذلك من الغموض والانقطاع في ارتباط عمود نسبه بهم.

وغاية ما أدركناه من اخباره قبل نزوله بأرض سلا، انه كان من دُعاة الأمويين بالمغرب الأوسط، وأميراً من أمرائهم به، من غير تعيين لمحل هذه الإمارة.

وقد جاء في النَّصِ المنقول عن الكاتب الأديب أبي بكر بْنِ اللَبَّانة الدَّاني في كتابه «سقيط الدر، ولقيط الزهر» أنَّ عشرة جَدَّ الأسرة العشرية السلاوية، كان أميراً لخلفاء بني أمية بالمغرب الأوسط.

ويُعَضِّدُهُ ما ذكره علي بن ظافر في كتابه «بدائع البِدَاية»[103] لما حكى مساجلة أدبية تُرْوى عن القاضي أبي الحسن علي بن القاسم بن عشرة، ستاتي في ترجمته آخر هذا البحث، من وصفه بِأنَّه أحد رؤساء المغرب الأوسط، فاتَّفق في ذلك مع أبي بكر بن اللبَّانة.

ولا يخفى أن ابن اللَّبَّانة، كان من شعراء الدولة العبَّادية بإشبيلية، وتوفي سنة سبع وخمسمائة (1113/507). وعلي بن ظافر، كان وزيراً للملك الأشرف بالقاهرة، وتوفي سنة ثلاث عشرة وستمائة (1216/613)، وبينهما ما يزيد على مائة عام. وعليه، فإن إمارة عشرة بالمغرب الأوسط، كانت معروفة منقولة عند كُتَّاب ومؤرخي القرنين : السادس والسابع الهجريين، سواء بالأندلس أو بالقاهرة.

---

103) ص 78 من ج 1، المطبوع على هامش كتاب «معاهد التنصيص».

وقد ذكر الضبِّي "في بغية الملتمس" عرضا[104] أن الأمير عشرة، وفد على هشام المؤيد مجاهدا في جُمْلة من أمراء المغرب، وكان حاجبه يقدمه، والدهر يخدمه.

والظاهر أن هذه الوفادة، كانت بعد سنة سبع وسبعين وثلاثمائة (887/377)، وهي السنة التي استولى فيها زيري بن عطية على فاس. ولا ندري هل كانت هذه الإمارة التي وُصف بها من غير تعيين محلها، في بيته قبله أو له وحده، ولا من الذي ولاَّه.

ولكننا إذا تتبعنا شريط الحوادث التاريخية، في هذه الفترة الزمانية بالمغرب الأوسط، نجده كان ميدانا تسابق فيه بنو أمية الأندلسيون، والفاطمية الشيعيون، وتجاذبوا حبل الرياسة والسيادة فيه حينا من الدهر، وكانت بينهم فتن وحروب سجلها المؤرخون، ووقائع تناقلها الأخباريون، وكان داعية بني أمية الأكبر، زيري بن عطية، ومن لَّف لَفَّهُ من أمراء الدولة الصنهاجية.

ولم يثبت تاريخياً أنَّ قَدَمَ الأمويين رَسخت في المغرب الأوسط باستمرار، إلا في عهده، من سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (991/381) إلى أن هلك سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة (1000/391)، مدة عشرة أعوام فقط.

ولعلَّ عشرة، لمَّا كان من دُعاتهم وأنصارهم، أمَّرُوهُ وقدَّموه، جزاءً له على ما قام به من الدَّعوة لهم، فتألَّق نجمه في سماء الرياسة والإمارة في ذلك العهد، وجدَّد للأسرة المدبِّرية المنتمي إليها ما كان لها من الذكر والشهرة والمجد.

ويؤخذ من هذا كله، أن بني عشرة، لم يكونوا مغاربة برابرة ولا أندلسيين مهاجرة، وإنما هم عراقيون مُدبِّريون على ما قيل، بزغ نجمهم بالعراق، وأشرقَ بالشام، وتألَّق بمصر، وبلغ نوره المغرب الأقصى، واستمر لامعاً في «سلاه» أثر مجدهم الخالد، وذكرهم الدائم المستمر، إلى عصرنا الحاضر.

فِـي «سـلاه» يُغْشِـي النَّاظِرِيـ ـنَ إِذَا هُـمُ لَمَحُـوا شُعَاعَـهْ

نزول الأمير عشرة بأرض سلا وابتداء تمصيرها

تقدم لنا أن مدينة سلا، كانت في أول تكوينها، كُتَلاً وعمائر متفرقة من مهاجري شالة بعد خرابها، وما انضاف إليهم من المرابطين برباطها للجهاد في الفئة الضالة البرغواطية.

---

104) ص 414 طبع مدريد سنة 1302/1884

ولكنَّها لم يتناسق عمرانها، ويتمَّ تمصيرها، حتى نزل بها الأمير عشرة جد الأسرة العشرية الشهيرة.

وفي كتاب «المدن والقبائل المغربية» :[105] نقلاً عن أبي عبد الله محمد بن علي الدكالي أنَّ أمير قرطبة، أذِنَ للرئيس عشرة أنْ ينزل بازاء شالة فنزل، ومعه ثلاثة من أولاده ونساؤه وخَدَمه وحَشَمه.

ثم بنى بأرض سلا قصره في المحل الذي يوجد فيه أقدم حيّ بها، وهو حَيُّ الطالعة، حيث يوجد الآن المسجد الأعظم والمدرسة المرينية الحسنية، وبنى أيضا هناك مسجدا تخرب ولم يبق إلاَّ أثره...

وقال في كتاب «الاستبصار»[106] بعد ذكر شالَّة : وقد كان اتخذ أرباب البلد العشريون وأولياؤهم، مدينة بالعدوة الشرقية، وهي المعروفة الآن بسلا، فيها ديارهم بحومة الجامع، ولم يبق منه سوى المنار، وأمَّا السَّقف كله فتهدم، واحتمى الغرباء في بنائه سنة أربع وسبعين وخمسمائة (574 / 1178).

وهذا النصُّ وإنْ كان صريحا في نسبة سلا إلى العشريين، فإنه لم يذكر جدهم الأمير عشرة ونزوله بها كما تقدَّم، ولا من أين جاء العشريون إليها، ولم يُفْصِح عن تاريخ نزولهم بها بالضَّبط، كما أنَّه لم يُعَبِّر بالتأسيس وإنما عبَّر «بالاتخاذ»، وهو لفظ يحتمل أنَّهم اتَّخذوها مدينة، يعني صيَّروها مدينة وعمَّروها ومصَّروها وسكنوها، لكونهم وجدوا مهاجري شالة سبقوهم إليها، كما يقال اتخذ فلان مدينة كذا دارا وقرارا، أي نزل بها وسكنها. وأمَّا الجامع فسياتي الكلام عليه مُفصَّلا في الفصول الخاصة به.

ويوخذ من هذا كله، أن تمصير سلا وتصييرها مدينة ينطبق عليها مدلول هذا الإسم، إنما تَمَّ بعد نزول العشريين بها، ومِنْ ذلك العهد عُرِفت في التاريخ، وقُرِنَ إسمها باسمهم حتى قيل إنَّها مدينة بني العشرة، واتَّصلت هذه النسبة لهم من بعدهم دهراً طويلا.

وقد فَصَّل في كتاب المدن والقبائل المغربية[107] كيفية تناسق العمران في المدينة، ولا ندري مستنده في ذلك فقال :

---

105) "Villes et Tribus du Maroc", Rabat et sa région, T 1, page 27.

106) ص 140، طبع الاسكندرية

107) ص 27 من ج 1 ناحية الرباط.

لمّا دارت دور العشريين حول الجامع، نشأ حيُّ الطالعة، ثمَّ تكاثر البنيان وأتصل وتدرَّج فتكوَّنت بُلَيْدَة صغيرة، هي حي البليدة بسلا الآن، وشرعوا حينئذ في إحاطتها بالسُّور تحصيناً لها.

قال وقد عُثِرَ على أثر هذا السُّور في زمننا هذا، بباب شَعْفَة، لما كانت البلدية تُجْري بعض الإصلاحات بتلك الناحية في المدينة. وتلاحق الناس بعد ذلك، وتسارعوا إلى البناء والتعمير من القبائل البربرية والأندلسيين المهاجرين.

ومن أقدم ما بُني في ذلك العصر بتلك الناحية، دور بني مسطاس، سفراء وتراجمة البَرَغواطيين.

ومنهم السفير الترجمان، عيسى بن عمر المسطاسي، وهو أول من نزل منهم بهذه المدينة السلاوية.

وبعدهم نزل بنو خيرون الأندلسيون، وإليهم ينسب درب الأخيار الآن. وقد هاجرت فرقة من هذه الأسرة الخيرونية إلى القيروان، واستقرت بها فكان لها ذكر وأثر في العلم والتجارة.

ثم تكَّون حي زَنَاتَة، الذي كانت به دور ومنازل لأُسَرِ ءال تميم ابن زيري اليفرني الزناتي، أمراء شالة وسلا وتادلا، وما وراءها من البلاد. وهكذا، تناسق العمران وتسلسل، ونشأت المدينة السلاوية الجديدة العشرية واتَّسع نطاقها.

وكانت تتكون في ذلك العهد من أربعة أحياء :

- حي الطالعة، الذي فيه المسجد الأعظم، ودور العشريين حوله.
- وحي البليدة، الذي فيه أتباعهم وحشمهم.
- وحي درب الأخيار، حيث منازل بني خيرون الأندلسيين.
- وحي زنانة، المعمور بمنازل ءال تميم بن زيري الزناتي.

وكان كل مَنْ وضع يده على قطعة أرض وأحياها، وتصرَّف فيها صارت ملكا له، لأنَّ من أحيا أرضا مواتا فهي له.

وسنرى كيف تواصل العُمْران فيها في الدول الآتية.

المبحث الثامن

قصر بني عشَرة بسلا

قصر بني عشرة بسلا، ردَّد صدى ذكره المؤرخون، وتغنَّى به الشعراء، وتبوَّأه السلاطين والأمراء، ونزل به الرؤساء والوزراء، وقصده العلماء والأدباء، المترددون على سلا من الأقطار المغربية، والعدوة الأندلسية، منذ تشييده في عهد العشريين، إلى أوائل دولة الموحدين، ثم اختفى ذكره بعد ذلك.

موقعه ومَثَالُهُ

علمنا مِمَّا سبق، ومِنْ نصِّ صاحب «الإستبصار» بالخصوص، أن بني عشرة لمَّا نزلوا بسلا، بنوا دورهم بحي الطالعة حول الجامع، ولاشك أنَّ القصر كان من جملة دورهم.

وقد استظهر أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي، كما رأيته في بعض مُقيَّداته، أنَّه كان مَبنياً في مَحلِّ المدرسة الحسنية المرينية الآن قال :

«الظاهر أن بِمحلِّ القصر بنيت المدرسة المرينية، للعثور على جدار قديم يُجاورها غرباً، كشف الحال عن عَضَّادة باب دار عتيقة جِداً يظهر أنها كانت قبل بناء المدرسة بكثير، وصورة الباب شاهقة في الجو، يَغْلُبُ على الظنِّ أنه من بناء القصر الفاضلة على المساحة التي بنيت بها المدرسة. وهذه البقعة التي بها هذا الأثر، من أملاك الأحباس المحبَّسة على الجامع الكبير، ولذلك ساغ أن تبنى فيها المدرسة وبقي بها الأثر إلى هذا الحين، ولولا الحبس لتداولتها الأيدي، وتغيرت الآثار التي استدللنا بها الآن، والعلم لله الملك الديان سبحانه.»

والذي يوخذ من أخبار بني عشرة، أنهم كان لهم قصران بسلا مركز عزهم، ومطلع شموسهم وأقمارهم.

الأول : بُني في عهد نزولهم، واستقرارهم بطالعتها.

والثاني بناه فخر الأسرة وعميدها أبو العباس أحمد بن القاسم بالطَّالعة أيضاً، كما يُعلم ذلك صراحة من أقوال المؤرخين الذين ترجموا له. وهل كان هذا القصر الثاني، تجديداً للقصر الأول، وبُني في محله، وعلى انقاضه، أو هو غيره ؟ لا ندري، لعدم وجود نص يُفْصح عن ذلك. وهذا القصر الثاني، هو الذي تغنى به الشعراء، وتبوَّأه الملوك والأمراء، وطاف بساحته ذَووا الحاجات، واستجار به المنكوبون عند حلول النكبات، واستحكام الأزمات.

قال أبو العباس المقري في «نفح الطيب»[108] :

لما بنى أبو العباس أحمد بن القاسم قصره بسلا وشيَّده، وصفته الشعراء وهنأته به، ودعت له.

وكان بالحضرة حينئذ الوزير أبو عامر بن الحمارة، ولم يكن أَعَدَّ شيئاً، ففكَّر قليلا ثم قال :

يَا أَوْحَدَ النَّاسِ قَدْ شَيَّدْتَ وَاحِدَةً	فَحَلَّ فِيهَا حُلُولَ الشَّمْسِ فِي الْحَمَلِ
فَمَا كَدَارِكَ فِي الدُّنْيَا لِذِي أَمَلٍ	وَلاَ كَدَارِكَ فِي الأُخْرَى لِذِي عَمَلِ

وفيه يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رَجَزِه : «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا» :

أَنْشَا أَبُو العَبَّاسِ ابْنُ عَشَرَةْ	قَصْراً بَدِيعًا بِسَلاَ وَعَمَرَهْ
وَقَصَدَتْهُ الشُّعَرَا بِالمَدْحِ	مُهَنِّئِينَ طَلَبًا لِلْمَنْحِ
وَعَادَ مَنْزِلاً لِعَبْدِ المُومِنِ	لِحُسْنِهِ وَلاِنْفِسَاحٍ بَيِّنِ
وَحَلَّ فِيهِ الْمَلِكُ الصَّنْهَاجِي	وَالِي بِجَايَةَ أَخَا ابْتِهَاجِ
إِثْرَ انْصِرَافِهِ عَنِ المُلْكِ الْجَلِيلْ	مُلْكِ بَنِي حَمَّادِ ذِي الْفَخْرِ الطَّوِيلْ
وَكَانَ فِي بِجَايَةٍ بَنَى الْعَجَبْ	قَصْراً بَدِيعًا بِسَرَاجِيبِ الذَّهَبْ
وَاعْتَمَّ بِالحَرِيرِ وَالاِبْرِيزِ	عَمَائِمًا تُنْسَبُ لِلتَّطْرِيزِ

108) ص 196 من ج 2، طبع بولاق

وقد ءال هذا القصر بعد رسوخ قدم الموحدين في المُلك إلى الدولة، فتداوله أمراؤها، ولا نعلم الكيفية التي ءال بها إليها، هل بالشراء، أو الانتزاع والاستيلاء ؟ ولعله الراجح، لأن بني عشرة جنحت شمسهم للغروب، بعد استيلاء عبد المومن على سلا، لمَا احْتَفَّ بهذا الإستيلاء من الحوادث الحربية التي شغلت عبد المومن وجيشه فترة من الزّمن، كثورة عمر الخياط بجزولة، وله نسب بسلا[109] وفتنة الثائر ابن هود السلاوي، التي كانت عاصفة ساحقة ماحقة هبت على سلا والسلاويين في ذلك العهد.[110]

لاسيما والدَّولة الجديدة إذ ذاك في طور نشوءها، وعنفوان قوتها وشبابها، فغضَّتْ من السلاويين، وأعظم أسرة بارزة فيهم نالها الغَضُّ، أسرة العشريين، كعبة القاصدين، ومحطُّ رحل الوافدين، تمتدُّ نحوها الأعناق، ويُشار إليها بالأصابع، وويلٌ لمن أشارت له، فنأوت إلى الظل ترى ولا ترى، وسترها حجاب الانكماش والعزلة عن الظهور، ووُلُوج ميادين السياسة والرياسة، وتنكَّرت لها الوجوه، وتغيَّرت المعالم، وذهب الناس الذين كانت تعرفهم.

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الذِينَ عَهِدْتَهُمْ   وَلاَ الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْرِفُ

فاختارت الاشتغال بالعلم، والانحياش إلى أهْلِ الخير والصَّلاح والدِّين، كما سنعلمه ونستقصيه ونقصه من أخبار بعض أفرادها.

ولم يبق لهذا القصر اليوم اسم ولا رسم، إلا الذكر في الأوراق. كما أننا لا نعلم سبب خرابه واندثاره، وعفاء رسمه، ولا متى كان ذلك، والله يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

نزول المهدي بن تومرت وعبد المومن بقصر بني عشرة بسلا

قال ابن البَيْذَق في كتابه "أخبار المهدي بن تومرت، وابتداء دولة الموحدين" :[111].

109) «أخبار المهدي» لابن البيدق، ص 106.

110) «ابن عذاري» ص 20 وما بعدها من ج 3، طبع تطوان، و«ابن خلدون» ص 310، طبع الجزائر و«الاستقصا» ص 11، طبع القاهرة، ج 2. والاستقصا، طبع وزارة الثقافة – 2001، ص 55.

111) ص 65.

"لما خرج المهدي من فاس، مرَّ على مكناسة، ونزل بمسجد أبي تميم عند الحسن بن عشرة...[112] ولمَّا رحل إلى سلا، سنة خمس عشرة وخمسمائة (515/ 1122-1121) نزل بقصر بني عشرة..."

قال ابن البيدق :[113]

"اعلم أنه لما دخل المعصوم سلا، نزل بها عند الفقيه أحمد بن عشرة. وكان ياتيه الشُّبْلِير، ومحمد بن الخير الوقاصي،[114] والسلطان بن قَيْلو[115] والقاضي حسُّون بن عشرة، فكانوا ياخذون عنه العلم، ويامرهم أن يامروا الناس بالمعروف، وينهوا عن المنكر. واقام بها أياماً عديدة، ثم أمرنا بالرحيل نحو مراكش، فخرجنا على بركة الله تعالى".

نزول عبد المومن لمَّا فتح سلا بقصر بني عشَرة

لما تغلَّب عبد المومن على سلا، بعد مواقعة قليلة، سنة أربعين وخمسمائة (540 / 1146-1145)، نزل بقصر بني عشرة الذي كان نزل فيه قبل ذلك مع إمامه المهدي، سنة خمس عشرة وخمسمائة (515 / 1122-1121).[116] ثم ثارت عليه وافتتحها مرة ثانية، وَثَلَمَ سورها لِئَلاَّ تستعصى عليه مرة أخرى[117].

وفي نزول عبد المومن بقصر بني عشرة أقول في قصيدة "سلا في التاريخ" :

«الْعَشْرِيُّونَ» بِهَا سَمَوْا : زَمَنًا كَمَا تَسْمُو الْبُدُورْ
حَلَّ «الْخَلِيفَةُ قَصْرَهُمْ» لَمَّا بِهَا كَانَ الْمُرُورْ

112) سياتي مزيد الكلام عليه في الفصل المعقود لترجمته مع أعيان بني عشرة.

113) ص 66.

114) يوجد اليوم حي بالرباط يسمى «وقَّاصة» مجاور لملاح اليهود فهل هو منسوب لهذا الرجل . ؟ وأمامه مسجد قديم يعرف بمسجد أم القاضي.

115) هؤلاء الأشخاص غير معروفين، ما عدا حسون الذي سياتي الكلام عليه.

116) «ابن البيدق»، ص 66.

117) «ابن خلدون» ص 308 المجلد 2 طبع الجزائر، و«الحلل الموشية» ص 102 طبع تونس، و«الاستقصا» ص 143 من ج 1 طبع القاهرة. والاستقصا، ص 51، طبع وزارة الثقافة، سنة 2001.

والظاهر أنّ عبد المومن، لمّا فتح سلا في التاريخ المتقدم، اختار النزول بقصر بني عشرة، لأنه أعظم بناء كان موجودا بها في ذلك الوقت، يستحقُّ أن ينزل به الخلفاء، ولأنه كان يعرفه قبل ذلك، ولم يكن في ذلك العهد بالقصبة عمران يستحقُّ أن ينزل به الملوك، إلاَّ حصن تاشفين، أو قصر بني تاركة، ولعلّه لم يكن مُستوفياً لوسائل الرّاحة وشروط الاستقرار والاطمئنان اللذين يتطلبهما مطلق الناس، فضلا عن ملك أو خليفة كعبد المومن في أهله وذويه وخدمه وحشمه.

ولم يشرع في بناء قصره بالقصبة الذي صار ينزل فيه بعد ذلك، إلا سنة خمس وأربعين وخمسمائة (545 / 1150)، يعني بعدما يزيد على أربعة أعوام من استيلائه على سلا، وقبل وفاته بثلاث عشرة سنة، حسبما سياتي تفصيله عند الكلام على عمران القصبة في عهد الموحدين.

استقبال عبد المومن وفود أهل الأندلس بقصر بني عشَرة بسلا

لقد تعدّدت وفادة أهل الأندلس على عبد المومن، وكان يستقبلهم حيثما وجده الحال أثناء حركاته وتنقلاته.

– فالمرة الأولى : كانت وفادتهم عليه بمراكش، سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة (542/ 1147)، برياسة القاضي أبي بكر بن العربي.[118] وبها كان استقبالهم.

– والمرة الثانية : كانت سنة خمس وأربعين وخمسمائة (1150/545)، وهي السنة التي شرع فيها في بناء قصره بالقصبة، وكانت وفادتهم عليه بسلا بإذن منه، في نحو خمسمائة فارس من الفُقهاء والخُطباء والقُضاة والأشياخ والقُوّاد. فتلقّاهم الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتي، والوزير الكاتب أبو جعفر بن عطية على نحو ميلين من المدينة، وأمر بإنزالهم، وأفاض عليهم سجال الإكرام وأنواع الضّيافات والانعام، وبقوا على ذلك ثلاثة أيام، ثم أذن لهم في الدخول ، فدخلوا عليه، أول يوم من المحرم فاتح سنة ست وأربعين وخمسمائة (محرم 546/ أبريل 1151) فسلّموا عليه، وأشار الوزير ابن عطية لأهل قرطبة بالتقدّم، فتقدّم قاضيهم أبو القاسم بن الحاج، فأراد أن يتكلم، فدهش، ثمّ وصف حال قرطبة فقال : يا أمير المومنين،

118) الزركشي، ص 6، و«الاستقصا» ص 147 من ج 1، طبع القاهرة. و«الاستقصا»، ص 64، طبع وزارة الثقافة، سنة 2006.

إنَّ الفنش، لعنه الله، قد أضعفها، فتلافاه أبو بكر ابن الجد بالخطبة البليغة، فجلَّى في ذلك المجلس، واستحسن عبد المومن خطبته، ووصل الجميع كُلاً على قدره، وقضى مطالبهم، وأوصاهم بما اقتضاه الحال، وأمرهم بالانصراف إلى بلادهم فانصرفوا مغتبطين.

وقال ابن خلدون :[119] استدعى عبد المومن أهل الأندلس، وهو بسلا، فوفدوا عليه وبايعوه جميعا...

وقد تضافر المؤرخون على أن عبد المومن كان ينزل بقصر بني عشرة بسلا قبل بناء قصره بالقصبة.

وعليه، فقد كان استقباله لهذا الوفد بالقصر المذكور، وقد ثبت انه كان بأقدم حي بالمدينة، وهو حي الطالعة حول الجامع كما تقدم.

ولما تكلم مــؤرخ رباط الفتح جاك كاي (Jacques Caillé) على هذه الوِفَادَة قال :[120]

لا يمكن الجزم بأن عبد المومن استقبل هذا الوفد بحصنه أو قصره بالقصبة، لأنه كان لازال لم يتم بناؤه.

وعليه، فإن كان الاستقبال بالضفة اليمنى للنَّهر، فقد يكون من قبيل المحقَّق انه أمره بزيارة منشئاته بالضفة اليسرى، ليطلع على ما أسسه فيها من المباني الضخمة لأهميتها عنده، فزارها، ورأى فخامة الدولة الناشئة، وعظمة شانها، المتجلية في مبانيها الخالدة.

– والمرة الثالثة : كانت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (553/ 1158) كما عند الزِّرْكشي، قال :[121]

"لما نهض عبد المومن للجهاد، واحتلَّ بسلا، قَدِمَ عليه هنالك وفد أهل الأندلس، سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (553/ 1158) وفيهم حفصة الأديبة المعروفة بابنة الحاج الركوني[122] وكان يسمع عنها وعمَّا توصف به من الجمال الباهر، والأدب الظاهر، فأمر بإحضارها فحضرت، فقال لها: أنت حفصة الشاعرة، فقالت : نعم، خادمتك، وصلت لتتبرَّك بغُرَّتك السعيدة، ودنت فقبَّلت يده. ثم انشدته تستدعي منه ظهيرا لموضع :

119) ص 235 من ج 6، طبع بولاق.

120) ص 62 من ج 1.

121) ص 7.

122) ترجمة حفصة الركُونية مبسوطة في «نفح الطيب» ص 1078 من ج 2، طبع بولاق و«الإحاطة» ص 491 من ج 1.

يَا سَيِّدَ النَّاسِ يَامَنْ يُؤَمِّلُ النَّاسُ رِفْدَهُ
أُمْنُنْ عَلَيَّ بِصَكٍّ يَكُونُ لِلدَّهْرِ عُدَّهْ
تَخُطُّ يُمْنَاكَ فِيهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهْ(123)

فأعجب عبد المومن بها، ووقَّع لها بالقرية المعروفة بركونة وإليها تنسب، فعاشت فيها عيشة الملوك".

والظاهر أن عبد المومن استقبل هذا الوفد بقصره الجديد الذي أسَّسه بالقصبة، لأنه كان موجودا في هذا التاريخ، كما سياتي في أخبار القصبة.

نزول آخر ملوك بني حماد بقصر بني عشَرة بسلا

لما استغنى عبد المومن عن النُّزول بقصر بني عشرة بسلا، لبناء قصره بالقصبة، اتَّخذه كدار الأضياف في وقتنا هذا، وصار ينزل به الملوك والأمراء الذين يفدون عليه، أو يستنزلهم عن عروشهم، لأنه كان أحسن وأتم بناء في العدوتين في ذلك العصر. وممَّن نزل به، آخر ملوك، ءال حمَّاد بالقلعة، قال ابن خلدون(124) في أخبار دولة ءال حماد الصنهاجيين أصحاب القلعة :

---

123) إشارة بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، فإنها كانت، أن يكتب السلطان بخط يده في رأس المنشور «الحمد لله وحدهُ وإلى ذلك يشير الشاعر ابن مرج الكحل في القطعة التي مدح بها عبد المومن بعد فتحه المهدية

ولما توالى الفتح من كل وجهة ولم تبلغ الأوهام في الوصف حدَّه
تركنا أمير المومنين لشكره بما أودع السِّرُّ الإلهيُّ عِنده
فلا نعمة إلا تؤدي حقوقها علامته بـ «الحمد لله وحده.»

124) ص 231 من المجلد 1، طبع الجزائر.

لما بايع يحيى بن عبد العزيز، آخر ملوكهم، لعبد المومن سنة سبع وأربعين وخمسمائة (1152/547)، ونزل له عن قسنطينة، اشترط لنفسه، فوفّى له عبد المومن، ونقله إلى مراكش، فسكنها، ثم انتقل إلى سلا، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة (1162/558)، فسكن قصر بني عشرة، إلى أن هلك من سنته، وأُقْبِر بمقابر سلا الجوْفية.[125]

125) رحلة التجاني ص 344، طبع تونس.

المبحث التاسع

بعض أعيان بني عشَرة السلاويين

تمهيد

نبغ من هذه الأسرة المجيدة العشرية السَّلاوية – التي كانت تعرف ببني القاسم أيضا – أفراد كانوا في سلا كما قال الفتح : «بدور سمائها وصدور أسمائها». قصدهم العلماء، وطاف بساحتهم الأدباء والشعراء، ولاَذَ بِهِمْ في قصرهم الشامخ، وتفيأ ظل مجدهم الباذخ، كل من عثر به الزمان، وكبا به فرسه في حلبة الرهان، فكانوا يجدون لديهم ملجأ يلجئون إليه، وحرما يستجيرون به، فتُقال عثراتهم، وتُمحى هفواتهم، وتُقبل أعذارهم، وتُقضى حاجاتهم، لأن العشريِّين كانت لا تُردُّ عند المرابطين شفعاتهم، فيرجعون إلى مراكز عزِّهم مجبورين، وينقلبون إلى أهلهم مسرورين، آمنين مطمئنِّين، حامدين مادحين، منوِّهين شاكرين.

وقد تناسلوا بسلا وامتدَّت بها فروعهم، وبرز منهم أفراد جلّوا في ميادين الجود والعلم والأدب والرياسة.

ثم خلفهم خلف نهجوا نهج أسلافهم في الاتِّصاف بالعلم والتقوى، والاستمساك بحبلها الأقوى، والتخلق بأخلاق الدِّين المتين، والانحياش إلى أهل الخير والفضل من الأولياء والصالحين، لم يصلنا من أخبارهم إلا النزر اليسير، لطول الزمن، وعدم الاعتناء بالتقييد في ذلك العهد.

وقد وَرَدَ ذكر أفراد منهم في «كتاب التشوف إلى رجال التصوف»، للشيخ أبي يعقوب يوسف التادلي، المعروف بالزيَّات، عَرضا ؛ روى عنهم مباشرة أو بواسطة، حكايات وأخباراً في تراجم بعض صُلحاء سلا أو الوافدين عليها من رجال التصوف.

وعلى كل حال، فإننا، وإنْ كُنَّا لم نعرف من أخبارهم، إلا مارواه عنهم، فإنَّهم كانوا من أهل المروءة والزهد والورع، واحترام الناس لهم، حسبما يؤخذ من روايته عنهم، وأنَّهم كانوا موجودين أحياء في القرنين السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد)، لأن ابن الزيات، – وان كان لم يعقد لهم تراجم خاصة، لأنه التزم ان لا يترجم للأحياء –، فقد ذكر[126] أنه شرع في تأليفه سنة سبع عشرة وستمائة (617 / 1220). وعليه، فقد كانوا أحياء موجودين في ذلك العصر.

وهذه سلسة تقريبية لنسب من وصلتنا نُتف من أخبارهم أو أسمائهم فقط، مفرقة في بعض كتب التاريخ والتراجم والأدب المكتوبة في زمنهم أو بعده، رسمناها في الصحيفة المضافة إلى هذه، والله أعلم.

126) ص 13، طبع الرباط، سنة 1958/1378

الأمير عشرة

عيسى

موسى

محمد

القاسم

علي

(توفي سنة 1108/502)

أحمد (توفي قبل استيلاء عبد المومن على سلا)

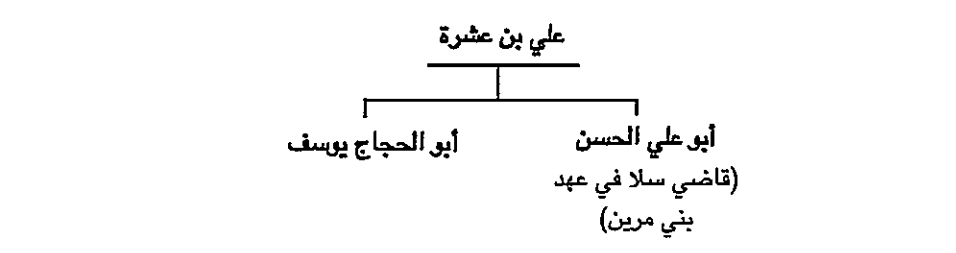
الحسن أو حسون كان حيا عام (1121/515)

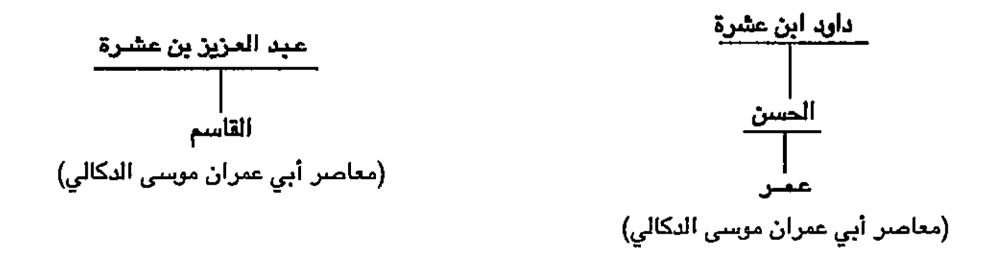
يحيى

أبو يعقوب يوسف (توفي قبل استيلاء عبد المومن على سلا)

عبد الرحمان (من أهل القرن السادس)

عبد الله (من أهل القرن السادس)





هذا، وقد شارك بعض المشاهير والأعيان بني عشرة في هذا الإسم، لأن التَّسْمية بالأعداد كانت شائعة فيهم، حسبما تقدمت الإشارة إليه في فصل «تسميتهم ببني عشرة» وليس لهم اتصال بهم. منهم:

– علي بن عشرة الاشبوني : ذكره ابن عذاري[127] في حوادث سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة (337/ 948) فقال :

«وفيها صُلب بقرطبة على بن عشرة، من أهل شبونة، بعد أن قطعت يداه ورجلاه، وكان من المفسدين في الأرض». ومنهم :

– أبو عمر أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عشرة، التُّجيبى : من أهل بلنسية، روي عن أبي الربيع بن سالم، ذكره ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة». و منهم :

– أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أبي عشرة الفاسي :

ذكره ابن عبد الملك أيضا في «الذيل والتكملة»، ونصَّ على أنه تولَّى القضاء ببلنسية سنة عشر وستمائة (610 / 1213) وبإشبيلية قبل الفتنة، ثم قلَّده العادل الموحدي قضاء الحضرة المراكشية، سنة أحدى وعشرين وستمائة (621/ 1224). وورد ذكره في تاريخ مراكش لابن إبراهيم[128] .

فهؤلاء ليسوا من بني عشرة السلاويين، وإنما جمعتهم التَّسْمِيَة فقط، وليس لهم ارتباط بهم قط.

---

127) ص 322، طبع بيروت

128) ص 102، من ج 3.

القاضي أبو الحسن علي بن
القاسم ابن عشَرة السلاوي[129]

هو علي بن القاسم بن محمد بن موسى بن عيسى بن عشرة السلاوي، يكنى أبا الحسن. زينة هذا البيت العشري ونجمه اللامع، في سماء الجود والكرم بلا منازع، وكعبة القاصدين واللاّجئين لاستمناح فضله وجوده وجاهه ووجاهته عند السلاطين بلا مدافع.

تَسقط الطَّيْرُ حَيْثُ يُلتقط الحَبُّ وتُغشى منازل الكُرماء

كان من أهل العلم والنباهة والسؤدد، رئيسا جوادا ممدّحا ؛ تولى قضاء سلا، وأورث بنيه من بعده سُؤدداً ضخماً، وشرفاً جمّاً.

وحلاّه الضَّبِّي في «بغية الملتمس» بأنه كان قاضياً فقيهاً عالماً أديباً بليغاً جواداً، وأنَّ جدَّه عشرة، ورد على هشام المؤيد مجاهداً في جملة من أمراء المغرب.

قال ابن الأبَّار في تكميل الصلة : كان دخوله الأندلس غازيا سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة (438/ 1046)، وامتدحه جماعة من أدبائها. وفيها رحل إلى المشرق، لأداء فريضة الحج، وامتدح بالمهدية ومصر وغيرهما، وقفل بعد ذلك.

وترجمه ابن عبد الملك المرَّاكشي في «الذيل والتكملة»، ووصفه بأنه كان حافظاً سرِي أهل بلده، وجيها فيهم، نَبِيهَ القدر، رئيسا جواداً مُمَدَّحاً موثراً، واستقضى ببلده، وأوْرَث عقبه سُؤْدداً وشرفاً...

شيء من شعره في الزهد

قال رحمه الله تعالى، كما أثبته له الضَّبي في «البغية»[130]

---

129) مراجع هذه الترجمة . «بغية الملتمس»، ص 414 ؛ «تكميل الصلة» لابن الأبّار، ص 231 ؛ «أعتاب الكتاب» له، ص 224 ، ابن البيدق، ص 106 من الترجمة الفرنسية ؛ «الروض المعطار»، ص 197 ؛ «بدائع الفوائد»، ص 78 من ج 1، على هامش شرح «شواهد التلخيص» ، و«النفح» ص 146 من ج 5 ؛ و«الذيل والتكملة»، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ؛ و«الذخيرة» لابن بسام، ق 2، مخطوط الخزانة العامة بالرباط أيضا.

130) ص 414، طبع مدريد.

أَلاَ رَحِمَ اللَّهُ عَـبْـداً أَحَـسْ ... وأَحْـيـا الفـؤادَ بِدَمْعٍ هَمُـولْ
تَضَـاءَلَ في نَفْـسِـهِ فَـاسْـتَـرا ... حَ وأَلْقى عَلَيْـهِ رِداءَ الخُـمُـولْ
وأَطْـلَـعَ مِن شَـمْسِ أَفْكَارِهِ ... ايابَ السَّـلامَـةِ قَـبْلَ الأُفُـولْ
فَـقُلْ لِلَّذي عَـابَ أَفـعَـالَـهُ ... سَـيَـدْرِي الحَـقِـيقَـةَ عَـمَّـا قَلِيلْ

وله أيضا :

تَغَـيَّـرَ حـالـي وحـالـتْ صِـفـاتـي ... وذلـك أَجْـمَـعُ مِـنْ سَـيِّـئـاتـي
ومـا كُنْتُ أَخـشـاهُ بَعْـدَ المَـمَـا ... تِ فَـهـا أَنا أُبْصِـرُهُ فِي حـيـاتي

وقال أيضا رحمه الله ·

إلى كَمْ ذَا التَّـمـادي في المَـعـاصي ... أَمَـا تخشى هَبلْتَ من القِـصَـاصِ
ذُنـوبُـك كُـلَّ يـومٍ فـي ازديـادٍ ... تُسَـرُّ بهـا وعُـمْـرُكَ فِي انْتِـقَـاصِ
تُمَنِّي النفـسَ يومـاً بعـدَ يومٍ ... ومـا بَعْـدَ المَنِيَّـةِ مِنْ مَنَاصِ
أَتَعْـصِـي اللَّـهَ خَـالِقَ كُلِّ شيءٍ ... وأَنْتَ لِشَـرِّ نفسِكَ غَـيرُ عاصِ
تُبـاكِـرُ سَـوْءَةً وتَظَلُّ تَبْـغِي ... رِضى ربٍّ وتَطْمَـعُ في الخَـلاصِ
سـتَـعلمُ مـا أَقـولُ وسَـوْفَ تُجْـزَى ... بِفِـعْلِكَ يوم يُوخَـذُ بِالنَّـواصِ

وقال أيضا ولعله في كتاب كتبه ونسخه:

كَـتَـبْـتُـكَ يا كـتـابُ وعِلْـمُ قلبي ... يَـدُلُّ عَلَـى بَقَـائِكَ وانْقِـلاَبِي
إلـى ربٍّ رَحِـيـمٍ مـن يَـرِدْهُ ... يَفُـزْ بالعَـفْـوِ في يَوْمِ الحِـسَـابِ

وقال أيضا في التحذير من المزاح المخل بأدب الوداد :

إنَّ الـوِداد إذا تَحـاكَـمَ عَـقْـدُهُ ... نَزَحَتْ دواعـي المَـزْحِ والإدْلالِ
ولَرُبَّمـا كَـان المِـزاحُ ذَريعَـةً ... لِتَبـاعُـدٍ وتَقـاطُـعٍ وتَقـالِـي

شعراء الأندلس وأسرة بني عشَرة

لما ظهر القاضي أبو الحسن علي بن عشرة بسلا بمظهر العلم والنَّباهة والنَّزاهة والسُّؤدد والفضل، والرياسة الدينية، والكلمة المسموعة النافذة عند أمير المسلمين، وأمراء الدولة اللمتُونية، والجُود الفيَّاض، والعطاء الجَزْل، طار صيته في الآفاق، وتجاوز بحر الزقاق، عابراً من الاقطار المغربية، إلى الأصقاع الأندلسية، فتسامع به فحول شعراء الأندلس في عصره، الذين كانوا يطوفون بملوك الطوائف، يستمطرون سحاب جودهم الواكب، إلى ان انقشع، بعد انقضاء مُلْكهم، والقضاء على ملوكهم، فخاطبه بعضهم من بلاده، وانسال إليه آخرون زرافات ووحدانا، لائذين بقصره العامر، مشيدين بمَا لَهُ من المزايا والمفاخر، مُنْدمجين في جملة إخوانه الملازمين لخِوانه، فغمرهم بجوده وإحسانه، وصلاَته المتَّصلة بمواصلة البر بكل واحد منهم والرفع من شأنه، فانحلَّت عقد ألسِنتهم، وتفَجَّرت ينابيع أفكارهم بحمده وشكره، والتنويه بمكانته وقدره، بما خلَّدوه من القصائد الغرَّاء في مدحه ومدح كافَّة عشيرته.

ولا غرابة في ذلك، فان النهَا تفتح اللهَا، والوجود ينفعل بالجود. فكان وقوفهم من الأسرة العشرية وقوف زهير من هرم ابن سنان، وأبي الطيب من بني حمدان، فسجَّلوا في أشعارهم أفراح الأسرة وأتراحها، وأيَّامها الغرَّاء وأمجادها، وفضلها وكرمها، وانهم كانوا يحملون الكل، ويكسبون المعدوم، وياخذون بيد المظلوم.

ولقد ذهب ما أخذوه منهم من مال ونشب، وأصبح الجميع في خبر كان، وبقي ما قلَّدوه جيدهم من الشعر الحُرِّ، والقصائد العالية الغالية مخلِّدة ذكرهم على مَمَرِّ الأعصار والأزمان.

وسنثبت في ترجمة أبي الحسن هذا وتراجم بعض أفراد عشيرته، ما تيسَّر لنا الوقوف عليه من تلك الأشعار الملتقَطة من الدفاتر والدواوين الأدبية، لِمَا لها من القيمة التاريخية والفنية، والدِّلالة على عراقة مجد هذه الأسرة العشرية السلاوية.

شهامته في تحمل ما انكسر من مال الجباية عن أبي الوكيل

ومن شهامته وعلُوِّ همَّته، ما قَصَّهُ ابن الأبَّار في «إعتاب الكُتَّاب»، وابن عبد المنعم الحميري في «الروض المِعْطار»، وابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتَّكْمِلة» قالوا :

كان أبو عيسى ابن الوكيل الكاتب، مستعملا في غرناطة في الدولة اللَّمْتُونِيَّة، فحكى أنه انكسر عليه مال جليل، يبلغ عشرة ءالاف دينار، فقُبِض عليه وأُشخص منكوباً إلى مراكش.

فلمَّا بلغ الموكَّلون به مدينة سلا، – وبها يومئذ بنو القاسم، المعروفون ببني عشرة، رَبابِ السَّماح، وأرْبابِ الأمداح – زاد ابن الأبَّار : ويذكر أن جدهم الأكبر، أحمد بن محمد ابن المدبر قال قصيدته الشهيرة، يمدح بها القاضي أبا الحسن، ويستجير به، وسأل إيصالها إليه، فبادر عند الوقوف عليها، إلى مخاطبة أمير المسلمين، بتضمُّن المال وتَحَمُّله، وسؤال الصفح عنه، والإبقاء عليه، بإعادته إلى عمله.

فصدر جوابه بالإسعاف والإسعاد. وعاد ابن الوكيل إلى غرناطة انبه مَعاد، وأوَّلُ القصيدة :

سَلِ البرقَ اذ يلتاح من جانب الْبَلْقَا   أَقُرْطَيْ سُلَيْمى أَمْ فؤادي حكى خَفْقَا
وَلِمْ أَسْبَلَتْ تلك الغمامةُ دَمعَها   أَرِيعَتْ لِوَشْكِ الْبَيْنِ أَمْ ذَاقَتِ العِشْقَا ؟

إلى أن قال :

غَرِيبٌ بِأَرْضِ الغَرْبِ فُرِّقَ قَلْبُهُ   فَثَاوَتْ سَلاَ فِرْقًا وَ يَا بُورَةٌ فِرْقَا
إذَا مَا بَكَى أوْ نَاحَ لَمْ يُلْفِ مُسْعِداً   عَلَى شَجْوِهِ إلاَّ الغَمَائِمَ وَالوُرْقَا

ومنها في المدح :

حَيَاءٌ يَغُضُّ الطرفَ إلاَّ عَنِ العُلا   وعِرْضٌ كَمَاءِ المُزْنِ فِي الحُزْنِ بَلْ أنْقى
وفَضْلٌ نُمَيرٌ قَدْ خَضَلَ الرُّبى   وَعَدْلٌ مُنِيرُ النَّجْمِ قَدْ نوَّر الأفْقَا
بَلَغْنَا بِنُعْمَاكَ الأمانِيَّ كلَّها   فَمَا بَقِيَتْ أُمْنِيَةٌ غَيْرَ أَنْ تَبقى

وقد غلط من نسب هذه القطعة للشيخ أبي محمد عبد الله اليابوري، دفين رباط الفتح، ولعله كان يتمثل بها فقط.

سعيُه في فداء الشاعر ابن سوار من الأسر وامداحُه فيه

قال ابن بَسَّام في «الذَّخيرة»[131]

أبو بكر محمد بن سِوَار الاشبوني، شاعر كبير، وأديب بارع، مدح ملوك الطوائف، ولمَّا أفَلَ نجمهم، حالت به الحال، وتقسَّمه الإدبار والإقبال، ثم أسرَهُ العدو عَقِبَ مِحنة، وبين اطباق فتنة، وقيدَ بقورية «Coria»[132] من أعمال الطاغية فرديناند.

وقد بقي في أسره سنة كاملة، فاستغاث بكريم الاسرة العشرية السلاوية، القاضي الكريم، أبي الحسن علي بن عشرة، وخاطبه بقصيدته الرائية، التي وصف فيها كيفية أسْره وما جرى عليه من الأهوال والخطوب وصْفاً كاشفاً، فقال :

وَلَيْلٍ كَهَمِّ العاشقين قَضَيْتُه ... رَكِبْتُ دياجيه ومَرْكَبُهَا وَعْرُ
سَرَيْتُ وأصحابي يُميلهُمُ الكَرى ... فَهُمْ منْه في سُكْرٍ وما بهمُ سُكْرُ
رَمَيْتُ بِجِسْمي قَلْبَهُ فَنَفَذْتُه ... كَما نفذَ الإصْباحُ إذْ فُتِق الفَجْرُ
ولمَّا بَدَا وجْهُ الصَّباحِ تَطلَّعَتْ ... خُيُولٌ من الوادي مُحَجَّلَةٌ غُرُّ
فَقُلْتُ لَهُمْ خَيْلٌ فَشَمَّروا نَحْوَها ... وكَرُّوا إلَيْهَا منْ هُنا يَحْسُنُ الكَرُّ
وَكَانَتْ حُمَيَّا النَّوْم قَدْ صَرَعَتْهُمُ ... فَقُلُّوا وولَّوْا مُدْبِرِينَ ومَا فَرُّوا
وأخْرَجْتُ سَهْما واحداً منْ كنانتي ... منَ الحَرْبِ لايَخْشى عَلَى مثْلِه الكَسْرُ
وكُنْتُ عَهِدتُ الْحَرْبَ مَكْراً وخُدْعَةً ... ولَكِن مَعَ المَقْدورِ لا يَنْفَعُ المَكْرُ
فَطاعَنْتُهُمْ حَتَّى تَحَطَّمَتِ القَنَى ... وَضَارَبْتُهُمْ حَتَّى تكَسَّرَتِ السُّمْرُ
أُضَرِّجُ أثْوابي دَمَاءَ وُجُوهِهِمْ ... كَأنَّ الذي بَيْنِي وَبَيْنَهُمُ عِطْرُ
وأحْدقَ بي وَالْمَوْتُ يَكْشِرُ نابَهُ ... ومَنْظَرُهُ جَهْمٌ وناظِرُهُ شَزْرُ
فَأعْطَيْتُهَا وَهْيَ الدَّنِيَّةُ صاغراً ... وَقَدْ كَانَ لِي فِي الْمَوْتِ لَوْ يدنّي عُذْرُ
فَطارُوا وَصَارُوا بي إلى مُسْتَقَرِّهِمْ ... يُصاحِبُنِي ذُلٌّ وَيَصْحَبُهُمْ فَخْرُ

---

131) ق . 2 ورقة 148 وما بعدها، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

132) قال في «الرَّوْضِ المعطار» ص 164 قورية قريبة من ماردة وبينها وبين قنطرة السيف مرحلتان، ولها سور منيع. وهي أولوية البناء، واسعة الفناء، من أحصن المعاقل، وأحسن المنازل، ولها بوادٍ شريفة خصيبة، وضياع طيبة، وأصناف من الفواكه كثيرة، وأكثرها العنب والتين

فَقَالَ الْعَذَارَى حَرِّقُوهُ مُقَارِضاً ... فَمِنْ قَتْلِهِ الفِتْيَانَ عُطِّلَت البِكْرُ
فَجَاءوا بِأَنْواعِ الكُبُولِ وَنَظَّمُوا ... سَلاَسِلَ في جِيدي كَمَا يُنْظَمُ الدُّرُّ
وَسَاقُوا كِلاباً كَالْفُحُولَةِ أَجْسُماً ... لَهَا أَعْيُنُ خُضْرٌ مَلاحِظُهَا شَزْرُ

ومنها :

فَسُبْحَانَ رَبِّي مَا أَجَلَّ جَلالُهُ ... تَخَلَّصَني مِنْهَا لَهُ الحَمْدُ والشُكْرُ
فَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرضُ حَتَّى كَأَنَّهَا ... بِمَا رَحُبَتْ مَا كَان في طُولِها شِبْرُ
فناديتُ في حَوْلٍ من الدَّهر كَامِلٍ ... أَلاَ رَجُلٌ حُرٌ أَلاَ رجُلٌ حُرُّ
وإِنَّ وراء البَحْرِ أَرْوَعَ مَاجِداً ... بِغُرَّته الغَرَّاءَ يُسْتَنْزَلُ القَطْرُ
أَلاَ خَبِّرَاني ابْنَيْ أَبي هَلْ أَتَاكُمَا ... وَشيكًا عَنِ القاضي أَبي حَسَنٍ ذِكْرُ
سَلاَ عن سَلاَ هَلْ مِن عَلِيٍّ حقيقة ... بِأَنِّيَ في أَحْشَاءِ قُورِيَةٍ سِرُّ
أَلا إِنَّمَا الدُّنْيَا عَلِيٌّ وقُرْبُهُ ... وإِلاَّ فإِنَّ الأرضَ عَامِرَها قَفْرُ
بِعَدْلِ عَلِيٍّ تَعْمُرُ الأَرْضُ كلُّهَا ... وتَتَّسِعِ الدُّنْيا وَلَوْ أَنَّهَا قَبْرُ
حَنيني إِلَيْهِ مُوثَقًا ومُسَرَّحًا ... كَمَا حَنَّ للبَرِّ الذي يَغْرَقُ البَحْرُ

ولما وقف القاضي أبو الحسن بن عشرة على هذه القصيدة، بادر إلى السعي في فدائه وإزالة سلاسل الأسْر على رقبته.

قال ابن بسَّام :[133] فخرج من وثاقه، خروج البدر من محاقه، وتردَّد في البلاد، يحمله قرب على بعد، ويكله سُعَيْد إلى سعد، حتى ضاقت عليه الأرض بما توالى عليه من الخطوب، وملّه السرى واللُّغوب، فجذب أبو الحسن بضبعه، واستدناه إليه، فأعاد هلاله بدرا، وصير خَلَّه خمرا... فالتحق به بسلا، وصار من ذويه وناسه، وخاصة جُلاَّسه.

ولما اطمأنَّ باله، وحسن حاله، خاطبه بقوله :[134]

---

133) «الذخيرة» ق 2، ورقة 148 مخطوط الخزانة العامة بالرباط
134) «المُغْرب في حلى المَغْرب»، ص 412 من ج 1.

رأيتكَ أنْدى النَّاسِ كـفًّـا وكُلُّ مـا ... تَجـودُ به فـاللّـه يُنْمـيـه للأُخْـرى
وَلْولاكَ مـافكَّ السَّـلاسلَ ضـاغطٌ ... ومـا فـارقتْ عَـيْنَايَ سلْسلَةَ الأسْـرَى
وَصَيَّـرتَ عَـيْـشي في جَنابكَ بالذي ... مَنَنْتَ به حُلْوًا وَكَمْ ذُقْـتُـهُ مُـرًّا
عَلَـى ذَاكَ لا أنْفَكُّ أُخْلِصُ دائِمًـا ... إلى اللّهِ أَنْ يُنْمِي لَكَ الجاهَ والعُمْرا

خروجه إلى نزهة مع ولي نعمته أبي الحسن ابن عشَرة

ومن لطائفه الأدبية، ما حكاه الوزير أبو الحسن علي بن ظافر في كتابه «بدائع البداية»، وأبو العبَّاس المقَّري في «نفح الطيب» قال :[135]

يُروى أنَّ القاضي أبا الحسن علي بن القاسم بن محمد بن عشرة، أحد رؤساء المغرب الأوسط، تنزَّه مع جماعة من أصحابه فيهم : محمد بن عيسى بن سوار الاشبوني، ورجل يُسمَّى بأبي موسى، خفيف الروح، ثقيل الجسم، يعبث بالحاضرين بأبيات من الشِّعر يصنعها فيهم، فصنع القاضي أبو الحسن معابثاً له، واستجاز ابن سوار فقال :

وشـاعـرٍ أثقَلُ من ظلِّه ... تاتي مـعـانيـه على حُكْمِـهِ
يَهْـجُـو ولا يُهْـجى فَـهَلْ عندَكُمْ ... ظلامـة تَـعْـدى على ظُلْمِـهِ
لسَـانُه فـي هَجْـوِهِ حَيَّـةٌ ... مَنِيَّـةُ الحـيَّـةِ في سَـمِّـهِ
أمَّـا أبو مـوسى فـفي كَـفِّـهِ ... عـصـا ابْنِهِ والسِّـحْـرُ في نَظْمِـهِ
يُصِـيبُ سِـرَّ المرء في رَمْـيِـهِ ... كـأنَّمـا العَـالِـمُ في عِلْمِـهِ

وهذه القطعة تدلُّ على أريحيته، ورقة طبعه، وانشراحه في مجالسه مع خاصته وجُلاَّسه.

---

135) «البداية» ص 78 من ج 1، على هامش «معاهد التنصيص» و«النفح» ص 146 من ج 5.

وفادة أبي الحسن ابن عشَرة على أمير المسلمين وتهنئة ابن سوار له بالأوبة

يظهر أنَّ القاضي أبا الحسن ابن عشرة، كان له أنْداد وحَسَدة، كغيره من ذوي الجاه والنفوذ، والكلمة المسموعة في الدولة في كل زمان ومكان، فكانوا يظهرون له وُدّاً، ويكيدون سِرًا له كَيْدا، ويكفرون بفضله ليكونوا عليه ضِدًا، فلم يعجل عليهم وأعَدَّ لهم عدًا، وَوَفَدَ على أمير المسلمين ليحبط أعمالهم، ويخيب آمالهم، ويبطل سعايتهم، فاستقبله استقبال أبٍ حنون، مظهرا له البشر والرعاية به، لاعتقاده أنه ناصح للإسلام مستمسك بعهده الوثيق، حسبما يوخذ ذلك كله من منطوق القصيدة التي هنأه فيها بِالأوْبَة، مرفوع الرأس، متوجا بتاج الكرامة، منتصرا على أعدائه، فغضَّ الطرف عنهم، ولم يواخذهم كما هي شيمة الكرام ذوي النفوس الكريمة أمثاله.

قال ابن سوار(136) :

مَضَيْتَ بِوَجْهِ السَّعْدِ وَهْوَ طليقُ ... وأُبْتَ بِثَوْبِ النُّجْحِ وَهْوَ يَروقُ
لَقِيتَ أمِيرَ الْمُسْلِمِينَ مُقَرَّباً ... كَمَا يَتَلاَقَى شَائِقٌ ومَشُوقُ
رءاك ولِلإسلام نُصْحُكَ كُلُّهُ ... وعَهْدك في ذات الإلاه وَثِيقُ
تَلَقَّاكَ بالبِشْرِ الذي أنتَ أهْلُهُ ... فقالوا أبٌ حانٍ عَلَيْهِ شَفيقُ

ومنها :

ولمَّا طغى قَوْمٌ وفَرَّتْ حُلومُهُمْ ... فَعَاجَ فريقٌ واسْتَقَامَ فَريقُ
وضلَّ أُناسٌ بالجَهَالَة مِثْلَ ما ... أضلَّ سُواعٌ مَعْشَراً ويَعُوقُ
وجَاؤكَ بالمَكْر الكَريهِ وإنَّما ... بِصاحِبِه المَكْرُ الكَريهُ يَحيقُ
أراهُم مكانَ الفَضْلِ منْكَ فَروَّعُوا ... كَمَا انْتَشَقَتْ ريحَ الغَضَنْفَرِ نوقُ
وفَرُّوا ولَوْلاَ حُسْنُ رأيِكَ فِيهِمُ ... لَمَا حَمَلَتْهُمْ بَعْدَ ذلك سوقُ
فَلاَ عَدِموا مِنْكَ، الذي عَهِدوا فَمَا ... بِغَيْرِكَ غُفْرانُ الذُّنوبِ يَحيقُ
توسَّعْتَ فَضْلاً في وَلِيٍّ وحاسِدٍ ... ولَمْ يَكُ في باعِ المَكَارِمِ ضِيقُ
كَرُمْتُمْ فُروعاً في المَعالي حَميدةً ... وطابَ أُصولٌ مِّنْكُمُ وَعُرُوقُ

---

136) «الذخيرة» ق 2 ورقة 151 مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

أمداحه فيه وفي أسرته
فـــي عـدة مناسبـات

لابن سوار أمداح كثيرة غير ما ذكرنا في علي وسائر أسرته، كلّما تجدّدت حال، أو حدثت مناسبة.

ومن ذلك قوله يوم زيارته واصفاً جوده ومحلّ نزله :(137)

أياكِ من ظَبْيَـــةٍ في ذلك الكَنَسِ فـإنَّها أُخْتُ ذاك الضَّيْغَمِ الهَرِسِ
كَمْ نَمَّ لي جَرْسُ قُرْطَيْها وساعَدَني مَا في الخَلاخِلِ مِنْ صَمْتٍ وَمِنْ خَرَسِ
ما تَعْرِفُ العَرْفَ في المسْواكِ مِنْ سَبَبٍ إلاَّ مِنَ الشَّنَبِ المِـعْطَـارِ واللَّعَسِ
يَارَبَّةَ الخِدْرِ حَيْثُ البَحْرَ مِن مَّددٍ والمَوْجُ مِنْ زَرَدٍ والسَّيْفُ مِنْ جَرَسِ
رُسُـــومُ دَارِكِ في يَبْـرينَ دارِسَـــةٌ وفي الحَشـا لَكِ رَبْعٌ غَـيْـرُ مُنْدرِسِ
قِسْ مـا تشاء تجدْ في مِثْله عوضـًا وَبـالزَّمـــانِ الذي وَلَّى فَـلاَ تَقِسِ
أَلَسْتَ تَذْكُـرُ يَوْمـاً حِـينَ زُرْتُهُـمْ والدَّهْرُ يَخْرُجُ مِنْ عـيدٍ إلى عُـرُسِ
نَزَلْتَ في مَـوْضِعٍ حَفَّ الغَـديرُ بِـه كَمَا يحُفُّ اخْضِـرَارُ اللَّيْلِ بِالغَسَقِ
كَـــأَنَّ جُـــودَ عَلِيٍّ جـاد لُجَّـتَـهُ فَلَيْسَ يُخْشَى عَلَيْــهِ آفَـةَ الدَّرَسِ

ومن أمداحه فيه هذه القطعة التي يذكر فيها جوده وكرمه المتوالي توالي الغيث المسجم على كلٍّ من ينزل بمنزله من الاضياف والزوّار في غبطة وأمان :

إذا نَزَلَ العَــافُــون في عُـقْـرِ دَارِه فَــقَــدْ نَزَلُوا في غِــبْطَةٍ وأَمَـــانِ
بِحَيْثُ حِيَّاضُ الجُودِ زُرْقٌ مِّياهُـها ومُـــــزْنُ العطايا دائِمُ الـهَطَلانِ
ولِلْغَـيْثِ أَوْقَـاتٌ يُفـاجِيءُ صَـوْبُهُ ونـائِـلُـهُ يَـنْـهَـلُّ كُـلَّ أَوانِ
أَغَـرُّ طَلِيقَ الوَجْـهِ يَهْـتَـزُّ للنَّدى كمـا اهْتَزَّ مَصْقولُ الفِرِنْدِ يَمَانِ
فَـمَـا لِعَلِيٍّ في البَرِيَّةِ مُشْـبِهٌ وَمَـــا لِعَلِيٍّ في الأنَامِ بِثَـــاني
فَلَوْ أَنَّني في الوَصْفِ لَمْ أَذْكُرِ اسْمَه دَرَوْهُ وقـالوا ذي صِـفَـاةُ فُـلاَنِ

137) نفس المصدر، الورقة 148.

ومن أمداحه فيه قوله :[138]

صاروا وحَبلُ وِصالِهِمْ مَبْتُوتُ ⠀⠀ فَسَلُوا نُجومَ اللَّيلِ كَيْفَ أبيتُ
بانوا وروحي عِنْدَهم وحُشاشَتي ⠀⠀ ظنَّتْ بأنَّهُمُ مَضَوْا وبَقيتُ
أسَفي على وادي الأراك وإنَّما ⠀⠀ يتأسَّفُ المحزون وَهْوَ يموتُ
أنْحَى على الأقْراط ناطقةٌ ولا ⠀⠀ أنْحَى على الخَلْخال وَهْوَ صَموتُ
لا تاخذوا في اللَّوْم لَسْتُ بِسَامِعٍ ⠀⠀ إنَّ المَلامَةَ في الهوى تَعْنيتُ
هذا فؤادي إنْ وجدتُم غَيْرَهَا ⠀⠀ في طَيِّه فالنَّارُ والكِبْريتُ
لَوْ أنَّ رِفقَكَ في قلوب مُرَكَّبٌ ⠀⠀ لَمْ يَلْتَقِمْ في البَحْرِ يونُسَ حوتُ
ولقد حَمَلْتَ من الوقار سكينةً ⠀⠀ لم يَحْتَمِلْها قَبْلَكَ التَّابوتُ

ثم إنَّ ابن سوار، انتقل من سلا بدون إرادة ممدوحه إلى تلمسان، ولا ندري السبب الذي أوجب انتقاله وبُعْده عنه.

ولعلَّه لم يجد بتلمسان ما خلَّفه وراءه بسلا عند آل عشرة، من البِّر والرِّعاية، والجود والحَفاوة، فنَدِمَ على مفارقته لهم، وخاطب ممدوحه أبا الحسن بهذه القصيدة، معتذرا عن بَيْنُونَتِه، ومُفْصحاً عمَّا يقاسيه من مضاعفة ألَمِ نَدامته.[139]

بَدَتِ الغزالةُ والغزالةُ وَجْهُها ⠀⠀ وتكلَّمتْ فسمعتُ ظَبْيَاً ينغَمُ
خالسْتُها وتبسَّمت فظننتُها ⠀⠀ عن مِثْلِ ما في نَحْرِها تتبسَّمُ
فَتَشابَهَتْ منْها الثلاثةُ أَضْرُبٍ ⠀⠀ عِقْدٌ وثَغْرٌ طَيِّبٌ وتَكَلُّمُ
لَوْ كان مَرْئيًا جُمانُ حَديثِها ⠀⠀ لرأيْتَ مِنْهُ أجَلَّ شَيْءٍ يُنْظَمُ
ومضتْ تجرُّ وراءها شَعَراً كما ⠀⠀ أعْطاكَ جانِبَه الغُرابُ الاسْحَمُ
يَمْحو مواقع اثْرِها فَكأنَّهُ ⠀⠀ يُخْفيه عَنْ عَيْنِ الرَّقيبِ ويَكْتُمُ
والمِسْكُ فَوْقَ التُّرْبِ من أرْدانِها ⠀⠀ خَطٌّ كما رُقِمَ الرِّداء الْمُعْلَمُ
مالي ومالكِ ياعُيونُ تَسومُني ⠀⠀ خُطَطَ الرَّدى وأنا المُعَنَّى المُغْرَمُ
هَلاَّ الْتَقَيْنا حَيْثُ يَنْتَثِرُ الظُّبَى ⠀⠀ والهامُ تسْقُط والقَنَى تتحطَّمُ

---

138) «الذخيرة» ق 2 ورقة 149، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

139) نفس المصدر ورقة 150

والجَوُّ دَكْنٌ والغُبار قميصُهُ   والجَيْشُ أرْعَنُ والخَميسُ عَرَمْرَمُ
و كأنَّ يومَ الحَشْرِ يومُ جُموعِنا   وكأنَّ غَلْيَ الحَرْبِ فيهِ جَهَنَّمُ
وكأنَّ كُلَّ كَمِيٍّ حَرْبٍ مارِدًا   تَهْوِي إليهِ من الأسِنَّة أنْجُمُ
ومُدَرَّبِين على الطِّعان لقيتُهُمْ   وكأنَّهُمْ في الشَّمْسِ لَيْلٌ مُظْلِمُ
لَبِسوا جُلودَ الرَّقْمِ واعْتَقَلوا القَنى   فرأيتُ كيفَ يَجُرُّ أرْقَمَ أرْقَمُ
حتَّى عَلَوْناهُمْ بِكَلِّ مُهَنَّدٍ   يَبْكِي فتحْسِبُهُ لَهُمْ يَتَرحَّمُ
ذُو خُطْبَةٍ فِي الْهَامِ يُسْمَعُ صَوْتُهَا   فِي كُلِّ قُطْرٍ وَهُوَ لاَ يَتَكَلَّمُ
ولقد سَلِمتُ من الصَّوارِمِ والقَنى   لو كُنْتُ من فَتَكَاتِ رَمْيِك أسْلَمُ
أعَلِيُّ يابْنَ القاسِمِ بْنَ مُحمدٍ   بَيْنِي وبَيْنَكَ عُروةٌ لاتُفْصَمُ
رُدَّ التَّحِيَّةَ مِثل وُدي غَضَّةً   إنِّي عَلَيْكَ مَعَ النَّسِيمِ مُسَلِّمُ
و لقد كَتَبْتُ و أدْمُعي مُنْهلَّةٌ   والْقَلْبُ فِيهِ جِذْوَةٌ تَتَضَرَّمُ
أمِنَ السَّوِيَّةِ ان أكُونَ كَما أنا   فَيَفُوزَ غيري بالنَّعيمِ وأُحْرَمُ
واللّهُ يَرْضى عَنْكَ مِنْ حَكَمٍ فَقَدْ   وافَقْتَ حُكْمَ اللّهِ فِيمَا تَحْكُمُ
إنْ بِنْتُ عَنْكَ وَلَمْ تُرِدْهُ فَإِنَّهُ   بَعْضِي لِبَعْضِكَ في فِراقِكَ يُخْصِمُ
ولقد نَدِمْتُ عَلَى فِرَاقِ سَلاَ كَما   ضُعِفَ النَّدامَةَ حِينَ أُهْبِطَ ءادَم

وقال أيضا يمدحه، وكتب بها إليه من تلمسان[140]

لَعَلَّ إيَابَ الظَّاعِنينَ قَرِيبُ   فَتَرْجِعُ أيَّامُ الحِمَى وَتَئُوبُ
مَغاني تَلاَقِينا وَعَهْدُ اجْتِمَاعِنا   ولَيْسَ عَلَيْنَا في الزَّمَانِ رَقِيبُ
و أيَّامُنا بِيضُ اللَّيالي ودَهْرُنا   مِنَ الحُسْنِ مَا لِلشَّمْسِ فِيهِ غُروبُ
بِهَا كَانَ يَدْعوني الْهَوى فَأُجِيبُهُ   مُطيعاً وأدْعُو بِالهَوى فَيُجِيبُ
وأرْمِي المَهَى من نَاظري فتُصيبُها   سِهامي وتَرْمِيني المَهَى فَتُصِيبُ
وفي الخِدْرِ مَكْحولُ الجُفونِ صِفاتُهُ   مِنَ السِّحْرِ مَعْسولُ الرُّضَابُ شَنِيبُ
إذا ما أدارَ الْكَأْسَ من مِثْلِ رِيقِه   تمايل غُصْنٌ وارْجَحَنَّ كَثيبُ

140) «الذخيرة» ق 2. الورقة 152، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

فَـأجْـفَـانُهُ سَكْرى وَنَحْنُ وَقَـدُّهُ وَكُلٌّ بِمَـا اسْـتَـوْلَـى عَلَيْـهِ مُـرِيـبُ
ويَهْـدي لِنُـوَّارِ الحَـدائِقِ عَـرْفَـهُ فـيَـعْـبِقُ مِنْ أنْفَـاسِـهِ ويَطِيـبُ
عَلَى مِـثْلِ الزَّمَـانِ الذي مَـضَى تُشَقُّ قُلُوبٌ لا تُشَـقُّ جُـيُـوبُ

ومنها وقد شبَّهه بالملوك ونزَّله منزلتهم :

أمِـثْلَ عَلِيٍّ تَطْلُبُ الْعَـيْنُ أنْ تَرى ومِـثْلُ عَلِيٍّ في المُلُوكِ غَـرِيبُ
فَـتًى يَهَبُ الدُّنْيـا وَ يَرْتَاح لِلنَّدى كَمَـا اهْتَـزَّ غُـصْنُ البانِ وَهْوَ رَطِيبُ
وتَأتي عَطاياهُ اطِّـرادَ خِـصـالِه كَمَـا اطَّرَدَتْ للسَّـمْـهَرِيِّ كُـعُـوبُ
وَإنْ كُنْتُ قَدْ أضْرَبْتُ عَنْ مَدْحِ غَيْرِهِ فَلَيْسَ لَهُ في العَـالَمِـينَ ضَـرِيبُ
أُحِبُّ سَـلاَ مِنْ أجْلِ كَـوْنِكَ مِـنْ سَلاَ فَكُلُّ سَـلاَوِيٍّ لَدَيَّ حَـبِـيـبُ
وصَـيَّرتَـهـا مِـصْـرًا وَنَيْلُكَ نِيلُهـا وَكَـفَّـاكَ بَطْحَـاهَا وأنْتَ خَـصِـيبُ

قال ابن بسَّام : وقد كُرِّر هذا المعنى فيه أبو بكر في مواضع من شعره، منها قوله من قصيدة :

يَقُـولُ رِجَالٌ غَـيْـرَ مَـا يَفْـعَلُونَهُ وإنَّ عَلِيّـاً قَـائِلٌ وفَـعُـولُ
فَلاَ تَطْلُبُـوا في سَاحَـةِ الأرْضِ مِثْلَهُ فَـمِـثْلُ عَلِيٍّ فـي المُلُـوكِ قَلِيلُ
وَلَوْلاَكَ مَـا كَـانَتْ سَـلاَ دَارَ هِجْـرَتي وَلاَ كَـانَ لِي عَـمَّنْ أُحِبُّ رَحِـيلُ
فـألفَـيْتُـهَا مِصْـرًا وأنْتَ خَصِيبُهَا وكَـفَّـاكَ بَطْحَـاهَا ونَيْلُكَ نِيلُ

والغالب على الظَّن أنَّ ابن سوار لَمَّا لمْ يطب له المقام بتلمسان، واشتاق إلى ممدوحه مِنْ بني عشرة بسلا، وحنَّ إليهم، وتذكَّر ما كان له عندهم من الحُرمة والحُظوة والمكانة والإعتبار، وما كانوا يغدقونه عليه من العطايا، ويخصُّونه به من المنح والمزايا، حسبما يوخذ ذلك من القصائد والأشعار التي خاطبهم بها أثناء انفصاله عنهم، شدَّ الرِّحلة مرة ثانية، ورجع إليهم مُجدِّدا صلته بهم، مستانفا أمداحه فيهم ، فقابلوه بما هو معروف من جودهم، وشرف نفوسهم، فاطمأنَّت به في هذه المرة الدَّار، وطاب له المقام والقرار.

وممًا فاضت به سجيته، وانطلق به لسانه في مدح الاسرة العشرية، إمًا قبل انتقاله عنهم أوْ بعد رجوعه إليهم ، قوله :[141]

إلى ضَوْءِ ذَاكَ البَارِقِ المُتَعالي حَنَنْتُ وحنَّتْ أَيْنُقي وجِمالي
تَأَلَّقَ يُزْجِي عارضاً مِثْلَ أدْمُعي ويَحْكي فُؤادي خَفْقُهُ المُتَوالي
فَلَوْ لا شِمَاليَ في زِمَامِ شِمَلَّةٍ لَطَارَتْ إليْهِ في صَبَا وشَمَالِ
إلى مَسْقَطِ الْغَرْسِ الذي كان غَرْسُها بِهِ لا إلى سِدْرٍ هُنَاكَ وَضَالِ
ولم تَنْسَها الأرْطَى رِيَاضٌ تَرودُها لَدَا مَوْرِدٍ عَذْبِ المِيَاهِ زُلَالِ
وَحُبِّبَ لِلإنْسانِ أوَّلُ مَوْطِنٍ وإنْ كَانَ في حَاشَاهُ نَاعِمَ بَالِ
هُمُ بعثوا طَيْفَ الخَيالِ الذي سَرى فَعانَقَ جِسْماً مِثْلَ طَيْفِ خَيالِ
وأَقْبَلَ مِنْ تِلْقَائِهِمْ فَكَأَنَّهُ مُغَلَّفَةٌ أعْطافُهُ بِغَوالِ
فَيَادَارَهُمْ بالحَزْنِ حُزْني مُجَدَّدٌ عَلَيْكِ وقَلْبِي لَيْسَ عَنْكِ بِسَالِ
أرى أعْيُناً صَوْراً عَلَيَّ كَثيرةً و مِنْ دونِ أنْ أَلْقَاكَ سُورُ عَوَالِ
وأبْيَضَ هِنْدِيٍّ كأنَّ بِحَدِّهِ مُطَارَ ذُبابٍ أو مَدَبَّ نِمَالِ
جَرَى فَوْقَهُ مَاءُ الفِرِنْدِ وتَحْتَهُ وَجَالَ عَلَى مَتْنَيْهِ كُلَّ مَجَالِ

و في المدح :

وَقَدْ أظْهَرَتْ فيهِ المَنَايا نُفُوسَها كَمَا خَوَّضَتْ لُجَّ السَّراب سِعَالِ
وَلَمْ يَحْكِهِمْ صَوْبَ الحَيا لَكِنِ اقْتَدى بِمَا فِيهِمُ من شِيمَةٍ وخِلالِ
وَجادوا عَلى جِيدِ الزَّمانِ قلائداً وَ أَفْعَالُهُمْ فيها ضُروب لَئَالِ
أَقَاموا لِوَاءَ المَكْرُمَاتِ وخَيَّموا مِنَ المَجْدِ والعَلْيَاء تَحْتَ ظِلالِ
إذا احْتَجَبُوا لَمْ يَسْتُرِ الحَجْبُ نورَهُمْ وإنْ طَلَعوا كَانوا بُدُورَ جَمَالِ
أوِ انْتَسَبوا في المَجْدِ كَانَ انْتِسَابُهُمْ لأَعْظَمِ عَمٍّ أوْ لأكْرَمِ خَالِ
وإنْ وَرِثَ العَلْيَاءَ عَنْهُمْ عَلِيُّهَا فَلاَ بِدْعَ في عالٍ وِراثَةُ عَالِ
سَكِينَتُهُ من «أعْفُرٍ ويَلَمْلَمٍ» وبَعْضُ رِجالٍ في سُكُونِ جِبالِ
إلَيْكَ رَمَتْنَا العِيسُ حَتَّي كَأنَّها مِنْ الوَهْنِ أقْواسٌ رمتْ بِنِبَالِ

141) «الذخيرة» ق 2. الورقة 150، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

و من أمداحه في بني عشرة قوله :[142]

وَفِــتْــيَــةٍ من أعــاريبٍ كَــأَنَّـهُـمُ ... أُسْـدٌ عَلَى أَعْـوَجِـيَّـاتٍ سَـرَاجِـيبِ
لا يَلْبَـسـونَ جلُـود الرَّقْمِ سَـابِغَـةً ... حَـتَّى تُخَـاطَ بِأَجْرانِ الـيَـعَـاسِـيبِ
وَلا تَبِـيتُ على قُــرْبٍ مــحلَّتُــهُمْ ... إلاَّ يَبِـيتُ حِـمَـاهُمْ غَـيْـرُ مـقْـروبِ
فَكَم مَّضيـتُ وَصَوْتُ الـهَوْلِ يَتْبَعُنـي ... وَكَمْ سَـرَيْتُ وسَـيْلُ اللَّيْلِ يَرْمي بِـي
مُـلابِسـاً مـا تَـراه العَـيْنُ مُلْتَـبِسـاً ... لَيْــلاً مَعَ اللَّيْلِ أَوْ ذِيبـاً مع الذِّيَـبِ
و أطْـرقُ الفَـتـيـاتِ الـبِـيضَ لابسـةً ... بيضَ الجَـلابيب في سُودِ الجَـلابيبِ
والقُـرْطُ كَالقَلْبِ من خَوْفٍ ومِنْ حَـذَرٍ ... كَــأَنَّهُ هُوَ في خَــوْفٍ وتَعْــذِيبِ
لَمْ ءاتِهــا قَطُّ إلا نَمَّ بي وبِهــا ... وَاشٍ من الحَلْيِ أَوْ وَاشٍ مِنَ الطِّيبِ
وَلاَ انْتَـهَـيْتُ إلـى أطْنَابِ قُـبَّـتِـهـا ... إلاَّ على ظَهْـرِ مَطْعُـونٍ وَمَـضْـرُوبِ
بـأبيضٍ بِدَمِ الأجْـسـامِ مُـغْـتَـسِلٍ ... وأسْـمَـرٍ بِدَمِ الأكْـبَـادِ مَـخْطوبِ
والطَّبْـعُ أكْــرَمُ في تَكْوينِ خِلْقَــتِـهِ ... مِنْ أنْ أكُونَ مُـحِـبّاً غَـيْـرَ مَـحْـبُـوبِ
إنْ كُنْتَ يَا دَهْرُ لَمْ تُحْسِنْ مُعَاشَرَتي ... فِـيمـا مـضى فَلَقَدْ أحْـسَنْتَ تأْديبي
أُجَـرِّبُ النَّاسَ في ضَـيْقٍ وفي سَـعَـةٍ ... والنَّاسُ صِنْفـانِ في حَـدِّ التَّـجـاريبِ
وَمَـا على العُـودِ أن يُهْـدي نَوافِـحَـهُ ... إلاّ على لَهَبٍ بالْجَـمْـرِ مَـشْـبُـوبِ
و يُطْلَبُ الجـودُ من قـوْمٍ وجُـودُ بني ... عَـشْـرٍ يَجِـيـئُكَ عَـفْـوًا دُونَ مَطْلوبِ
مَــحَــاسِنُ ثُقِـفَتْ منْهــا أوائِلُهُـمْ ... كــمــا تَثَــقَّفَ أُنْبُــوبٌ بِأُنْبُــوبِ

و من أمداحه فيهم قوله :[143]

مِن لَظى قَلْبِي اقْــتَـدِحْ لا مِنْ زِنَادْ ... وَدُمُــوعِيَ اسْــتَــقِي لا مِنْ غِــوَادْ
صَــرَفُــوا نَوْمي لِيَــدْنوا غَــيْـرَكُمْ ... وَهَنيـئـاً مَّـا غَـصَـبْـتُم مِّنْ فُـؤَادْ
أَنْتُمُ الأحْــبَــابُ في حُكْمِ الهَـوى ... فــارْفُـقُــوا لا تَفْـعَلوا فِـعْلَ الأعـادْ
جَــسَــدي أَنْحَلُ مِنْ سِــرِّكُمْ ... في تناجِــيكُمْ بِهِ يَوْمَ البِــعَــادْ

---

142) «الذخيرة» ق 2. الورقة 152، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

143) نفس المصدر، ورقة 150،

تَكْمُنُ الشَّحْناء في أحْشائِهِمْ ... كَكُمُونِ الْجَمْرِ في جَوْفِ الرَّمادْ
يَحْسُدُ النَّجْمُ الثُّرَيَّا أُلْفَتِي ... وَلَقَدْ يَبْكي سُهَيْلُ لانْفِرادْ
ما مُرادي أنْ أرَى مُنْفَرِداً ... رُبَّ مَحْمُولٍ على غَيْرِ المُرادْ
لاَ سَقى الرَّوْضَ غَمامٌ ساكِبٌ ... لَيْسَ يَسْقي مَعَهُ شَوْكَ القَتادْ
إنَّ مِنْ بَعْدِ بَني الْقاسِمِ لاَ ... أحَدٌ يَمْلأُ عَيْناً من جَوادْ
نَسَبٌ مُطَّرِدٌ مِنْ شَرَفٍ ... كَكُعُوبِ الرُّمْحِ ذَاتِ اطِّرادْ
وَقَبِيلٌ كُلُّهُ مِنْ عِتْرَةٍ ... كَظُبَى الهِنْديِّ في يَوْمِ جِلاَدْ
وبَنُو الْعَشْرِ ذووا الْعَلْيَاءِ لَمْ ... يُخْلَقُوا إلاَّ لِكَفٍّ وَزِنَادْ
وعَفافٍ واعْتِكافٍ وتُقَى ... ووفاءٍ وعَطاءٍ وأيَادْ

و فيهم يقول أيضا .(144)

بَكَتْ وما أسلَتْ دَمْعاً ولا هِيَ أعْرَبَتْ ... ولا أفْصَحَتْ مَعْنى بِلَحْنِ كَلامِ
وَ لَمْ أر أشْجى مِنْ بُكاءٍ بعَثْنَهُ ... فَزِدْنَ بِهِ في لَوْعَتي وَغَرامي
نَوائِحُ مَا غَاضَتْ دُمُوعُ جفُونِها ... عَنِ السَّكْبِ إلاَّ والضُّلُوعُ حَوامِي
وَمَا ذلكَ المُحْمَرُّ فيهِنَّ خِلْقَةٌ ... وَلَكِنَّهُ مِمَّا بَكِينَ دَوامِي
سَقَى مَنْزِلاً بِالْغَرْبِ مُنْسَكِبُ الحَيا ... وَجَادَ عَلَيْهِ كُلُّ أسْحَمَ هامِي
بِحَيْثُ بَنُو عَشْرٍ تُنيرُ وُجوهُهُمْ ... كَما طَلَعَتْ لَيْلاً بُدُورُ تَمامِ
فَمَا أكْثَرَ المُثْنى عَلَيْهِمْ سَجِيَّةٌ ... وَمَا أشْبَهَ النُّعْمَى بِطَوْقِ حَمامِ
رَعَى اللَّه فِيكُمْ ذِمَّةَ المَجْدِ والْعُلا ... فَلا خُلُقٌ أرْعى لَهُمْ لِذِمَامِ

ومات احدهم اسمه محمد، ولا نعرف عنه شيئا، فرثاه بقوله:(145)

مَا كُنْتُ أعْلَمُ عِلَّةَ الدَّهْرِ الرَّدِي(146) ... حَتَّى ثَوى فِي القَبْرِ جِسْمُ مُحَمَّدِ
خَطْبٌ ثَنى وَجْهَ الصَّباحِ كَأنَّهُ ... بِالْحُزْنِ مِنْ قِطَعِ الظَّلاَمِ الأرْبَدِ
وَرَزِيَّةٍ نُزِلتْ بِنَالِ مُحَمَّدٍ ... خَصَّتْ وعَمَّتْ ءَالَ دِينِ مُحَمَّدِ

---

144) «الذخيرة» ورقة 151، مخطوط الخزانة العامة بالرباط
145) نفس المصدر ورقة 153،
146) مِنْ رَدِيَ رَدَى مِنْ بَاب تَعِبَ إذا هلك.

ومات لأحدهم ولد فقال فيه يرثيه :(147)

وَناعٍ نَعَى والقَلْبُ كالقُلْبِ خَافِقٌ مَرُوعٌ ومِمَّا رَابني لم أصْدُقِ
بَكَتْ رَحْمَةً لي عَيْنُ كُلِّ غَمَامَةٍ وساعدني نَوْحُ الحَمَامِ المُطَوَّقِ
فَيَا حُزْنُ لاتَذْهَب بِتَسكاب أدْمُعي فَلي مَدْمَعٌ مِن لُجَةِ الحُزْنِ يَسْتَقِي
فَلَوْلاَ الْتِهَابُ النَّارِ مَا بَيْنَ أضْلُعي لأصْبَحْتُ في بَحْرٍ مِّنَ الدَّمْعِ مُغْرَقِ
دَعُونِيَ أشْكو الدَّهْرَ للدَّهْرِ مُعْلِنًا عَلَى أنَّني أشْكو إلى غَيْرِ مُشْفقِ
فَمَا فَوْقَ هَذا الرُّزْءِ رُزْءٌ وإنَّمَا رَمَى كَبِدَ العَلْيَا بِسَهْمٍ مُّفَوَّقِ
قَضَى بِابْنِ عَشْرٍ كابن عَشْرٍ وأرْبَعٍ فَهَلٌ هِلاَلٌ مِّثْلُ نون مُعَرَّقِ
مَضَى بِفَتىً تُزْري أسِرَّةُ وَجْهِهِ بِضَوْءِ الصَّباحِ المُشْرِقِ الْمُتَألِّقِ

وممَّن مدح القاضي أبا الحسن ابن عشرة، وأشاد بفضله وجوده وكرمه من شعراء الأندلس، الشاعر الأديب الوشَّاح، أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعْمى التُّطيلي.

وهو من شعراء الدولة المرابطية، المقيمين بإشبيلية، ومنها كان يخاطب ممدوحيه لعجزه عن الاتصال بهم، لأنه كان مُصابا بالعَمى.

ويوخذ من بعض أشعاره، أنه عاش عيشة إقْلال، لِمَا عامله به الدَّهر من الحرمان والإهمال.

ومن أمداحه فيه قوله :(148)

تَنَاصُرُ الشَّيْب فِي فَوْدَيْه خِذْلانُ إنَّ الزِّيادَةَ فِي النُّقْصَانِ نُقْصانُ
لا تَغْتَرِرْ بِعُيُونٍ يَنْظُرون بِها فإنَّما هِيَ أحْدَاقٌ وأجْفانُ
كَمْ مُقْلةٍ ذَهَبَتْ في الغَيِّ مَذْهَبَها بِنَظْرَةٍ هِيَ شَانٌ أوْلَهَا شَانُ
رَهْنٌ بِأضْغَاثِ أحْلاَمٍ إذا هَجَعَتْ ورُبَّمَا حَلَمَتْ والْمَرْءُ يَقْظانُ
فَانْظُرْ بِعَقْلِكَ إنَّ الْعَيْنَ كَاذِبَةٌ واسْمَعْ بِحِسِّكَ إنَّ السَّمْعَ خَوَّانُ

147) «الذخيرة» الورقة 153، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

148) «ديون الأعمى التطيلي»، طبع دار الثقافة بيروت، ص 218

ولا تَقُلْ كُلُّ ذي عَيْنٍ لَهُ نَظَرٌ إنَّ الرُّعاةَ تَرَى مَا لاَ يَرى الضَّانُ
دَعِ الغِنى لرِجَالٍ يَنْصِبُونَ لَهُ إنَّ الغِنَى لِفُضُولِ الهَمِّ مَيْدانُ
وَاخْلَعْ لَبُوسَكَ من شُحٍّ وَمِنْ أَمَلٍ لاَ يَقْطَعُ السَّيْفُ إلاَّ وَهْوَ عُرْيَانُ
وَصَاحِبٍ لَمْ أزَلْ مِنْهُ عَلَى خَطَرٍ كَأَنَّني عِلْم غَيْبٍ وَهْوَ حَسَّانُ
أغْرَاهُ حَظٌّ تَوَخَّاهُ وَ أخْطَأَني أمَا دَرَى أنَّ بَعْضَ الرِّزْقِ حِرْمَانُ
وغَرَّهُ أنْ رءاهُ قَدْ تَقَدَّمَني كَمَا تَقَدَّمَ «بِسْمِ اللَّهِ» عُنْوَانُ
إنِّي اسْتَجَرْتُ عَلَى رَيْبِ الزَّمانِ فتًى إلاَّ يَكُنْ لَيْثَ غَابٍ فَهْوَ إنْسانُ
حَسْبِي بِعُلْيَا عَلِيٍّ مَعْقِلٌ أشِبٌ زمان سَيْري بِهِ في الأرْضِ أزمانُ
صَعْبُ المَراقي وَلَكِنْ رُبَّما سَهُلَتْ عَلَى المُنَى مِنْهُ أوْطَارٌ وأوطانُ
الواهِبُ الخَيْلَ عِقْباناً مُسَوَّمَةً لَوْ سُوِّمَتْ قَبْلَهَا فِي الجَوِّ عِقْبَانُ
مِنْ كُلِّ سَاعٍ أَمَامَ الرِّيحِ يَقْدُمُهَا مِنْهُ مَهَاةٌ وإنْ شَاءَتْ فَسِرْحَانُ
دُجُنَّةٌ تَصِفُ الأنْوارَ غُرَّتُهَا ونَبْعَةٌ يَدَّعي أعْطافَهَا البَانُ
عَصَا جَذيمَةَ إلاَّ مَا أُتيحَ لَهَا مِنْ أمْرِ موسى فَجَاءَتْ وَهْيَ ثُعْبانُ
هِيمٌ رُواءٌ لَوْ أنَّ الْمَاءَ صافَحَهَا لَزالَ أوْ زَلَّ عَنْهَا وَهْوَ ظَمْآنُ
يَكادُ يَخْلَقُ مُهْرَاقُ الدِّمَاءِ بِهَا فَلاَ تَقُلْ هِيَ أنْصَابٌ وَأوْثانُ
مَوْتَى فإنْ خُلِعَتْ أجْفانُها عَلِمَتْ أنَّ الدُّروعَ عَلَى الأبْطالِ أكْفَانُ
نَفْسِي فِداؤُكَ لاَ كُفْؤاً وَلاَ ثَمَناً وَ لَوْ غدا المُشْتَرِي مِنْها وَكِيوَانُ
والتِّبْر قَدْ وَزَنوهُ بِالْحَديدِ فَمَا سَاوَى وَلَكِنْ مَقاديرٌ وأوْزانُ

وممن مدحه أيضا من جِلَّة الشعراء ومشاهيرهم، أبو محمد عبد الجبَّار بن حمديس الصِّقلِّي بقصيدة يقول فيها :(149)

لِكُلِّ مُحِبٍّ نَظْرَةٌ تَبْعَثُ الْهَوَى ولي نَظْرَةٌ نَحْوَ القَتولِ هِيَ القَتْلُ
تُرَدِّدُ بالتَّكْريهِ رُسْلَ نَواظِري وَمِنْ شِيَمِ الإنْصَافِ أنْ تُكْرَمَ الرُّسْلُ

149) «ديوان ابن حمديس» ص 557، طبع دار صادر، بيروت.

ومنها :

رَكِـبَتْ نَوىً جـوَّابَةَ الأرْضِ لَمْ يَعِشْ   لِراكِـبِـهـا عِـيسٌ تَخِبُّ ولا رِجْلُ
أُسـائِلُ عَنْ دارِ السَّـمـاحِ وأهلِهِ   وَلا دارَ فـيـهـا لِلسَّمـاحِ وَلاَ أهْلُ
وَلَوْلاَ ذُرَى ابْنِ القَاسِمِ الواهِبِ الغِنَى   لَمَا حُطَّ فِيـهَا عِنْدَ ذي كَرَمٍ رَحْلُ
تُخَـفِّضُ أقْـدارُ اللِّئـامِ بِلُؤْمِـهِمْ   وقَـدْرُ عَلِيٍّ مِّنْ مَّكارِمِـهِ يَعْلو
فَـتًـى لَمْ يُفـارِقْ كَـفَّـهُ عَـقْـدُ مِنَّةٍ   ولا عِـرْضَـهُ صَـوْنٌ وَلاَ مَـالَهُ بَذْلُ
لَهُ نِعَمٌ تَخْـضَـرُّ مِنْهـا مَـواقِعٌ   وَلاَ سِيَمـا إنْ غَـيَّـرَ الأُفُقَ المَـحْلُ
ورَحْبُ جَنابٍ حِـينَ يَـنْـزِلُ لِلْقِـرَى   وفَـصْلُ خِطابٍ حِينَ يَجْـتَمِعُ الحَـفْلُ
وَوَجْـهٌ جَمـيلُ الْوَجْـهِ تَحْسبُ ضَـرَّهُ   حُـسامـاً لَّهُ مِن لَّحْظِ سائِلِه صَـقْلُ
مُـرَوَّعَـةٌ أمْـوالُهُ بِعَطائِهِ   كَـأنَّ جُنوناً مَـسَّـهـا مِنْـه أوْ خَـبْلُ
وَأيُّ أمـانٍ أوْ قَـرارٍ لِخـائِفٍ   عَلَى رَأْسِـهِ مِنْ كَفٍّ قَـاتِلِهِ نَصْلُ

ومنها

لَقَـدْ بَهَـرَتْ شُـهْبَ الدَّراري مُنيـرةً   مـآثِرُ مِنْكُمْ لاَ يُكَاثِرُهـا الرَّمْلُ
وَرِثْتُمْ تُراثَ الْمَـجْـدِ مِنْ كُلِّ سَيِّـدٍ   عَلَى مَنْكِبَيْـهِ مِنْ حُـقـوقِ العُـلا ثِقْلُ
فَـمِنْ قَـمـرٍ يُبْـقِي على الأُفْقِ بَعْـدَهُ   هِلالاً وَمِنْ لَيثٍ خَلِيـفَـتُـهُ شِـبْلُ
وَأصْبَحَ مِنْكُمْ في سَلاَ الْجَوْرُ أخْرَسـاً   وَقـامَ خَطيـبـاً بالذي فـيكُمُ الـعَـدْلُ
مَلَكْتُ القَـوافي إذْ تَوَخَّـيْتُ مَدْحَكُمْ   وَيَـا رُبَّ أذْاوِدٍ تَمَلَّكَهـا فَـحْلُ

وفي «بغية الملتمس» للضَّبي زيادة على ما في الديوان :[150]

أيا قَـاضِـيـاً تُذْكِي بَصِـيـرَةٌ رأيه   سِـراجَ هُدًى يَجْلو مِنَ الظُّلْم ما يَجْلُ
ويا جَـبَلَ الْعِلْمِ الذي دُونَ سَـفْـحِـهِ   يُقـابِلُنا من صَـفْـحِـهِ الخُلُقُ السَّـهْلُ

150) ص 521، طبع مدريد.

ومنها في مقابلة ممدوحه بالبحر

تغَـيَّظَ من حِـقْـدٍ وأزْبَدَ مِـثْلَ مَـا رَمَتْ بلغـامٍ من شَقاشِقِها البُزْلُ
لأنَّكَ تُبْـخِي[151] وَهْوَ تَعْطَبُ سُـفْنُهُ وتحْلو لِوُرّادِ النَّـدَى وَهْوَ لا يَحْـلُ
وَتَفْـتَحُ لِلآمـالِ باباً وبَابُهُ عَلَيْهِ دَوَامـاً مِّنْ عَـوَاصِفِهِ قُـفْلُ
وتُقْطَعُ عَنْهُ رِجْلُ كُلِّ سَـفِـينَةٍ وعَنْكَ فَلَمْ تُقْطَعْ لِراجِلِهِ رِجْلُ
وَعِلْمُكَ دُرٌّ لايُبَـاعُ بِقِيـمَـةٍ وذا دُرُّهُ بِالْبَـيْعِ يَرْخُصُ أَوْ يَغْلُ
ولو أنَّهُ عَـذْبٌ فُـراتٌ لَّمـا اكْـتَفَى بِدَلِّ صَيُوبٍ[152] في حِمَاكَ له سَجْلُ

والأمداح في أبي الحسن ابن عشرة كثيرة جدًا، وإنَّما أثْبتْنا ما توفَّقنا إلى الوقوف عليه، حِرْصا على بقائها، وعدم ضياعها، لما لها من القيمة الفنية والتاريخية، وأصلحنا ما أمكننا إصلاحه من ألفاظها، مع المحافظة التَّامة على أصلها، وحقائق معانيها، لأن النسَّاخ تلاعبوا بها، وصحفوها تصحيفا كادت تضيع معه بلاغتها وأساليبها وما قصده الشاعر منها، والله الموفق.

وفاة أبي الحسن ابن عشَرة

نصَّ ابن الابَّار في «تكميل الصلة»[153] على أنه توفي ببلده سنة اثنتين وخمسمائة (502/ 1108) رحمه الله تعالى، وخلَّف لنفسه وأسرته لما اتَّصف به من الجود والفضل والمروءة والحسب ذكرا مُخلَّدا، لا ينقطع خبره، ولا يعفى أثره.

وقد رثاه شاعر حضرته، ومدح أسرته، أبو بكر محمَّد بن سوار الأشبوني بقوله . [154]

---

151) بخا غضبه سكن وفتر.
152) دل الماء انصبَّ، والصيُوب الصائب، والسَّجْل الدَّلْوُ العظيمة والعطاء والرَّجُل الجواد
153) ص 232، طبع مدريد
154) «الذخيرة» ص 152، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

الْعَـيْشُ بَعْـدَكَ يا عَلِيُّ نَكالُ   لاَ شَيْءَ مِنْهُ سِـوَى العَنَاءُ يُنَالُ
يَا عَـثْـرةً عَـثَـرَ الزَّمـان بِأَهْلِهِ   لَيْت الزَّمـانُ مِنَ الْعِـثَـارِ يُقَـالُ
ياعِـصْـمـةَ الفُـقَـراءِ بَلْ يَا مـالَهُمْ   هَيْـهَـاتَ مَـا لِلنَّاسِ بَعْـدَكَ مَـالُ
أَبْكِيكَ بِـالـدَّم لاَ بِدَمْـعِي إِنَّهُ   يَبْكِي سِـوَايَ بِهِ وَذاكَ مُـحَـالُ
دُنْيـا ظَفِـرْتِ وَمَـا مَـتَـاعُكِ كُلُّهُ   إِلاَّ سَـرَابٌ يَضْـمَـحِلُّ وَءالُ
قَـدْ كُنْتُ مَـشْـغُـولاً بِهِ مُـتَـوَقِّـعاً   ولِذِي الوَفَـاءِ بِغَـيْـرِهِ أَشْـغَـالُ
فَـالآنَ هَا أَنَا لاَ أُبالِي عَنْ أَسًى   وَقَعَ التَّـوَقُّعُ فَـاسْـتَراحَ البَـالُ
قَـدْ كُنْتَ ءامَـالِي الَّتي أنا طَالبٌ   جُـهْـدِي وَمُتُّ فَـمَـاتَتِ الآمَـالُ
لاَ الظِّلُّ ظِلٌّ بَعْـدَ فَـقْـدِكَ يَا أبا   حَـسَنٍ ولا المَـاءُ الزُّلالُ زُلاَلُ

ومنها :

كَيْفَ الصَّفُوحُ عَنِ المُسِيءِ وَلَمْ يَكُنْ   إِلاَّ الجَـمِـيلُ لَدَيْكَ والإجْـمَـالُ
حَطُّوا عَنِ الاكْـوارِ قَـدْ مَـاتَ الذي   يَتَـحَـمَّلُ الاعْـبَـاءَ وَهْيَ ثِقَـالُ
قَـدْ وُدِّعَ القَـوَّالُ والفَـعَّـالُ مـا   في الأَرْضِ قَـوَّالٌ ولا فَـعَّـالُ
وتَهَـدَّمَ الجَـبَلُ المُنِيفُ فَـزُلْزِلَتْ   رُتَبُ العُـلاَ وَمِنْ الرِّجَـالِ رِجَـالُ
فَـلأَجْـعَلَنْ حَـجِّي لِقَـبْرِكَ إِنَّهُ   لِلْخَـيْـرِ فِـيـهِ ولِلتُّـقَى أَوْصَـالُ
أَيْنَ العَـزاءُ فَـقَـدْ أُدِيلَ بِأَحْـمَـدٍ   دُوَلُ الأفَـاضِلِ بِالْبَنِيـنَ تُـدَالُ

ومنها :

طَوَّقَـتْنِي النُّعْـمَى فَـصِـرْتُ حَـمَـامَـةً   تَشْـدُو وَغُـصْنُكَ نَاظِرٌ مَـيَّـالُ
وإِذا الأيَـادي لَمْ تَكُنْ مَـشْكُورةً   لِلْمنْعِـمِـينَ فَـإِنَّهـا إِغْـفَـالُ

القاضي أبو العباس أحمد
ابن علي ابن عشَرة السلاوي

كان لأبي الحسن علي ابن عشرة عدة أولاد كلهم سيد سري في أسرته، وصلنا أسماء أربعة منهم، وهم .

- أبو العباس أحمد، و هو أشهرهم ذكرا، وأرفعهم قدرا .
- وأبو علي حسن أو حسّون.
- وأبو زكرياء، يحيى.
- وأبو يعقوب، يوسف.

ولما توفى أبو الحسن علي في التاريخ المتقدم، أسند أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين، ولاية قضاء سلا، إلى أبي العباس أحمد منهم، محافظة على مجد أسرتهم، وإبقاء لهذه الرياسة الشرعية الدينية في بيتهم. و قد كان حَقّاً سَيِّداً من سادات هذه الأسرة العشرية، و بدرا طالعا في سمائها، وصدرا من صدورها، و أديبا من أدبائها، ذا هِمَّة عالية، ومكانة بين ذويه وأقرانه ممتازة سامية، موطأ الأكناف رقيق الحاشية، له صلة مع سلاطين وقته، وأدباء عصره، بالمغرب والأندلس، فكانوا يشدُّون الرحلة إليه، كما كانوا يشدُّونها إلى إبنه من قبله، و ينتابون منزله، ويتبوءون معقله، ويخصونه بأمداحهم، ويترنّمون بذكر جوده وكرمه في أشعارهم، وتجري بينهم في مجالسه الأنسية، مساجلات شعرية، ومطارحات أدبية، ومذاكرات علمية، أعذب من الزلال، وارق من السِّحر الحلال.

وقد ترجمه الضّبّي في «بغيته»[155] وحلاّه :

بِأنه فقيه أديب شاعر من أهل بيت وزارة وجلالة...

ولا نعرف أن بني عشرة كانوا وزراء، وإنما نعرف أنهم كانوا قضاة، اللّهم إلاّ أن يكون قصد أن منزلتهم من سلاطين الدولة المرابطية، ومكانتهم عندهم جعلتهم في صف الوزراء، موصوفين بالوزارة، تشريفا لهم ورفعا لشأنهم، فذلك ممكن.

---

155) ص 187، طبع مدريد.

وأنشد من شعره نقلا عن الفتح في «المطمح».

جَنَيْتُ بِالوَهْمِ وَرْدَ الخَـدِّ مُـجْـتَنِيـاً   وَنِلْتُ مـا أَشْـتَـهِي مِنْ رِيقِـهِ الشَّنَبِ
فَـعلْتُ فِـعْلَ امْـرِيءٍ لاَ شَيْءَ يَحْـجُـبـهُ   قَدْ صَارَ مُـخْتَـرِقَ الأَسْتَـارِ والحُـجُبِ

و أبو العباس هذا هو الذي بنى القصر الدائع الصّيت و رفع سمْكه، و أجرى في بحر الشهرة فُلكه، وقد تقدّم الكلام عليه مستوفى، وما قيل فيه من الشعر، ومن نزل به من الملوك والأمراء في الفصل الخاص به.

زواجه بابنة عمّه

ساق أبو يعقوب يوسف ابن الزيات في كتابه «التّشوف، إلى رجال التّصوف»، في ترجمة أبي الفضل ابن النّحْوي خبر زواجه بابنة عمه فقال .[156]

حدثني يحيى بن عبد الرحمان، عن يحيى بن أبي بكر بن الأخنس، عن أبيه، عن أحمد ابن عشرة قال · تزوجت ابنة عمي، فلمّا خرجتُ من عندها مررتُ بسوق الصيارفة، فرأيت سِلْكاً بين يد دلاّل ينادي عليه بخمسمائة دينار، فاشتريته إلى أجل وحملتُه إلى ابنة عمّي على عادة الناس في اتحاف العروس، و لم يكن عندي من أين أقضي ثمنه، فلمّا بقي مِن أجْله يومٌ بقيت متحيِّراً، فاسبغتُ الوضوء وصليتُ، وجعلت أهتفُ طول ليلتي بدعاء كان علّمنيه أبو الفضل، و كان لا يَقْبَلُ من أحد شيئا، وإنّما يأكل ما يساق إليه من بلده، فاذا احتاج وتأخّر عنه ماله، دعا بذلك الدُّعاء فيفرج عنه.

فلمّا طلع الفجر سمعت قارعا يقرع الباب، فخفت أن يكون صاحب السِّلك، فاذا هو رسول أبي، فأردت أن أكتتم منه، فلم يكن بدٌّ من النهوض إليه، فلمّا دخلت عليه، سألني عن حالي وأنسني وقال لي : ارفعْ ما تحت البِساط، فحملت خريطة، فاذا فيها ألف دينار، فقضيت الدّيْن بنصفه، وأصلحتُ بعض حالي ببقيته.

و يؤخذ من هذه القِصّة، أنه اجتمع بأبي الفضل ابن النحوى، وأخذ عنه، ولا ندري في أي بلد كان اجتماعه به.

---

156) ص 77، طبع الرباط

كما يوخذ منها، أنَّ ءال عشرة، مع ما ءاتاهم الله من فضله، وما أسبغ عليهم من نعمه، كانوا يعيشون في بيوتهم عيشة اقتصاد وعفاف، لا عيشة تبدير وإسراف. و كانوا يربُّون أولادهم على ذلك، اقتداء بأهل الخير والصُّلاح الزَّاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، ليلا يشبُّوا على حب التَّرف المفسد للأخلاق، المستغرق لموارد الأرزاق، المضيق لمجال الإنفاق، على الوُرَّاد والزُّوَار الوافدين عليهم من الآفاق. ولا شكَّ أنَّ ذلك يضيع سمعتهم التي اشتهروا بها في عالم الكرم والجود، بما لديهم بكل موجود.

فهذا أبو العبَّاس، وهو من فخر بني القاسم، وابن أبي الحسن زينة الأيام والمواسم، الذي كانت الدنيا خادمة له، و ينابيع الأرزاق متفجِّرة من بين يديه، ومن خلفه، لا يجد ما يؤدي به ثمن سلك اشتراه لعرسه، و يؤجل صاحبه إلى أجل، و يهتم به غاية الاهتمام، ويتوجه إلى الله تعالى أن يرزقه ما يؤدى به منه.

وفي ذلك دليل على أنهم كانوا يزهدون فيما يذهب وَيَفُوتُ، ويرغبون فيما يخلِّد ذكرهم ومجدهم بعد الموت، وقد حصلُّوا عليه بجودهم وكرمهم، وذهب ما بذلوه لقُصَّادهم ومدَّاحهم من الأدباء والشعراء، وبَقِيَ ما خلَّدوه من ذكرهم والثناء العاطر عليهم في بطون الدفاتر وأسرار المعاجم، منذ نحو تسعمائة عام، وانظر ماياتي بعد ذلك إلى ان يشاء الله سبحانه.

تِلْكَ المَكَارِمُ لاقَعْبَانِ مِنْ شِيَبا بِمَاءٍ فَعَادَ بَعْدُ

حلول الوزير أبي محمد بن عطية بسلا في غيبة أبي العبَّاس عنها

ذكر الفتح في «قلائده» :[157] أنَّ الوزير الحافظ القاضي أبا محمد عبد الحق بن عطية حلَّ بسلا، والفقيه أبو العباس فخر بني القاسم، وزين الأعياد والمواسم، الذي تهمى من يديه للندى سحب تكف، وتطوف بكعبته الآمال وتَعْتَكِف، غائب عنها، فلم يُنِخْ فيها عيسَه، ولم يَرَ تخييمه فيها وتعريسه، ورحل من ساعته، وقال شعراً أخذ الناس في اشاعته واذاعته، وهو :

157) ص 210، طبع بولاق.

يَا صَاحِبَيَّ انْزِلاَ قَصْرَ الحِمَى فَسَلاَ أَنَّى سَلاَ المَجْدُ عَنْ أنْ تَحْتَوِيهِ سَلاَ
كَأنَّمَا الرَّبْعُ لَمَّا غَابَ أَحْمَدُهُ مَنَازِلٌ ظَلَّ عَنْهَا الْبَدْرُ مُنْتَقِلاَ
جَادَ الزَّمَانُ بِلُقْيَا مِنْكَ سَرَّ بِهَا طَوْرًا وَسَاءَ بِذَاكَ الْعَهْدِ إذْ بَخِلاَ
فَاسْمَعْ مُنَاجَاةَ نَفْسٍ مِنْ أخي ثِقَةٍ مَضى تُحَمِّلُهُ مِنْكَ النَّوى عِلَلاَ
وعُدْ إِلَيْهَا أَبَا العبَّاسِ تَحْكِ بِهَا مَرَاتِبَ الشَّمْسِ لَمَّا حَلَّتِ الحَمَلاَ
لاَزِلْتَ فِي عِقْدِهَا وُسْطَى وَلاَعَدِمَتْ مِنْكُمْ حُسَاماً يُبَاهِي خَوْلُهُ خِلَلاَ

قصّته مع الوزير أبي محمد بن القاسم

كان الأمير أبو محمّد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن القاسم الفهري، من أمراء الأندلس، بحصن البُونَتْ، واستنزله أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من حصنه كغيره من أمراء الأندلس، ولكنّه رعى له حقّه، وتدرجت به الأيام حتى أصبح وزيرا لولده أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين. وفي أيام وزارته، حصل بين أمير المسلمين وأبي العباس بن عشرة، ما ترتب عليه شيء من الغض منه، فشدّ الوزير ابن القاسم عضده، ودافع عنه وحماه، وتأكدت أواصر الودّ والإخاء بينهما، واستحكمت عراها، وكان كل منهما يحفظها ويرعاها.

ثم إنّ أمير المسلمين، انقلب على وزيره ونكبه وعزله، فاختار ان يَتَّخِذَ بسلا مقامه ومنزله، فانقبض عنه أبو العباس وتنكّر له، وتناسى ما أسدى له من المعروف وبذله، فانتقد الناس عمله، وظنوا أنه خيب فيه أمله.

وقد ساق الفتح في «قلائده» هذه القصة احسن مساق فقال :[158] ولمّا نُفِّذَ في أمره ما نُفِّذَ، وانفصل عن أمير المسلمين وانْتُبِذ، خيَّره في بلاد المغرب، فاختار سلا، واعتقد أنه يانس فيها ويسلى بمجاورة بني القاسم الذين غدوا بدور سمائها، وصدور أسمائها.

فلمّا حلّها، انقبض عنه أبو العباس انقباضا نُعِيَ عليه اقبح نَعْي ونسب فيه إلى قلّة الوفاء والرّعي، وكان بينهما أيام وزارته مودة محمودة التواخي، مشدودة الأواخي، واشتملت إذ ذاك

158) ص 132/131، طبع بولاق.

على أبي العبَّاس مساع أدْجَت مطلعه، وحَنَتْ على الوجد أضلعه، فجذب فيها أبو محمد بضَبْعه، والقاه بين بصر العضد وسمعه، ثم قال الفتح :

فلمًا وردت مشيت إليه ونقمت عليه صدوده، وايحاشه لمن كان وَدُوده، وعرَّفته بِحُرُماته، وأوقفته على مواتِّه، فاعتذر بما يخاف من أمير المسلمين ويحذر، وكتب إليه :

وَاحَسْرَتا لِصَدِيقٍ مَّالُهُ عِوَضُ ... إنْ قُلْتَ مَنْ هُوَ لا يَلْقاكَ، مُعْتَرِضُ
أَلْقَاهُ بالنَّفْسِ لا بِالْجِسْمِ من حَذَرٍ ... لِعِلَّةٍ مَّا، رَأَيْتَ الْحُرَّ يَنْقَبِضُ

فكتب إليه أبو محمد مراجعا :

شَرُّ الْجِيَادِ إذا اجْرَيْتَ مُنْقَبِضُ ... مَا لِلْوَجِيهِ عَلَى المَيْدَانِ مُعْتَرِضُ
أَنَّى تُضَاهِيهِ فُرْسَانُ الكَلاَمِ وَمَنْ ... غُبَارُهُ في هَوَادِيهِنَّ مَا نَقَضُو
جَرَتْ عَلَى مُشْتَوٍ مِنْ طَبْعِهِ كِلَمٌ ... هي الْمَشَارِبُ لَكِنْ مَالَهَا فَرَضُ
كَأَنَّ مُنْشِدَهَا نَشْوانُ مِنْ طَرَبٍ ... أو بُلْبُلاً مِنْ سَقِيطِ الطَّلِّ يَنْتَفِضُ
تَحِيَّةٌ مِنْ أبي العَبَّاسِ زَارَ بِهَا ... طَيْفٌ مِنْ العُذْرِ في اثْنَائِهَا يَمِضُ
لاَ بِالْجَلِيِّ فَتُسْتَوْفَى حَقِيقَتُهُ ... ويُسْتَبَانُ بِعَيْنٍ مَّا بِهَا غَمَضُ
لَكِنْ أَغُضُّ عَلَيْهِ جَفْنَ ذِي مِقَةٍ ... كَمَا يَسُدُّ مَسَدَّ الجَوهَرِ العَرَضُ
يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنا أَنْ نُعَاتِبَهُ ... إلاَّ عِتَابَ مُحِبٍّ لَّيسَ يَمْتَعِضُ
نَاشَدتُكَ اللَّهَ والإنْصَافُ مَكْرُمَةٌ ... أَمَّا الوَفَاءُ بِحُسْنِ الوُدِّ مُفْتَرَضُ
هَبِ الْمَزَارَ لِمَعْنَى الرَّيْبِ مُرْتَفِعٌ ... مَا لِلْوِدادِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُنْخَفِضُ
أَمَّا لِكُلِّ نَبِيهٍ فِي العُلاَ حِيَلٌ ... تُقْضَى الحُقُوقُ بِها والْمَرْءُ مُنْقَبِضُ
كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَمِنْ دأْبِي مُحَافظةٌ ... عَلَى الذِّمَامِ وَعَهْدٌ لَّيسَ يَنْتَقِض
وهِمَّةٌ لَمْ تَضِقْ ذَرْعاً بِحَادِثَةٍ ... إنَّ الكَرِيمَ عَلَى العِلاَّتِ يَنْتَهِضُ
وَالْحُرُّ حُرٌّ وَصُنْعُ اللَّهِ مُنْتَظَرٌ ... والذِّكْرُ يَبْقَى وَعُمْرُ الْمَرْءِ يَنْقَرِضُ

وقد أخبر الفتح عن مآل هذا الوزير بعد تخلي الدولة عنه وتنكرها له بقوله :(159)

159) «القلائد» ص 127، طبع بولاق.

«وهو اليوم قد انقبض عن أنواع الناس وأجناسهم، واستوحش من إيناسهم، وأنِسَ بنتائج أفكاره، وهام بعيون العلم وأبكاره، وكلف بفنونه، وتصرف من سهوله إلى حزونه، ونبذ الدنيا نبذ النواة، وانتبذ من ملابسة الغواة، وصرف وجهه تجاه البر والتقوى، وترك رَبْعَ الحظوة عافيا قد اقوى، وعلم أنَّ اللَّه به حفى، وأنَّه له صفى، حين اعلقه باسبابه، وصرفه عن باب الملك إلى بابه...»

ومن تأمَّل جوابه لصديقه عمَّا أبداه من أسفه وحسراته، علم أنه لقَّنه درسا جامعا في حياته. وقد بقي مقيما بسلا، إلى ان أدركه أجله بها، ولم نقف على تاريخه.

قال أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «اتحاف أشراف الملا» :[160]

وَبِسَلاَ غَابَ سَنَاءُ بَدْرِهِ ... بَابُ حُسَيْنٍ ضَمَّ نورَ قَبْرِهِ

ولا نعلم محلَّه بالتعيين، والله اعلم .

هذا، ولاغرابة فيما صدر من أبي العبَّاس، فإنَّ الزَّمن كالزَّمن والنَّاس كالنَّاس، يظهرون وُدَّك، ويرعون عهدك، ويتأدبون معك، ويشتهون قربك، مادام الدهر رافعا قدرك، ناشرا ذكرك، ولاسيما إذا كنت مُتَّصفًا برياسة ولو موهومة، أوْ وظيفة ولو غير معلومة، فإذا تنكَّر لك الدهر، تنكَّروا لك، ونسوا عهدك، ونبذوا وُدَّك، وجحدوا إحسانك وفضلك، واستثقلوا ظلك، والْكَيس منهم يعاملك بالتَّقصير ولا ينبئك مثل خبير.

وأبو العبَّاس، كغيره من النَّاس، خاف من أمير المسلمين، فانكمش عن صديقه، وأمسك عن زيارته، ولو إلى حين، وإلاَّ فمقامه في الجود والكرم معروف، واعتناؤه بزُوَّاره وقُصَّاده بِألْسِنَة الشعراء والأدباء موصوف، ولكن المحافظة على حياة الرياسة الدنيوية، كالمحافظة على الحياة الروحية، ومن عدم الأولى حسًّا، عدم الثَّانية معنى، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

بعض ما قيل فيه من الأمداح

كان القاضي أبو العباس كوالده وأسرته مُمدَّحاً مقصوداً من شعراء عصره. وممن مدحه شاعر والده، أبو بكر محمد بن سوار بقوله :[161]

160) ورقة 92، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا

161) «الذخيرة» ورقة 152، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

بَعَثَتْ إِلَيْكَ مَعَ البُروقِ خَيالَهَا ... فَأراكَ شَكْلُكَ حَامِلاً أَشْكالَهَا
هَلْ يُنْكِرُ الغَيْرانُ مِنِّي وَقْفَةً ... وَقَفَتْ أَماني النُّفوسِ حِيالَهَا
في لَيْلَةٍ عَبِثَ المِحَاقُ بِبَدْرِها ... غَصْباً فَقَصَّرَ عُمْرَهُ وأطالَهَا
سَوْداءُ أَشْرَقَ نَجْمُها فَلَوَ انَّني ... أَجْرِى على فَلَكٍ لَكُنْتُ هِلالَهَا
وَلَقَدْ فَتَكْتُ بِقُرْطِهَا وبِمِرْطِهَا ... حَتَّى هَتَكْتُ حُجولَهَا وحِجَالَهَا

ومنها في المدح :

ما الخُطَّةُ الْعَلْيَاءُ زانَتْهُ بَلَى ... هُوَ زانَها حَتَّى أَتَمَّ كَمَالَهَا
وَيَشُقُّ ماءُ الْعِتْقِ صَفْحَةَ خَدِّهِ ... شَقَّ الفِرِنْدِ مِنَ السُّيوفِ صِقالَهَا
وَبِأَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ قاسِمِ بْـ ... ـنِ مُحَمَّدٍ دَرَتِ المَكارِمِ حالَها
هُوَ لَفْظَةٌ مِّنْ مَنْطِقِ الدُّنْيَا بِهَا ... فَخَرَ الزَّمانُ عَلَى بَنيهِ فَقَالَهَا
مِنْ كُلِّ مُكْتَمِلِ الوَقارِ وأَزْهَرٍ ... لَبِسُوا الشَّبِيبَةَ واكْتَسَوْا سِرْبا لَهَا
يَمْشُونَ فَوْقَ الأَرْضِ تَحْتَ حُلومِهِمْ ... فَتَخالُهُمْ أَوتادَهَا وجِبَالَهَا
لَوْلاَهُمُ لَتَحَرَّكَتْ جَنَباتُها ... مِن رَّجْفَةٍ وَلَزَلْزَلَتْ زِلْزالَهَا

وقال في مدحه أيضا :[162]

أَمَعاهِدَ المَرْجِ الذي غادَرْتُهُ ... مَغْدًى لِبَارِقَةِ المَهَى وَرَوَاحَا
وَادٍ إِذا ضَرَبَ الْهَجيرُ رِواقَهُ ... أَهْدى إِلى مُهَجِ القُلوبِ رَواحَا
إِنْ كَانَتِ الأَرواحُ مِن مَّاءٍ فَمِنْ ... ذَاكَ المَجاجِ تَكَوَّنَتْ أَرْواحَا
فَأَتَتْ تُقَبِّلُني فَقُلْتُ لَها امْسِكي ... عَنِّي فَإِنِّي لاَ أُقَارِبُ راحَا
فَمَضَتْ وَقَدْ أَخْجَلْتُها فَتَبَسَّمتْ ... فَرَأَيْتُ في أَرْضِ العَقيقِ أَقاحَا
حَتَّى إِذَا مَا الرَّوْضُ نَبَّهَهُ النَّدى ... فَتَحَتْ عُيوناً كَالْعُيونِ مِلاحَا

وتخلص للمدح فقال .

---

162) «الذخيرة»، ورقة 152، مخطوط الخزانة العامّة بالرباط.

طالَبْتُـهـا أدبـاً فَسـالَ تَوَقُّـداً   وَطَلَبْتُـهُ كَرَماً فَـذابَ سَماحَـا

وقال فيه أيضا :(163)

عَلَى طُولِ مَـا أَبْكِي تُعـاتِبُنِي عَـتْـبـا   فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَكُونُ لَهَا عُتْبا
سَرَى جَانِبٌ من جَانِبِ الْغَرْبِ خَافِقٌ   خُفـوقَ فُؤادِ الصَّبِّ قَدْ فَارَقَ الحُبَّا
فمـا قَنِعَتْ في الْحَرْبِ بِيضُ صَوارِمٍ   بأيْدِي كُمَـاةٍ يُكْثِـرونَ بِهـا الضَّـرْبا
تُكَلِّفُنِي نَظْمَ النُّجـومِ قَـلائِداً   لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتَنِي مُرْتَقىً صَعْبا
وهَبْنِي مَلَكْتُ الشَّمْسَ والْبَدْرَ في يَدٍ   وسُقْتُ إلى جَنْبَيْهِمَا الأَنْجُمَ الشُّهْبا
إذا لَمْ أُعَلِّقْـهَـا عَلَى جِيـدِ أحْـمَـدٍ   فَلاَ جِيدَ فِي الدُّنْيا يَكُونُ لَهَا حَسْبا
صَبَا بِالْغَواني مَنْ صَبا وهْو لَمْ يَزَلْ   بِبِنْتِ المَـعـالي هَائِمـاً كَلِفـاً صَبّـا
فـتىً يَهَبُ الْبِيضَ الكَواعِبَ كـالدُّمَى   وَبِيضَ الظُّبَا والسُّمْر والضُّمَّرَ الغُبَّا
لَقَـدْ وَهَبَ اللَّهُ الْجَـمَـالَ لأَحْـمَـدٍ   وشَـرَّفَ مِنْهُ الخَلْقَ والخُلُقَ الْعَـذْبا
مُـوَفَّقُ ءاراءِ القَـضَـاءِ كَـأَنَّمَـا   بَصِيرَتُهُ في الْغَيْبِ تَخْتَرِقُ الحُجْبا
إذا اكْـتَـسَبَ النَّاسُ الدَّنانيرَ عُـدَّةً   فَـأَحْمَدُ لاَ يَرْضَى بِغَيْرِ العُلا كَسْبا
كَذَاكَ مَضَتْ في السَّالِفاتِ جُدُودُهُ   كَمَا مَـرَّ كَعْبُ الرُّمْحِ مُطَّرِداً كَعْبـا

وله فيه :(164)

يَا رَاقِـداً ثَمِـلَ الْمَنَـامُ جُفونَـهُ   إنِّـي بِحُبِّـكَ سَاهِـرٌ مَـا أَرْقُـدُ
إنِّـي لا أَرْحَـمُ خَـصْرَه مِنْ رِقَّـةٍ   وأَرِقُّ لِلْغُصْـنِ الـذي يَتَـأَوَّدُ
وَغَدا يُطَمِّعُني الْوِصـالَ تَمَنِّيـاً   إني سَـأَهْلِكُ قَبْلَ أَنْ يَدْنُـو غَـدُ
وَلَبِسْتُ أثـوابَ الْمـلاحَـةِ مِـثْلَ مـا   لَبِسَ السَّمَاحَةَ والرَّجاحَةَ أَحْمَـدُ
لَوْ كَانَ خُلِّدَ فَاضِـلٌ لِفَضِيلَـةٍ   فِـيهِ لَكَـانَ عَلَى الزَّمـانِ يُخَلَّـدُ
المَـجْـدُ والشَّـرَفُ المُؤَثَّـلُ والنَّـدَى   والْجُـودُ والْعَلْيَـا لَـهُ والسُّـؤْدَدُ

163) «الذخيرة»، ورقة 152 و 153 مخطوط الخزانة العامّة بالرباط

164) «الذخيرة»، ورقة 152 و 153 مخطوط الخزانة العامّة بالرباط.

وَبَلاَغَةٌ لَــمْ أدْرِ حِيــنَ سَمِعْتُهــا ... أَفَصَــاحَــةٌ أَمْ لُؤْلُــؤٌ مُتَبَــدِّدُ
لاَ نَاطِقٌ عَـجِلُ الْكَــلامِ بِهــا وَلاَ ... مُتَــوَقِّــفٌ فِيهــا وَلاَ مُتَــرَدِّدُ
مِنْ مَعْشَرٍ طابوا مَنَاصِبَ في الْعُـلاَ ... وإذا يَطِيبُ الأصْلُ طَـابَ الْمَــوْلِـدُ

وممَّن مدحه من شعراء الأندلس الشَّاعر الوشَّاح، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هُريرة، المشهور بالأعمى التُّطيلي، ولم يرحل إليه بسلا، وإنما خاطبه من إشبيلية، لما كان مصابا به من العمى، حسبما تقدمت الإشارة إليه قبل هذا، قال :[165] وهي من أبلغ شعره.

صُــدودٌ مُلِظٌّ أوْ فِــراقٌ مُــواشِــكُ ... لَعَمْري لَقَدْ ضَاقَـتْ عَلَيَّ المَسالِــكُ
أتى دُونَ أَسْمَــاءَ العِتَــابُ ودُونَنَــا ... مَـاخِذُ أحْصَنَتْهــا النَّــوَى ومَتَــارِكُ
وَمَن لِّي بها والبِيضُ والسُّمْرُ دونَها ... وجُرْدُ المذاكي والقِلاَصُ الرَّوَاتِــكُ
وكُلُّ طويلِ الرُّمْــحِ طِــبٌّ بِحَمْلِــهِ ... إذا شـاءَ أبْكَاهُ دَمــاً وَهْوَ ضاحِــكُ
أخو عزمــاتٍ لاَّ المَهَــارَى أمامَهَــا ... نَوَاجٍ ولا الْخَيْلُ العِتَـاقُ مَسَاهِــكُ
له مُقْلَــةٌ شَوْسَــاءُ أكْثَــرُ نَوْمِهَــا ... غِرَارًا إذا نَـامَ العُــداةُ الصَّعَالِــكُ
إذا مَـرَقَـتْ بين الوَدائــقِ والدُّجَــى ... فلا حِجْـلَ إلاَّ ما تُثِيــرُ السَّنَابِــكُ
وَعَرْضُ فَلاةٍ مَّا تُعارِضُهــا النَّــوَى ... ترى الْموتَ فيها وهْوَ أعْزَلُ شـائِكُ
وجُنْــحُ ظَــلامٍ لو تُثَــارُ عَجاجَــةٌ ... لَما لَمَعَتْ فيها السُّيوفُ البواتِــكُ
دُجًى لَّوْ سَرتْ فيها الشَّياطِينُ تَرْتَقِي ... إلى السِّرِّ لم تَخلُص إلَيْهـا النَّيَــازِكُ
خليليَّ هَلْ في أدْمُعي وانْحِـدارِهــا ... جَــلاَءٌ لِّعَيْــنٍ دَمْعُهَــا مُتَمَاسِــكُ
ولي سَكَــنٌ يَنْــأى وَيَدْنُــو وحُبُّــهُ ... بِصَبْرَى مُــودٍ أو لِسِــرِّيَ هَاتِــكُ
سَلِ الخيلَ هل جَشَّمتُها كُلَّ غَايَةٍ ... يَهُــونُ عليها شَــدُّهَا المُتَــدَارِكُ
وَهَـلْ عرفَتْنــي رُبَّمَا بِـتُّ مُغْرمــاً ... تُــدافِعُــهُ أكْفـالُهــا والحَــوَارِكُ
ومــا نَكَــرتْ إلا التَّفانــي بالقَنــى ... وقد شَرِقَـتْ بالمَعْلَمِـين المَعَــارِكُ
وإلاَّ اخْتِيــالي في ذُرَى صَهَوَاتِهــا ... وقد نَظَرَتْ شَــزْراً إلَيَّ المَهَــالِــكُ

---

165) «ديوان الأعمى التطيلي»، ص 89 وما بعدها، طبع دار الثقافة ببيروت

أيا رَحْمتَا للشِّعْـرِ أقْـوَتْ رُبوعُـهُ   علـي أنَّهـا للمَكْرُمـاتِ مَنَاسِـكُ
وللشُّعراء اليوم ثُلَّـتْ عروشُـهُـم   فلا الفَخْرُ مُخْتالٌ ولا العِزُّ تامِـكُ
إذا ابْتَدَرَ النَّاسُ الحُظوظَ وأشْرَقَتْ   مَطالبُ قَومٍ وهْـيَ سـودٌ حـوالِـكُ
رَأَيْتَهُـمُ لَوْ كـان عِنْـدكَ مُدفَـعُ   كمـا كَسَدَتْ خَلْفَ الرِّئالِ التَّرائِـكُ
فَيا دَوْلَةَ الضَّيْمِ اجْمِلي أوْ تَجامَلِـي   فقد أصْبَحَتْ تِلْكَ العُرى والعَرائكُ
وَيَا «قام زيد» أعْرِضِي أو تَعارَضِـي   فقد حَالَ مِنْ دونِ المُنى «قال مالكُ»
سَمَتْ «بأبي العبَّاسِ» تِلْـكَ وهَـذهِ   إلى حَيْثُ لا تَسْمو النُّجومُ السَّوامِكُ
رَحيبُ مَجَالِ الْفِكْـرِ والأمْرُ ضَيِّـقٌ   صَليبُ قَناةِ الصَّبْرِ والأمْرُ ناهِـكُ
ومُشْتَرِكُ الأكْفاءِ في السُّخْطِ والرِّضى   وَلَيْسَ لـه في المَكْرُمَاتِ مُشَـارِكُ
بقاضي قُضَاةِ الغَرْبِ وابْنِ قُضَاتِـهِ   تَـوَدَّدَت الآمالُ وهْـيَ فَـوارِكُ
فَتًى لَم يكُنْ يومـاً لِيَنْـآهُ مَطْلَـبٌ   وَلَـوْ أنَّه في مَسْلَـكِ البَحْرِ سالِـكُ
يُطِـلُّ على الأعْـداءِ من كُلِّ جانِـبٍ   وقـد أفكَتْ عنـه الخُطُوبُ الأوافِـكُ
إزاءَ الْعَوالي وَهْـوَ جَـذْلانُ باسِـمٌ   ودون المَعالي وَهْوَ شَيْحَـانُ فاتِـكُ
حَـرِيٌّ بِـأنْ لاَ يَعْـدُوَ الحَقَّ وجْهُـهُ   لَدَيْـهِ وقد زاغ الألَـدُّ المُمَاحِـك
وأنْ تَعْـرِفَ الأقْـوامُ سَـوْرَةَ عَـدْلِهِ   كمـا احْتَمَلَـتْ نارَ القيونِ السَّبائـك
وأنْ يَتَوَقَّى الضَّيْـمُ جَانِـبَ جَـارِهِ   كما يَتَوَقَّـى الْبَعْلَ عَـذْراءُ عـارِكُ
نَضَاهُ أمير المؤمنيـن[166] مُهَنَّـدًا   لكـلِّ دمٍ منـه وإن عَـزَّ سافِـكُ
وَتَاهَـتْ بـه الأيَّـامِ عِلْقَ مَضِنَّـةٍ   تنـازَعَـهُ أمْـلاَكُـهُ والمَمـالِـكُ
إذا الْتَقَـتِ النَّـارُ الفـرَاشَ تألَّقَـتْ   أياديـهِ فالتفَّـتْ عليهـا الهَوالِـكُ
إذا سَمِعَتْ أُذْنـاهُ حَيَّ على العُـلا   فلا الجودُ مَتْـروكٌ ولا الْبَاسَ تَـارِكُ
وإن عَلِقَتْ كفَّـاه حَبْـلَ سِيَـادَةٍ   فَلَلَّـهِ مَسْمُـوكٌ به المَجْدُ سامِـكُ
وإن أسْعَرَتْ عَيْنـاهُ وَجْـهَ صَنِيعَـةٍ   رأيتَ عُيونَ الأُسْدِ وهْيَ مَضَاحِـكُ

166) كذا بالأصل. والمعروف أن سلاطين المرابطين كانوا يتلقبون بأمراء المسلمين أدباً مع خلفاء بني العباس

ألكْنِي إليه في السَّلامِ وبَيْنَنا | مَخَارِمُ لا تَسْمو إليها المَهالِكُ
بآيةِ ما يَكْفي المُلِمُّ ورُبَّما | وَنَتْ فيه أخْلافُ السَّحابِ الحَواشِكُ
أجِدَّكَ لم توقظكَ والنَّجْمُ هاجِعٌ | هَواتِفُ لِلُّبِّ الأصيلِ هَواتِكُ
دَعَتْ فأشَاعَتْ بَثَّها وسُرورَها | وانضاهُ هَمِّي والدَّياجي بَوارِكُ
بناتُ الْهَوَى تُمليهِ أو تَسْتَمِلُّهُ | لها الشَّجْوُ مِنِّي والأراكُ أرائِكُ
يَلُكْنَ حديثاً رُبَّما افْصَحَتْ بِهِ | هَنَاتٌ لِحَبَّاتِ الْقُلوبِ هَواتِكُ
وأحْسبُها غنَّتْ بِذِكْرِكَ موهِناً | وأيدي الْمَطايا بالرِّحالِ بَواشِكُ
لِذاكَ جَلاها مِنْ سَنا الصُّبْحِ شارِقٌ | وصَاكَ بِها من مِسْكِ دارِينَ صائِكُ
وراقَتْ رُباها كُلَّ حُسْنٍ كأنَّما | تُنَشَّرُ فيما بَيْنَهُنَّ الدَّرانِكُ
فَفي كُلِّ بَطْنٍ مَشْرَعٌ مُتَلاحِنٌ | وَفي كُلِّ ظَهْرٍ مَرْتَعٌ مُتَلاحِكُ
إِلَيْكَ أبا العبَّاسِ غُرٌّ مدائحي | تُصَلِّي عَلَيْهِنَّ العُلا وتُبارِكُ
إِلَيْكَ ورَيْعَانُ الرَّجاءِ يَؤُمُّها | وقِدْماً رَجَتْها البائِسَاتُ الضَّرائِكُ
قلائدَ أعناقٍ وأزْهارَ أعْيُنٍ | ومِنْهُنَّ في بَعْضِ الصُّدورِ حَسَائِكُ
فَحِكْ لِيَ مِنْ نُعماكَ بُرْداً أجُرُّهُ | فَإِنِّي لأبْرادِ المدائحِ حَائِكُ
بَنِي قاسِمٍ قد زِنْتُمُ الدَّهْرَ كُلَّهُ | كما زَانَتِ الصَّدْرَ الثُّدِيُّ الفَوالِكُ
رَفَعْتُمْ لأهْلِ الغَرْبِ أعْلامَ دينِهِم | فأبْصَرَ مافوكُ وأقْصَرَ آفِكُ
فَقُلْ لِسلا شُحِّي على ءالِ قاسِمٍ | ولا تَسْلِي بغدادَ أيْنَ البرامِكُ
إذا الدِّيمُ الوُطْفُ انْتَحَتْكَ فلا تُبَلْ | وقد عَرَّجَتْ عنك الذِّهابُ الرَّكائِكُ

وله فيه هذا الموشح ، وقيل إنه لابن بقى :[167]

أعْيا على العُوَّدْ | رهينُ بَلْبالْ | مُـــوَرَّقْ
أذلَّهُ الحُبُّ | لا يُنْكِرُ الذِّلَّةْ | مَنْ يَعْشَقْ
مَنْ لِّي بِهِ يَرْنو | بِمُقْلَتَيْ ساحِرْ | إلى العِبادْ

167) «ديوان الأعمى التطيلي» ص 270 وما بعدها، طبع دار الثقافة ببيروت.

ينأى به الحُسْنُ فَيَنْثَنِي نَافِرْ صَعْبَ القِيادْ
وتارة يَدْنو كما احْتَسى الطائِرْ ماءَ الثَّمَادْ
فجيدُه أغْيَدْ والخَدُّ بالخَالْ مُنَمَّقْ
تكْنُفُهُ الحُجْبُ فَلِي إلي الكِلَّةْ تَشَوُّقْ
عَطَا بِلَيْتِهِ ومرٌّ كالظَّبْي لِبِيدِهْ
فَدَلَّ عليه تكسُّرُ الحَلْي بِجِيدِهْ
تَفْتيرُ عيْنَيْهِ يُسْرع في بَرْيِ عَمِيدِهْ
فإنْ أكُنْ أُقْصَدْ هل منه فأوْلى لي إذ يَرْمُقْ
هَلْ يَسْلَمُ القَلْبُ وأسْهُمُ المُقْلَةْ لا ترفُقْ ؟
وددتُّ مِنْ خِلِّي ومثْلُ نشْرِ الكَاسْ في شَعْرِهْ
لَوْ جادَ بالوصْلِ جودَ أبي العبَّاس بوفْرِهْ
في الجُودِ والنُّبلِ وقُلْ أجَلُّ الناسْ في قَدْرِهْ
يا كعبةَ السُّؤْدَدْ حتَّى على المالْ لا تُشْفِقْ
فَمِثْلُكَ النَّدْبُ يسابِق الجِلَّةْ فيَسْبِقْ
ياأيها الحائمْ هَلْ لَكَ في عذْبِ مَلْءِ الدِّلا
يَمِّمْ بني القاسمْ واقْصِد من الغربِ إلَى سَلا
واسْتَمْطِ رَواسِمْ تُخَادُ بالرُّكْبِ وَسْطَ الفَلا
سفائناً تَجْهَدْ في أبْحُرِ الآلْ ما تَغْرَقْ
يَسْتَبْشِرُ الرَّكْبُ وتَشْتكي الرِّحْلَةْ الأيْنُقْ
أدْعُوهُ بالقاضي وأمْرُه يَقْضِي عَلِيَّ لِي
أنا بِهِ راضي لأنَّه يُرْضِي لأمَلِي
قل غيْرَ مُعْتَاضِ بِمَنْ علَى الأرْضِ مِنْهُ مُلِي
أما تَرى أحمدْ في مَجْدِهِ العالي لا يُلْحَقْ
أطْلَعَهُ الغَرْبُ فَأرِنَا مثْلَهْ يامَشْرِقْ

وفيه يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصَّبَّاغ الجُذامي في موشحته كما في «أزهار الرياض»[168] وذكرها بتمامها، واقتصر على البيتين الأخيرين في «نفح الطيب»[169] وكلاهما لأبي العباس المقَّري، ونسبهما لابن بقي، ولعله ضمنهما فقط.

رُسُومُ ظاهِرِ الْبِلَى   بِكُل رَسْم طَاسِمْ عُنْوانْ
ورَبْعُهم مُّا أشكلا   منها لِكُلِّ حازم تِبْيانْ
قِفْ بالدِّيارِ واعْتَبِرْ   إنْ كنتَ من أهْلِ العِبَرْ
وانْظرْ لها وازْدَجِرْ   فإنَّ فيها الأجَرْ
كم مُّعْلَمٍ قد دُثِّرْ   فَلَمْ يَبِنْ مِنْهُ أَثَرْ
تبكيه وُرْقُ الفَلا   وفي بُكا الْحَمَامِ أشْجانْ
فلنَنْتَدِبْ إلى الطِّلاَ   فَفي فُؤادِ الْهائِمْ أحزانْ
سَماعاً مِّنَ الوجودْ   عَنْهُ تَفَاهَمَ العُقولْ
فَغَيْبَةٌ وشُهُودْ   كِلاَهُما عَيْنُ الدَّلِيلْ
حتَّى متى يا مُريدْ   تَخْتالُ في ثَوْبِ الخُمولْ
تَشْكُو لَنَا العِلَلاَ   وأنْتَ بالمنائمْ جَذْلاَنْ
فلُذْ بِعِزِّ العُلاَ   فَعِنْدَنا للنَّادِمْ إحْسانْ
فَنَاءُ أهلِ الطَّرِيقْ   هُوَ الوُجودُ المُطْلَقْ
فكُلُّ معنًى دَقِيقْ   بِوَصْفِهِمْ يُحَقَّقْ
أَنْوارُهُمْ في شَرِيقْ   بها اسْتَضَا المُوَفَّقْ
قَدْ أَوْضَحوا السُّبُلاَ   فَهُمْ لَنَا في العَالَمْ بُرْهانْ
فاجْنَحْ إليْهِمْ ولاَ   تَقْبَلْ لِلْمواسِمِ إبَّانْ
يا ناسِياً لِوصْلِنا   أيْقِظْ من النَّوم الجُفونْ
سَلِّمْ إلينا فِعلَنا   ما كان مِنْهُ أَوْ يَكونْ

---

168) ص 233 من ج 2.

169) ص 996 من القسم 1، طبع بولاق.

لاَ حَـــوْلَ إلاَّ حـــولنـــا   فـــانْفِ الشُكُوكَ والظُّنـــونْ
يـا غـــادراً قَـــدْ ســـلا   أقْـصِـرْ فَلَيْسَ يَجْمُلُ سلْـــوَانْ
لِلَّــــهِ مـــا أجْـــمـــلا   منْ بات وهُوَ بِالْهـوى نَشْـوَانْ
يـا طـالبـــاً للنَّـــــدَى   يَبْغِي السَّمـاحـــةَ والنَّـــوَالْ
يَمِّمْ فُــــدِيـتَ أحْـــمَـــدا   بَدْرَ العُـلا شَـمْـــسَ الكَمَـــالْ
وَعَـــدً عـــمَّـــنْ شَـــدَا   واسـتـغـرقَ المـدحَ وقَـــالْ :

البيتان مضمنان من توشيح الأعمى التطيلي في مدح يوسف، كما سياتي في ترجمته :

إنْ جِـــــئْتَ أرضَ ســـلا   تَلْقـاكَ بالمكـــارِمِ فِـتْـيـــانْ
هُـمْ سُـطُـورُ الـعُــــلا   ويُوسف بن القـــاسِمِ عُنْـــوانْ

ومن مشاهير شعراء الأندلس الذين مدحوه ومدحوا أسرته، الشاعر الوشَّاح أبو بكر يحيى بن بقي.

وقد كان كما حلاه الفتح في «قلائده»[170] رافع راية القريض وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعه وأظهر روائعه، وصار عَصِيُّه طائعه، إذا نظم أزري بنظم العقود، وأتى بأحسن من رقم البرود، وطغى عليه حرمانه، فما صفا له زمانه...

ولكنه لمَّا اتَّصل ببني عشَرة بسلا هلَّ هلاله، واطمأنَّ باله، وصلح حاله، وزال إقْلاَلُه، وأمِنَ سرْبه وعياله، على يد مجيره من الزمان، ومنقذه من الحرمان، ابي زكرياء يحيى منهم، كما سياتي التنبيه عليه في ترجمته.

وجاء في كتاب «أخبار وتراجم أندلسية» مستخرجه من «معجم السفر» للحافظ السلفي :[171] انه سَرَقُسْطَيُّ النسب، إشْبيليُّ الأدب، سلويُّ النّشب، واديشِيُّ العطب، يعني أن أصله من سرقسطة، وتأدَّب باشبيلية واكتسب المال بمدينة سلا من العدوة، وتوفي بوادي ءَاش، من مدن الأندلس.

170) ص 279.
171) ص 151.

ومما مدح به القاضي أبا العباس ابن عشرة قوله من قصيدة :[172]

ونوبةٍ مِّنْ صَهيلِ الخَيْلِ يَسْمَعُهَا ... بالرَّمْل أطيبُ أَلْحَاناً من الرَّمَلِ

لا يَنْفُذُ العزمَ إلاَّ أن يُنَفِّدَهُ ... والسَّيْفُ يَكْهَمُ إلاَّ في يَدِ بَطَلِ

ياكوكباً يَغْرِقُ العافونَ في دُفَعٍ ... منه وتَحْتَرِقُ الأعداء في شُعَلِ

تَهْويمةٌ في بِساطِ البِيد يَهْجَعُها ... أشهى إِلَيْهِ مِنَ التَّهْويم في الكِلَلِ

لاَ يَدْرِكُ النَّاسُ لَوْ رَامُوا وَلَوْ جَهِدُوا ... بِالرَّيْثِ بعضَ الذي أدْرَكْتَ بالعَجَلِ

ومما مدحه به أيضا هذه القصيدة :[173]

أَمُصْطَبِرٌ أَنْتَ إن قَوَّضُوا ... وأمُّوا المَصِيفَ من المرْبَعِ

سَتَجْزَعُ إنْ سِرْتَ في رَكْبِهِمْ ... وإن لاَّ تَسِرْ فِيهِمُ تَجزَعِ

تَخَيَّرْ لِنَفْسِكَ في حالَتَيْـ ... ـنِ فَأمْضِ بإحْدَاهُمَا واصْدَعِ

فإمَّا على نِيَّةٍ فاعتَزِمْ ... وإمَّا على ظَلَعٍ فارْبَعِ

قَدِ ابْتَكَرُوا واسْتَقَلَّتْ بِهِمْ ... قَلاَئِصُ مَشْدُودَةُ الانْسُعِ

فَسَارُوا إلى عَقَراتِ اللِّوَى ... إلى السَّمُراتِ إلى لَعْلَعِ

فأعْلاَمِ نَجْدٍ فوادي القُرى ... فَبَطْنِ تِهامةَ فالأجْرَعِ

فَمَهْلاً عَلَيْنا فإنَّا على ... أسىً مُّولِمٍ وهوًى مُّصْرِعِ

نُشَيِّعُكُمْ، ولَعَلَّ العنا ... ءَ لِلصَّبِّ نظرةُ مُستَمتِعِ

وَلَوْ كَبِدٌ عُذِّبَتْ بالضَّنَى ... لَذَابَتْ كَذا الوَرْق لَمْ تَسْجَعِ

وَجَدْنا بِكُمْ وعلى بَيْنِكُمْ ... وَمِنْ أَجْلِكُمْ فَوْقَ ما ندَّعِي

وأوْحَشَنَا رَبْعُكُمْ إذْ عَفا ... فَيَا لَهْفَ نفسي عَلَى الأرْبُعِ

تَبَدَّلَ من بَعْدِكُمْ شُرَّدًا ... وقد كان آنِسَةَ الرُّتَّعِ

فَلَيْتَ الأحِبَّةَ لم تحتمِلْ ... وَلَيْتَ الرَّكَائِبَ لَمْ توضَعِ

---

172) «القلائد» ص 283، طبع بولاق.

173) «القلائد» مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ورقة 261، وهذه القصيدة غير مَوْجُودَة في النسخة المطبوعة ببولاق

أجَلْ، والذي جَعَلَ النَّيِّرَاتِ هَوَادِيَ في الحِنْدِسِ الاسْفَعِ
سَتُوضِعُهُنَّ إلى أحمدٍ على كُلِّ دُوِيَّةٍ بَلْقَعِ
وإلاَّ فأشْباهُها المنشآتُ على زاخِرٍ أخْضَرَ المَدْرَعِ
تَرى المَوْجَ مُصْطَفِقاً فوقَهُ يُخيفُ بِمِرْجلِهِ المُفْزِعِ
أُجَاجٌ يَعَافُ الورى شُرْبَهُ على شَطِّهِ طَيِّبُ المشْرَعِ
أبابْنِ عَليٍّ يُقَاسُ الحَيا وإن لَمْ يَضِنَّ ولم يَمْنَعِ
وَهَذي سَحابُ الحَيا أقْلَعَتْ وسُحْبُ عَطاياهُ لم تُقْلِعِ
دَعاهُ الأنامُ لِدَفْعِ الخُطُوبْ فلم يَتَبَلَّدْ ولم يَخْشَعِ
فَقَصَّرَ من خَطْوِهَا المُسْتَطِيلْ وسَكَّنَ من ريحِها الزَّعْزَعِ
وعَفَّى على رَسْمِ جَدْرٍ أتى عَلى عَهْدِ مَدْيَنَ أو تُبَّعِ
وأحْيا بأحْكامِهِ سِيرةً من العُمَرَيْنِ على مَهْيَعِ
بِمَنْ يَشْرُفُ المَدْحُ إلاَّ بِهِ فتًى أرْوَعاً أيَّما أرْوَعِ
فَلاَ بالشَّحِيحِ ولا بالشَّحَاحْ وَلاَ بالهَبِيتِ ولا اليَلْمَعِ
ولا بالأسُوفِ على فائِتٍ ولا بالمُسِفِّ إلى مَطْمَعِ
فَمُذْ طَلَبَ المجدَ لَمْ يَتَّئِدْ ومُذْ لَبِسَ الْحَمْدَ لَمْ يَخْلَعِ

وفي أبي العباس ابن عشرة، يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «اتحاف اشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا»[174].

مِنْهُمْ أبو العبَّاسِ ابْنُ عَشْرَةْ قاضي سلا مِنْ بَيْتِ قَوْمٍ بَرَرَةْ
وهُمْ بنو القاسم أهْلُ أدَبِ ذووا وزارةٍ وأهلِ حَسَبِ[175]
كان فقيهاً شاعراً أديبَا مُسْتَجْمِعاً مِنَ العُلا نصيبَا
أضْحَى بهذا الثَّغْرِ بَدْراً زاهرا أيامَ كانَ العِزُّ غُصْناً مُثْمِرا

174) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا ورقة 54.

175) لا نعلم أن بني عشَرة كانوا وزراء، وإنما كانوا قضاة ذوي شرف ورياسة.

وقَـصَـدَتْ رُبُوعَـهُ الطُّـلاَّبُ ونَفِـقَـتْ بِسُـوقِـهِ الآدابُ
تَرْجَـمَـهُ الضَّـبِّي لَـدَى بُغْـيَـتِـهِ والفَـتْحُ أجْـرى الذِّكْـرَ في زُمْـرَتِهِ
وكَـان صَـدْراً سَـادِسَ المِـئِـيـنَ أيَّامَ دَوْلَـةِ المـرابِطِيـنَ
ثُمَّ قَـضَى بِهَـا فَـجَلَّ أثَـرَا وصـار من بَعْدِ العِيَـانِ خَبَـرَا

وفاة القاضي أبي العباس ابن عشَرة

لم يحفظ لنا التاريخ وفاة القاضي أبي العباس ابن عشرة بالضبط، والذي نعلمه أنه كان حيّا سنة خمس عشرة وخمسمائة (1121/515-1122)، لمّا مرَّ به المهدي بن تومرت وعبد المومن بن علي، ونزلا عنده. والصحيح أنه لم يدرك دولة عبد المومن، لأن الفتح، لما ذكره في «القلائد» في ترجمة الشاعر أبي بكر يحيى بن بقي، ترحَّم عليه[176]. ولا يخفى أن الفتح نقل في تعيين تاريخ قتله عدة أقوال، ما بين سنة تسع وعشرين وخمسمائة (1135/529) وسنة خمس وثلاثين وخمسمائة (1140/535)، وعبد المومن احتلَّ سلا المرة الأولى سنة أربعين وخمسمائة (1145/540). وعليه، فان أبا العباس ابن عشرة توفي ما بين التاريخين.

وقد ذكر ابن بَسَّام في ترجمة الشاعر ابن سوار، قطعة شعرية، رثى بها قاضيين من بني عشرة، ولم يعينهما. والظاهر أنه رثى بها أبا العبَّاس عند وفاته، وأشرك معه والده القاضي أبا الحسن على سبيل الذكرى والتفجُّع، وإن كان تقدَّم رثاؤه له، كما يُتلمَّح منها في قوله :

هذا شُرَيحٌ في القضاء وذا علي[177]

والله أعلم. ونصها :

الصَّبـر أجْـمَلُ عند كُلِّ مُلِمَّـةٍ لَكِنْ عَلَى فَـقْـدَيْهِـمـا لم يَجْـمُـلِ
قَـمَـرَانِ غُـيـبـا بالكُسـوفِ سَنَاهُما لا تَخْـسِـفُ الأقْـمَـارُ إنْ لَّمْ تَكْمُلِ
من قـاضِـيَـيْنِ مُـوَفَّـقَـيْنِ كـأنَّمـا هـذا شُـرَيْحٌ في القَـضَـاءِ وذَا علي

176) ص 283، طبع بولاق.

177) «الذخيرة» ورقة 152 مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

بَبقِيَّةٍ من صِحَّةٍ وسَجِيَّةٍ   من رَوْضَةٍ وسَكينةٍ مِنْ يَذْبُلِ
ورزانةٍ مِّنْ حِكْمَةٍ وقَضِيَّةٍ   مِّن فِّطْنةٍ وبَديهَةٍ مِّنْ مُّنْصُلِ

القاضي أبو علي الحسن (أو حسُّون)
ابن علي ابن عشَرة السلاوي

هو أحد أفراد الأسرة العشرية السلاوية، الموصوفين بالقضاء. وليس لدينا من أخباره إلا ماذكره ابن البيدق عرضا في كتابه «أخبار المهدي»[178]، من أن المهدي وعبد المومن، ومن كان معهما، لمّا وصلوا إلى مكناسة آتين من فاس، نزلوا بالسوق القديم، بمسجد بني تميم عند الحسن ابن عشرة، وكان الطلبة ياتونه لأخذ العلم عنه...

ثم ذكر :[179] انهم لمَّا وصلوا إلى سلا، ونزلوا عند قاضيها أبي العباس ابن عشرة المتقدم الذكر، كان ياتيه أفراد ياخذون عنه العلم، ومنهم القاضي حسّون ابن عشرة...

فهل هو حسن المتقدم الذكر ؟ وقد وصفه هنا بالقاضي، ولم يفصح عن محل ولايته. والظاهر أنها كانت بغير مكناسة، إذ لو كان قاضيا بها لحلاّه بهذا الوصف من أول مرة.

ويقي أمر آخر، وهو كيف تركه بمكناسة، ووجده أمامه بسلا، فهل تقدمه، أو جاء معه أو لحق به ؟؟؟ أمر مسكوت عنه.

وهل حسّون هذا، هو حسن الذي كان بمكناسة ؟ الغالب على الظن انه هو، لأنٍ المغاربة شاع بينهم تغيير بعض الأعلام إلى هذه الصيغة. فيقولون مثلا : في حسن حسُّون، وفي محمد حمود، وفي عيّاش عيُّوش، وهلم جرّا.

وعلى كل حال، فهو أحد الأفراد الذين وُصفوا بخطة القضاء من هذه الأسرة العشرية.

ويظهر أنه كان من وجوهها البارزين فيها، ومن أهل العلم والفضل من رجالها، وإِنْ كانت أخباره غامضة لم يصلنا شيء من تفاصيلها، ولا نعرف تاريخ وفاته ولا محلها، وإنما نعلم انه كان حيّاً سنة خمس عشرة وخمسمائة (1121/515-1122)، واجتمع بالمهدي وأخذ عنه.

---

178) ص 66.

179) ص 67.

أبو زكريا يحيى بن علي ابن عشَرة السلاوي

أبو زكريا يحيى هذا، ثالث الأخوة أبناء الحسن ابن عشرة الذين سادوا واشتهروا، وكانوا بسلا بُدورَ سمائها، وصُدورَ أسمائها. وقد حلاَّه ياقوت في «معجم الأدباء»[180] بالإمارة، ولا نعرف ماهي هذه الإمارة التي كان متَّصفاً بها، لأنه لم يصلنا من تفاصيل أخباره، إلاَّ ما وصفه به الأدباء والشعراء في أشعارهم وموشحاتهم، من الفضل والنُّبل والنَّباهة، لأنه كان كوالده وإخوته جوادا فيّاضا معْطاء وهَّابا للشعراء، فانْحلَّت عُقَدُ ألسنتهم، وتدفَّقت بلاغتهم بمدحه ومدح أسرته بالشعر الخالد، المُسجِّل للمفاخر والمحامد.

وممَّن مدحه وأشاد بفضله ونبله، الشاعر الأندلسي أبو بكر يحيى بن عبد الرحمان بن بقي القرطبي المتقدم الذكر في ترجمة أخيه القاضي أبي العباس، وكان مَقْلوكاً، فاجتباه واصطفاه، وأسدى إليه من المعروف ما أسدى، وصيَّر نحسه سعدا.

قال ابن خلكان،[181] نقلا عن «المطمح الكبير» للفتح ابن خاقان :

«كان ابن بقى نبيلا في النَّثر والنَّظْم، كثير الارتباط في سلكه والانتظام، إلى أبعد أمد، وبنى من المعارف على أثبت عمد، إلاَّ أنَّ الأيام حرمته، وقطعت حبل رعايته وصرمته، ولم تُتِمَّ له وطراً، ولم تُسْجِمْ عليه من الحظوة مطراً، ولا نولته من الحرمة نصيبا، ولا أنزلته مرعىً خصيبا، فصار راكب صهوات، وقاطع فلوات، لا يستقر يوما، ولا يستحسن قوما، مع توهم لا يظفره بأمان، وتَقلُّبِ ذِهْنٍ كواهي الجمان، إلاَّ أنَّ يحيى بن علي بن القاسم، نزعه عن ذلك الطيْش، وأقطعه جانبا من العيْش، وأرقاه إلى سمائه، وسقاه صَيِّبَ نعمائه، وفيأه ظلاله، وبوّأه أثرا لنعمة تجوس خلاله، فصرف إليه أقواله، وشرَّف بنو أمية نواله، وأفرده منها بأنفس در، وقلَّد لبَّته بقصائد غر...»

وقد عبَّر ياقوت في «معجم الأدباء» عن حالة هذا الشاعر، مع هذا الأمير العشري بقوله :[182]

---

180) ص 21 من ج 20.

181) ص 249 ج 5.

182) ص 21 ج 20.

«كان حرب زمانه، حبست حرفة الأدب عليه براعته من رزقه، فحكمت بإقلاله وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب، ووقف في البلاد على كل باب، فلم يستقرّ به النَّوى، حتى اتَّصل بالامير يحيى بن علي بن القاسم بسلا، فتفيَّأ ظلاله، وحطَّ في رحابه رحاله...»

ومن أمداحه فيه قوله من قصيدة طويلة :(183)

نُوران لَيْسا يُحْجَبانِ عَنِ الْوَرَى ... كَرَمُ الطِّباعِ ولاَ جَمالُ الْمَنْظَرِ

وَكِلاهُما جُمِعَا لِيَحْيى فَلْيَدَعْ ... كِتْمَانَ نورِ عَلائِهِ الْمُتَشَهِّرِ

في كُلِّ أُفْقٍ مِّنْ جَميلِ ثَنائِهِ ... عَرْفُ يَزِيدُ على دُخانِ المِجْمَرِ

زِدْ في شَمائِلِهِ وَزِدْ في جودِهِ ... بَيْنَ الحَديقَةِ والْغَمامِ المُمْطِرِ

نَدْبُ عَلَيْهِ مِنْ الوَقارِ سَكينَةُ ... فيها حَفيظَةُ كُلِّ لَيْثٍ مُخْدِرِ

مِثْلَ الحُسامِ إذا انْطَوَى في غِمْدِهِ ... أَلْقَى المَهابَةَ في نُفوسِ الحُضَّرِ

أَرْبى علي الْبَحْرِ الخِضَمِّ لأنَّهُ ... في كُلِّ كَفٍّ مِنْهُ خَمْسَةُ أَبْحُرِ

أَقْبَلْتُ مُرْتاداً لِجودِكَ إنَّهُ ... صَوْبُ الْغَمامَةِ بَلْ زُلالُ الْكَوْثَرِ

وَرَأَيْتُ وَجْهَ النجْحِ عِنْدَكَ أبْيَضاً ... فَركِبْتُ نَحْوَكَ كُلَّ لُجٍّ أخْضَرِ

تَجْري إلَيْكَ بِنا سَفائِنُ أتْلَعٍ ... مِثْلَ الْبَعيرِ مُخَزَّمٍ في الْمِنْخَرِ

وَبَناتِ أعْوَجَ قَدْ بَرَمْنَ بِصُحْبَتي ... مِمَّا قَطَعْنَ من اليَبابِ المُقْفِرِ

ومن موشحاته فيه قوله :(184)

أشْكوا وأنْتَ تَعْلَمُ حالي ... أَلَيْسَ ذَا عَيْنُ المُحالِ والضَّلالِ

لاَ والذي أمَاتَ وأحْيَا
مَا راقَ نَاظِري غَيْر يَحْيى
بِشِيمَةٍ لَهُ ومَحْيَا

فَلْيَهْنِه ولْيَهْنِ المَعالي ... مَا حازَ مِنْ عَظيم جَمال وجَلال

---

183) ابن خلكان، ص 249، ج 5.
184) دار الطراز، ص 76.

ارتـاب فــي الـكـريـم الـعـلــي
حـــــــتَّى أراكَ يا بْـنَ علـي
وقــــــــد حَلَلْتَ وَسْطَ النَّدى

كَالْبَدْرِ طالعاً في كَمالْ كَالْبَحْر زاخراً في احْتِفالْ مـــن نـــوالْ

وفي مدحه يقول الشاعر الوشّاح المشهور، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، المعـروف بالأعمى التطيلـي :[185]

صَبَرْتُ والصَّبْر شيمةُ العَانِي ولم أقُلْ لِمُطيــلِ هِجْرانـــي أَلَيْــس كـفـانـــي

هلْ كـان غَيْـري يَعْتَزُّ بالذِّلَّــة عشقته ينتمـــي إلى الحِلَّـــة
مـلالة النَّاس عنـــــده ملَّـــة لَمْ يَحْصُر الشِّعر وصـفَه كلُّـهْ

في كـــلِّ يومٍ أراه في شـانِ أمـاتني هَجْـره وأحْـيـانــي بأشْنَبٍ سـقـانـــي

شـهـادتي أن أمــوتَ عليْـــه لمَّا جنى الوردَ مِـلْءَ كفَّيْـــه
تشـوَّفــتْ وردتـــان إليْـــهِ فحلَّتا في ريــــاض خدَّيْــه

وأسكرتْـه مُـدام أجفانــي فمَرَّ بي صاحيـا كنشـــوانِ في رَبْرَبِ غِـــــزْلانِ

هذا زمـان الرَّبيـع يايحيـــى فـاسْقني من يَمينـكَ العُلْيَـــا
مُدامـةٌ ملَّكَتْنــــي الدُّنيـــا أمَا تَرى الأرضَ ألْبِسَتْ وَشْـيَا

والزَّهـر في فضـة وعقيـــانْ والمـاء يحكي انْسِياب ثُعبانْ في مِـذْنَبِ بسـتـانْ

ياكَـوْكَـبـاً لاحَ مِنْ بني القـاسمْ أهْلاً وَسَـهْلاً بسَـعْـدِكَ الدائـمْ
أمَّا الأيادي فمـــا أنا قـائـــمْ بشُكْـرِها ناثــراً ولا ناظـــمْ

أنْسَيْتَنِي مَعْشَـري وأوْطانِـي وجُدتَ مـحْلي بِكُـلِّ هَتَّــانِ مُنْسَكِبــاً أرْوَانِـي

185) «ديوان الأعمى التطيلي»، ص 269.

بمِـثْلِ مـا دانـَـتِ الْمَـهَا دِنْهَـــا   انْهَى رسـول الفتاة مـا انْهَـــى
وقـد بَلَـغْـتَ حَـفـيظـــة منْهـــا   فـأصْبَحَ الشَّوْقُ مُنْشـدًا عَنْهـا :
لابُدْ نَحْضُرْ من حيث يراني   لعَـلَّه بالسَّـلامْ يَبْدانــي   حـبيـبٍ يَكْفـانـي

وله فيه موشح، آخر يقول فيه :(186)

مـــا لِلْفُـــؤاد مـــالـهْ   لم يَثْنِه هَوْلُ الصُّـــدودْ
عَـنْ رَشـــا أحـــــورْ   لَمَّـــا رأي ذُلَّ العبيـــدْ   تَاهَ واسْـــتَكْبَـرْ
أسـاءَ بي صَنيـــعَـــا   ومـــا عَـرَفْــتُ ذَنْبِـــي
ولَمْ أجِـدْ شَـفـيـعَـا   إليـــه غيـــرْ حُبِّـــي
ياشـــادنـــا قَـريعَـــا   أحْلُـــلْ كِنـــاسَ قَلْبِـــي
فَـــإنْ تَكُـــن مُطيـــعَـــا   مُـسْتَـــأنِســـاً بِقُرْبِـــى
فـالمَــوْتُ لا مَـحَــالــهْ   يَعْـــذُبُ لي عِنْدَ الــوُرودْ
وَهْـــوَ بي أَجْـــدرْ   لاسيمـــا الحَـســـودْ   سعْيَه تبْصِــرْ
هَيْــهـاتَ تسـتـمـــالُ   أَوْ يُعْتـــدى عليهـــا
ودونَـهـــا نِصَـــالُ   مِـــنْ سِحْـــر مُقْلَتَيْـهـــا
وقـــد مَـشَى الجِـمـالُ   حتَّـــى انْتـهـى إليهـــا
وصَنـــفَتِ الحِـجـــالُ   مِنْهـــا مـــا لَدَيْهَـــا
ونَمَّـــتِ الغِـــلالَـــةْ   بِفَـالِـــكٍ مِـــن النُّهُـــودْ
فلـــن يَسْـتَـتِـــرْ   إذا انْثَنى غُــصْنُ البُــرودْ   في نقـا المِـئْـزَرْ
لِلَّـــه أيُّ دُنْيـــا   بِقُـــرْب مَـــنْ أُحِـــبْ
كَـمِـثْلِ عَـهْـد يحـيـى   وللنَّـــوال سُحُـــبْ
يُسْـقِي العُـفـاة سَـقْيَـا   فـــلا يخـــاف جَـــدْبْ

---

186) «ديوان الأعمى التطيلي»، ص 275.

الأرْوَعُ المُحَيَّا يَلْقاكَ مِنْهُ نَدْبْ
كالطَّوْد في جَلالِهْ كالْبَحر في إشراف بُنُودْ
كالمحيًّا مَنْظَرْ كالرَّوْضِ يُهْدى مِنْ بعيدْ نَشْرَهُ الأعْطَرْ

يا أيها السَّريُّ من أشرف القضاةْ
قد حلَّكَ العَلِيُّ بالحِلْم والأناةْ
فكم فَتًّ علي وأنت في الحياةْ
فَجَدُّك العَشْري مُقاتِلُ العُداةْ
يُنْمَى إلى سُلالةْ قد وَرِثوا عن الجُدُودْ
شَرَفَ المَفْخَرْ هُمُ الدَّراري في السُّعودْ بَلْ هُمُ أفْخَرْ

وظبيةٍ تَهَابُ ضراغمَ العَرينْ
وحولها الشبابُ والطِّيبُ في كَمِينْ
إذا دَعَتْ تُجَابْ من شِدَّةٍ وليِنْ
فقلتُ حين غابوا عَنْها وخلَّفونْ
فُمَّيْكِ يا غزالةْ بها دِما من الأسُودْ
كيف تَغْدُرْ إذا بدا فَخْرُ الجنودْ وخدُّهُ أسْمَرْ

ومن موشحاته في مدحه ومَدْحِ أخيه القاضي أبي العباس، هذا الموشح الذي جاء فيه ذكر شخص إسمه أبو بكر، كان خليفة لأبي العباس في النهي والأمر. ولعله كان نائبا عنه في خطة القضاء التي كان موطوقا بها، ولا نعرف عنه شيئا، قال :[187]

أدِرْ لنا أكوابْ يُنْسَى بها الوَجْدْ واستَصحِبِ الجلاَّسْ كما قضى العَهْدْ
دِنْ بالْهَوى شَرْعَا ما عِشْتَ يا صاحِ
ونَزِّه السَّمْعَا عن مَنْطِقِ اللاَّحي
فالحكمُ أن تَسْعَى إليكَ بالرَّاحِ

187) «ديوان الأعمى التطيلي»، ص 267.

أنامِـــلُ العُنَّـــابْ ونقْلُـــكَ الـــوَرْدْ حقَّتْهُ بِصُدْغَيْ آسْ يَلْوِ بِهِمَـا الخَـــدُّ

لِلَّــــهِ أيَّــــامُ دارتْ بها الخمـرُ

وَصْـلٌ وإلمـــامُ وأوْجُـــهٌ زُهْـــرُ

والـرَّوْضُ بسَّـــامُ وقـد بَكَـى القَطْــرُ

ونحن في أحْبَـابْ قد ضَمَّنَـــا عِقْـــدُ فـيا أبا العـبَّاسْ لا خَـانَكَ السَّـعْـدُ

خليفــــةٌ منـــكَ فينـــا أبو بكـــرِ

نابَ لنـــا عنـــكَ في النَّهْيِ والأمْـــرِ

لم يُبْقِ لي ضَنْكَـــا من نُوبِ الدهْــــرِ

فأنْتُـــم أرْبـــابْ ما شَيَّـدَ المجـدُ وإن بَلَوْنَـا النـاسْ فَـــهُمْ لَكُمْ ضِـدُّ

حَلِيَـــتِ الدنيـــا من بعـــد تَعْطِيـــلِ

وجاءَنـــا يحيـــى بَيْـــنَ البَهاليــــلِ

أغـــرٌّ بالعلْيـــا من فَـوْق تَحْجِيـلِ

يختـال في أثْـوابْ طِرازُها الحَـمْـــدُ وأفْـرطَ الإينـاسُ فـــمـــا له حَـــدُّ

بينـــا أنا شـــاربْ لِلْقَـهْـوَةِ الصِّـــرفْ

وبَيْنَنـــا تائـــبْ لكن على حَـــرْفْ

إذْ قـال لي صـاحبْ من حَلْبَـةِ الظَّـــرْفْ

نديمُنا قَـــدْ ثـــابْ غَنِّي لــه واشْـــدُ واعْرِضْ عليه الكاسْ لَعَـــلَّ يَرْتَـــدُّ

وقد وصفه في هذه الموشحات بالجود والكرم والأريحية وطيب النفس والشرف والمروءة والسخاء، وانه من بيت عز، ومنبت فضل، وأشرف القضاة، تحلى بالحلم والاناة، وجده عشرة كان يقاتل العداة، وأنه ينتمي إلى سلالة عريقة في الفخر والسؤدد الموروث عن الآباء والجدود، ولعله يشير بذلك إلى أسلافه الأولين من ءال المدبر.

هذا ما وقفنا عليه من أخباره وآثاره، وهي قليلة جداً. ولم نقف على تاريخ وفاته.

أبـو يعقـوب يوسف بن
علي ابن عشَرة السـلاوي

هو رابع الإخوة أبناء القاضي أبي الحسن علي ابن عشرة المتقدم الذكر.

ويظهر أنه كان سيدا في أسرته، معظما في عشيرته، كبقية إخوته. وقد مدحه كما مدح إخوته الشاعر الوشّاح الأعمى التطيلي بموشحه الذي يقول فيه :[188]

كـيفَ السـبـيلُ إلـى صبري وفي المَعالِمْ أشـــجـانُ
والرَّكْبُ وَسْطَ الفَـلاَ بالخُـــرَّدِ النَّوَاعِمْ قَـــدْ بانوا

أقـبلن يومَ الحِمَـى في سُنْدُسِيَّات الحُلَلْ
بيضُ مَطَلِّ الدِّمـــا سودُ الفُروعِ والمُقَلْ
فيـا مُعَنّـىً بِمـا لَوْ ناله نالَ الأمــلْ

دون ذَواتي الحُلّـى لِلسَّيـف بالصَّوارِمْ حِـــرْمَـــانُ
أبْـغِ النَّجـاةَ ولا يَغْرُرْكَ بالضَّـراغِمْ غِــــزْلاَنُ

لم يَدْرِ شيئاً سِـوَى تَعْـــذِيبِـهِ لِصَبِّـهْ
ومـا شَكَوْتُ الْهَـوَى إليْـهِ خَوْفَ عَتْبِـهْ
وكُنْتُ قَبْلَ النّـوَى مُكْتَتِمـاً لِحُبِّـهْ

فَـــعِنْدَمَـا رَحَـلاَ فاضَتْ بِدَمْعٍ سَاجِمْ أجــفـانُ
أَطْلَعْـنَ مِنِّي عَلَـى سِـرِّي وَهَلْ للهـائمْ كِـتْـمَـانُ

أَهْدَى إِلَيَّ الـسُّرورْ بَحْرٌ يَفيضُ بالمِنَـنِ
إِنْ حاربَتْني الدُّهـورْ فهو حُسامي والمِجَنْ
فـقُل لكُـلِّ فَـخُـورْ مِـثْلَ أبي يعـقـوب

ذاك الــذي كَمُـــلا وفي جميـع العالـمْ نُقْـصَـانُ
وطـالَمـا عَـدَلا وللزَّمـانِ الظالـمْ عُـــدْوانُ

188) «ديوان الأعمى التطيلي»، ص 272.

ذو سـودَدٍ لاَ يُنـالْ لو تَبـعَتْـهُ الأ نجُـمْ
إذا تَذَكَّـرتَ النِّـزالْ فهو الجرِئُ المِقْـدَامْ
وإن طَلَبْتَ النَّـوالْ فَهْوَ الجوادُ المُنْعِـمْ
تَاللَّـهِ مُـذْ بَـذَلا مـا قَامَ للقـائـمْ مِّـيـزانْ
اضْـرِبْ بِّه المَثَـلا فَـإنَّ جـُودَ حـاتِـمْ بُهْـتَـانْ
ومُـزْمِـعٍ للسَّـفَرِ لَمْ يَرْضَ غيري مُسْتَشارْ
فقـالَ تـدري سَـفَري هُمُ علَى البَـحْـرِ بِحَـارْ
فَـقُلْتُ سِـرُّ الخَـبَرِ عندي تَجِدْهُ باخْتِـصَارْ
إن جِئْتَ أرضَ سـلا وافَـاكَ بـالْـمَـكـارِمْ فِـتْـيَـانْ
هـم سُـطُـورُ ويوسـفُ بْنُ القاسمْ عُـنْـوانْ

وهذا الموشح هو الذي اقتفاه ابن الصبَّاغ الجذامي بموشحه في مدح أخيه القاضي أبي العباس أحمد، وضمَّن فيه البيتين الاخيرين كما تقدم في ترجمته.

ولم نقف على تاريخ وفاته بالضبط، ولعله توفي قبل استيلاء عبد المومن على سلا.

عبد الرحمان بن يوسف
ابن عشرة السلاوي

هو ولد يوسف المتقدم، وكان رجلا زاهدا ياوي إلى أهل الخير والصلاح ويلازمهم. ولا نعلم عنه إلا ما ذكره في «التشوف» في ترجمة الشيخ أبي عبد الله محمد بن سالم الشلبي.

وأصْل هذا الشيخ من شِلْب بعُدوة الأندلس، وانتقل منها عقب قتل الثائر أحمد بن الحسين، المعروف بابن قَسِي، سنة ست وأربعين وخمسمائة (1151/546).

فنزل أولا بمدينة سلا، ثم استقرَّ بفاس إلى أن مات بها رحمه الله.

وعليه، فإنَّ عبد الرحمان بن يوسف ابن عشرة، كان حيًا موجودا في التاريخ المذكور.

قال في «التشوف» :[189]

حدثني أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمان الهواري قال :

وَاصَلَ أبو عبد الله بن سالم أربعين يوما، قال : وحضرتُ معه أنا ووالدي، وعبد الرحمان بن يوسف ابن عشرة بموضع يعرف «بدار أم القاضي» على ساحل البحر، فأهويتُ بيدي على نبات من الأرض لاقطعه منها، فنهاني عنه، وسمعته يقول لأبي : لِمَ يقْطعه عبثاً من غير حاجة إليه ؟ فكم من حيوان يأكل منه، وكم من حيوان يستظل تحته، ثم أكلنا طعاما، فلفَّ بقيته في منديل، فوصل إلى منزله وفتحه، فوجد فيه جماعة من النَّمل، فقال : غرَّبت هذا النَّمل عن مواضعها، فحملها حتى أعادها إلى المكان الذي كانت فيه.

عبد الله بن يوسف
ابن عشَرة السلاوي

كان زاهدا فاضلا عارفا بالله تعالى، وهو أخو عبد الرحمان المتقدم.

وقد ذكره في «التشوف» في ترجمة أبي علي الشريشي البكّاي، دفين الزاوية الدرقاوية السلاوية، قال :[190]

حدثني أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمان الهواري، قال : كان أبو علي – يعني الشريشي – قد جال في البلاد المشرقية، وحجَّ نحو عشرين حجة، وقدم مراكش ثم خرج منها، فنزل على علي بن حمدون بمدينة سلا.

وحضر جنازة الزّاهد الفاضل عبد الله بن يوسف بن علي ابن عشرة رحمه الله، وهو من أهل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

والظّاهر أن عبد الله بن يوسف هذا، هو صاحب الضريح والمسجد المنسوب إليه بحي باب حسين من سلا، إذ هو – كما يقال – من بني عشرة، وكذلك سيدي علي مليح، صاحب الضريح المتصل به، وسيدي قاسم غليظ، صاحب الضريح المشهور أيضا قبالته.

---

189) ص 281، طبع الرباط

190) ص 182، نفس الطبعة.

وأسرة غليظ بسلا، تُنسب لبني عشرة. وقد انقرضت، أوْ أوشكت على الانقراض.

وتعرف هذه الأضرحة برجال الحفرة بسلا، وبناؤها وطرزها يوحى أنها من الأبنية القديمة التي بُنيت في العهد المريني شكلا ومنظرا وهَيْأة.

فالمسجد على طراز المساجد المرينية بسلا، كمسجد المريني، ومسجد الزرقاء، وغيرهما، وكان يعرف فيما مضى - كما في الحوالة الحبسية القديمة - بمسجد الحفرة، وعليه أحباس مُهمّة معلومة.

عمر بن الحسن بن داوود
ابن عشَرة السـلاوي

لا نعلم من خبره إلاّ ما ذكره في «التشوف» أيضا في ترجمة الشيخ الكبير أبي عمران موسى الدكالي، لمّا حكى قِصّة دفنه، وتنازع أهل سلا فيه فقال :[191] حدثني عمر بن الحسن ابن داوود ابن عشرة قال :

كنت فيمن حضر جنازة ابي عمران موسى، وأنا يومئذ شاب، وكانت لنا أرض مُحبّسة لدفن موتى المسلمين، فحفرتُ فيها قبرا، وأتيت إلى نعشه -وقد غلب الظلام- فسللته من فوق النعش واعتنقته، وحملته إلى القبر فدفنته، والناس يظنون أنه باق على النعش، فأعلمتهم أني دفنته بالأرض الحبس، فاقاموا على قبره يسْمرون عليه باللّيل، ويقرأون القرآن بالنهار. فلمّا كملت سبع ليال، غلبهم السَّهر، فناموا فما انتبهوا إلا وقد نُقلَ من ذلك القبر إلى قبر حَفَرَتْهُ له ملالة بنت زيادة الله في رابطة القوْم، وعملت عليه قُبة أَنفقت عليها خمسمائة دينار...[192].

وهو من أهل القرن السادس الهجري، (الثاني عشر الميلادي)

ولا نعلم شيئا من أخبار والده الحسن، ولا جده داوود، ولا كيفية ربط انتسابه بنسب باقي الأسرة.

---

191) كتاب «التشوف»، ص 188، طبع الرباط.

192) القُبّة التي على ضريح أبي عمران موسى الدكالي الآن، ليست هي القبة التي بنتها ملالة المذكورة في هذا الحديث، لأن السلطان المولى اسماعيل جددها وأعادها لما بنى قصبة العبيد قرب الضريح المذكور

القاسم بن عبد العزيز
ابـن عشَـرة الســلاوي

لا نعلم عنه إلا ما رواه عنه ابن الزيات في كتابه «التشوف» في ترجمة الشيخ أبي عمران موسى الدكالي أيضا قال :[193]

«حدثني محمد بن علي بن عبد الرحمان الهواري قال: حدثني القاسم بن عبد العزيز ابن عشرة قال : مررت بأبي عمران موسى و هو ياكل عسلوجا من عساليج الكلخ فناولنيه، فأكلته فوجدته طيبا...»

وهو كذلك من أهْل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)

وليست لدينا معلومات عن والده عبد العزيز ولا كيفية اتصال نسبه بنسب باقي الأسرة العشرية.

أبو الحجّـاج يوسـف بـن
علي ابن عشرة السلاوي

ترجمه ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل و التكملة» و قال فيه :[194]

أبو الحجـاج يوسف بن علي ابن عشرة، روى ببلنسيـة عن أبي عبد الله ابن المواًق، ثم ذكره في ترجمة محمد بن يحيى بن أبي بكر بن خلف الشهير بابن المواق، وعدّه من جملة من أخذ عنه.

ولم نقف من أخباره على أكثر من هذا، ولا على تعيين تاريخ وفاته بالضبط.

وهـو من أهـل القـرن السابـع، لأن شيخـــه ابـن المــواًق، توفى سنــة اثنـين وأربعيــن وستمـائــة (1244/642).

---

193) ص 188.

194) مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

قاضي سلا أبو علي
الحسن ابن عشَرة السلاوي

أبو علي الحسن ابن عشرة، ترجمه ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة»، ولم نقف على ترجمته لفقدان حرف الحاء من النسخة المخطوطة التي بين أيدينا.

كان متوليا خطة القضاء بسلا سنة ثمان وخمسين وستمائة (1259/658) في أول عهد الدولة المرينية، ولعل المرينيين جبروا كسر الأسرة بولايته، لأن قضاء سلا كاد أن يكون مقصورا على العشريين في عهد المرابطين، وزُحْزِحُوا عنه، وغض منهم في عهد الموحدين، فاستردوه بولايته في عهد بني مرين.

ويظهر أنه كان سيدا فاضلا كريما نبيلا، جاريا على سنن أسلافه في الجود والكرم؛ فقد ذكر ابن رشيد في «رحلته»[195] أنه كان مألفا للفضلاء عليه ينزلون، وبفنائه يحطُّون، ومنهم القاضي أبو يحيى أبو بكر بن هشام القرطبي.

وَذَكَرَهُ أبو العباس أحمد بن عذاري في «البيان المعرب» وقال :[196] إنه كان من جملة من أَسَرَهُ الأصبانُ من أعيان سلا لمَّا دخلوها في الوقعة المعلومة، وفداه السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني في جملة من فداهم من الأسرى السلاويين، واستنقذهم من أيدي أعدائهم.

ولعلَّه من حفدة القاضي أبي الحسن ابن عشرة الذي تقدمت ترجمته، المتوفي سنة اثنتين وخمسمائة (1108/502) إذ بينهما ما يزيد على مائة وخمسين سنة.

ولا ندري حلقات اتصال نسبه، ولا تاريخ وفاته بالضبط الآن رحمه الله تعالى.

ولعل أفراد بعض هذه الأسرة العشرية السلاوية انتقلوا من سلا إلى تونس لأسباب مجهولة عندنا واستقروا بها.

– منهم الرجل الذي لقيهُ ابن عرفة، وسأله عن سببه ونسبه، كما سيأتي في الفصل المعقود لما ذكره الفقهاء في أسطورة بني عشرة.

---

195) مخطوط الاسكريال 2 41.

196) ص 198 من ج 3، طبع الرباط.

– ومنهم شخص آخر اسمه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم السلاوي، يَمُتُّ إليهم بصلة نسب، أعرف أنه ذكره ابن رُشَيْد في «رحلته»، وأنه اجتمع به في تونس، ولم تحضرني ترجمته الآن.

وعلى كل حال، فإنَّ هذه الأسرة التي يُنْسب اليها عُمْران سلا، لم تزل مقصد القاصدين وملجأ اللاَّجئين، وملاذ اللاَّئذين بهذه المدينة، منذ نزل بها جدهم عشرة، في زمن اليفرانيين، مسموعة الكلمة، متبوعة العقب، معظمة الجانب، مرفرعة الرأس، مرموقة بعين الإجلال والاعتبار بالمغرب والأندلس، في عهد المرابطين، وابتداء دولة الموحدين، وحتى في دولة بني مرين زهاء ثلاثة قرون من السنين.

وقد ذكر القاضي عياض في «البغية» :(197) «أن العلامة أبا محمد عبد الله بن أحمد بن خلوف الأزدي، المعروف بابن شبونة، نزل ببني عَشَرَة بسلا سنةً فأكرموه وتوسعوا له، ودرس عندهم، ثم انتقل الى أغمات. وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يعرف حقَّه ويكرمه...»

ولمَّا فاخر لسان الدين ابن الخطيب بين سلا ومالقة، وقابل بين قلة أعيان الاولى ووفرة الثانية قال:

«وسلا المسكينة، لا تعرف لعِشْرتها، إلاَّ ابناء عَشْرتها». وفي ذلك دليل على وجودهم بارزين فيها، معدودين من أعيانها في وقته، لمَّا كان ثاويا بها أوائل النصف الثاني من القرن الثامن الهجري.

والعِشرة، بالكسر، اسم من المعاشرة والتعاشر، وهي المخالطة.

وعليه، فإن عِشْرتها في الفقرة الأولى، (بكسر العين وسكون الشين)، اسم من المعاشرة والتعاشر، وعَشْرتها في الفقرة الثانية (بفتح العين وسكون الشين ايضا)، يعني بها بني عشرة، وفيها الجناس اللفظي التام، وهو اتفاق الكلمتين في انواع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها، ولا يكون الاختلاف الا بالحركة لا غير، كقول الشاعر:

فَقُلْتُ لِلائِمي أقْصِرْ فَإنِّي سَأَخْتَارُ المَقَامَ عَلَى المُقَامُ

فالأول بفتح الميم والثاني بضمها...

---

197) ورقة 84، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

وبعد هذا الظهور والشهرة والذكر الشائع الدائع، اختفت هذه الأسرة من ميدان التاريخ وعالم الظهور، وتقلّص ظلها، وخفت صوتها، وإن بقي أفراد منها يعيشون عيشة الخمول كعامّة الناس، مندمجين في غمارهم، يُعرفون في سلا على ما يقال بأولاد غليظ، وقد انقرضت أسرة غليظ أو أشرفت على الانقراض، ولم يبق منها في علمنا إلا شخص واحد، وبذلك أسدل الدهر عليها ستار الغموض والنسيان، فلم نر لها، منذ ذلك العهد، في سجل من سجلات التاريخ ذكرا، ولم نقرأ عنها في صحف الأيام سطرا، فذهب أعيانها وعيونها في الذاهبين الأولين، واتبعنا بعضهم بعضا، وجعلناهم أحاديث ومثلا للآخرين، والبقاء والدوام صفة رب العالمين، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين :

وإنَّمـا الْمَـرْءُ حـديثٌ بَعْـدَهُ ... فَكُنْ حَـديثاً حَـسَناً لِمَنْ وَعى

ورحم الله ابن الخطيب اذ يقول :

يَمْضِي الزَّمانُ وَكُلُّ فـانٍ ذاهِـبٌ ... إلاَّ جَـميلُ الذِّكْـرِ فَـهْـوَ باقـي
لَمْ يَبْقَ مِنْ إيـوانِ كِسْـرَى بَعْـدَ ذا ... كَ الْحَـفْلِ إلاَّ الـذِّكْـرُ في الأوْرَاقِ
هَلْ كَـان للسَّفَّاحِ والمَنْصُـورِ والْـ ... مَـهْـديِّ مِنْ ذكـرٍ عَلى الإطْـلاقِ
أوْ لِلرَّشيـدِ وللأميـنِ وصِنْـوِهِ ... لَوْ لاَ شَـبـاةُ يَراعَـةِ الـوَرَّاقِ
رَجَعَ التُّرابُ إلَى التُّرابِ بِما اقْتَضَتْ ... في كُلِّ خَلْقٍ حِكْمَـةُ الـخَـلاَّقِ
إلاَّ الثَّنـاءُ الخالِـدُ العَطِـرُ الـذي ... يَـهْـدي حَـديثَ مَكَـارِمِ الأخْـلاقِ

وحيث علمنا ممَّا تقدّم، أصل هذه الأسرة العريقة في القدم، ومن أين جاءت، وما بلغته من الرفعة والظهور، فيما سلف من الأزمنة الغابرة والدهور، بهذه المدينة السلاوية، فلا باس أن نختم دراستنا هذه، بما ذكره الفقهاء فيها، ومازعموه من أنَّهم وُلدوا عشرة في بطن واحد، ولذلك سُمُّوا «ببني عشَرة» تتميما للفائدة واستيفاء للموضوع : وإن كانت القَوْلة في ذاتها أسطورة منقولة مَقُولَة، فنقول .

المبحث العاشر

ما ذكره الفقهاء في بني عشرة
وأنهم ولدوا في بطن واحد

ذكر العلامة الرهوني في «حاشيته» على شرح العلامة الزرقاني «لمختصر» الشيخ خليل، والعلامة ابو عبد الله محمد بن المدني جنُّون في «حاشيته» ايضا[198] عند قول المصنف : وَوُقِّفَ القَسْمُ للحَمْل، يعني قسم التركة، نقلا عن الإمام ابن عرفة، رحمه الله، وتبعهم على ذلك جماعة من الشُراح والمحشِّين على فرائض «المختصر»، «وتحفة» ابن عاصم، يُقلِّد بعضهم بعضا، كل منهم يقول :

«سمعتُ من غير واحد ممَّن يوثق به، أن بني عشرة الذين بنى والدهم مدينة سلا بأرض المغرب كان سبب بنائه لها، أنه وُلِدَ له عشرة ذكور من حمل واحد من امرأة له، فجعلهم في مائدة، ورفعهم الى أمير المومنين يعقوب المنصور الموحدي، فأعطى كل واحد منهم الف دينار، وأقطع أباهم أرضاً بوادي سلا، فبنى بها مدينة تعرف الآن بمدينة بني عشرة، وبَنَى يعقوب المنصور الموحدي مدينة تسامتها، يفصل بينهما الوادي.

ثم قال : رأيت في هذا الوقت رجلا يعرف بابن عشرة، فسألته عن نسبه وسببه، فذكر لي مثل ماذكرته.»

ونقله ابن مرزوق وسلَّمه، واعترضه ابن غازي بقوله : «كأنه لم يقف على ما في رسم الحبُس من قسم الغرباء من «تكملة» ابْنِ عبد الملك، اذ قال :

---

198) ص 343 من ج 8 طبع القاهرة.

يقول بعض الأغمار، إن سبب هذه الشهرة أنهم كانوا إخْوة توائم، فسُئل عن ذلك أحد أعقابهم فقال : جعلوا أُمَّنا خِنزيرة تَلِدُ عشرة، حسيبهم الله.»

وهنا تصحيف فاحش يجب التنبيه عليه، وهو أنَّ كتاب «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة»، وهو كتاب تراجم للاعيان والاعلام، مرتب على حروف المعجم، لا كتاب فقه وأحكام، وضعه مؤلفه ذيلا وتكملة لكتابي «الموصول» في تاريخ علماء الأ ندلس لابن الفرضي، المتوفى سنة ثلاث واربعمائة (1012/403)، وكتاب «الصلة» في أخبار أيِّمة الأندلس لابن بشكوال المتوفى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (578 /1183)، ومن اصطلاحاته التي درج عليها في تصنيفه أنَّه يُعَبِّر عن ترجمة من ترجم لهم من الاعلام بقوله : رسم فلان، يعني تمثيله وتصويره، أوْ ذكر ما بقي من أثره، ومنها أنه يخصِّص قسما في كل حرف من حروف الهجاء التي رتب عليها كتابه للغرباء، يعني الذين ليسوا من أهل الأندلس، ولذلك قال في مستهل ترجمة ابي الحسن على ابن عشرة : وقد تقدم بيان هذه الشهرة في رسم ابي علي الحسن منهم، يعني في ترجمته.

وعليه، فليس المقصود بالرسم وثيقة حُبُسٍ على الغرباء، وإنَّما تصحَّفت لفظه رسم على الناسخ والناقل الأول، ولم يفهم معناها الاصطلاحي الذي درج عليه المؤلف، وظنَّها رسم وثيقة، وظنَّ أنَّ لفظ الحسن تصحَّف عن لفظ الحبس، ورأى لفظة الغرباء، فظنَّ أنَّ الحبس على الغرباء، أوْ تصحَّفت عليه لفظة حسن بلفظة حبس لتشابه حروفهما خطّاً، وأضاف لها لفظة الغرباء وظنَّ أنَّ الحبس على الغرباء، وليس تم حبس ولا غرباء. ونقله من أتى بعده من النَّقلة من غير تثبت ولا فحص ولا مراجعة للنصوص، وسرى ذلك التصحيف أو التحريف إلى الشارحين المحشّين يُقلِّد بعضهم بعضا. والتصحيف أسرع سيرا من الكهرباء في الأجسام الموصلة، وإلاَّ فليس في «ذيل وتكملة» ابن عبد الملك في رسم حسن ابن عشرة كلام على حبس الغرباء، وإنما فيها الكلام على الأسطورة التي يقولها بعض الأغمار على حَدِّ تعبيره، وهي أنهم إخوة توائم وُلِدوا في بطن واحد، حتى تبرأ أحد أعقابهم من ذلك قائلا :

«جعلوا أمنا خنزيرة تلد عشرة، حسبيهم الله».

ويوخد من ذلك أن الناقل الأوَّل، وقف على حرف الحاء المفقود من الكتاب الآن، ونقل منه، كما يؤخد أيضاً أنَّ هذه الأسطورة كانت رائجة شائعة متداولة في عهد ابن عبد الملك في القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي).

وقد تكلم المحشُّون في صراحة هذا النفي وثبوته وإبهامه وعدمه، بما يُعْلَم من الوقوف عليه في محله، وزادوا في تعضيد وقوع هذه القصة، بما نقلوه عن الذهبي في «تاريخ الإسلام»، وهو :

أن البريد أتى من اليمن في سنة ثمانين وستمائة (1281/680) مخبراً بأنَّ امرأة من اليمن ولدت عشرة أولاد في بطن واحد فسموهم «بنو العشرة»، بل وقع ما هو أغرب منه، وهو ما نَقَلَهُ الحافظ السخاوي عن «تاريخ بخاري» لغُنْجَار من حديث محمد بن الهيثم بن خالد البجلي، الحافظ قال : كان ببغداد قائد من قواد المتوكِّل، وكانت امرأته تلد البنات، فحملت مرة، فَحَلَفَ إنْ ولدت هذه المرة بنتا لَيَقْتُلَنَّها بالسَّيْف، فلمَّا قربت ولادتها، وجلست القابلة أمامها، ألقت مثل الجريب، وهو يضطرب، فشقوه، فخرج منه أربعون ابنا وعاشوا كلهم ؛ قال محمد بن الهيثم : وأنا رأيتهم ببغداد ركبانا خَلْفَ أبيهم، وكان اشترى لكل واحد منهم ظهرا.

وفي «تاريخ الإسلام» للذهبي أيضا : أنَّ امرأة ولدت ببغداد في ايام المامون شيئا كالجراب، فتحرَّك، ولمَّا فتحته القابلة، وجدت فيه اربعين ولدا كالأصابع، وكلهم ذكور، فرفع خبرها الى المامون، فأمر أنْ يجعل لها مراضع، وعزلها في دار، وأجرى عليهم النفقة الى ان ادركوا كلهم، وجعلهم في جملة جنوده، وزوجهم، واعطاهم الدُّورَ للسكنى بمحل واحد، وكانوا يسمونهم : «بنو الأربعين».

وفي «تاريخ الاسلام» أيضاً في حوادث سنة ست وسبعين وستمائة (676 / 1277) أنَّ امرأة ببغداد ولدت اربعة نفوس في بطن واحد فطلبهم الخليفة حتى رءاهم وتعجب منهم، وأمر لأمِهم بستمائة دينار.

ونقل هذه القصة الشيخ ابو عبد الله محمد بنيس في «شرحه» لفرائض «مختصر» الشيخ خليل، وعلَّق عليها مُحَشِّيه، العلامة ابو محمد عبد الله ابن خضراء السلاوي[199] بأن سلا من الأمصار القديمة وكلام الشارح محمول على قطعة من ارضها. ونقل نَصَّ ابن خلدون المفيد أنَّ قصر بني عشرة كان موجودا زمن عبد المومن، ونصَّ «نفح الطيب»، وأبيات الوزير ابن الحمارة في هذا القصر، كما تقدَّم في محله.

قلت : ومن هذا القبيل ما وقفتُ عليه قي كتاب «أخبار و تراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للحافظ السلفي»[200] راوياً ذلك عن أبي محمد عبد الله بن تويت ابن الوران اللمتوني، وكان رجلا صالحا من أمراء المرابطين قدم المشرق حاجّاً وطالبا للعلم، فحضر عنده وقرأ عليه، قال بعدما ذكر نوادر من شواذ المخلوقات الآدمية :

---

199) ص 228، طبع فاس.

200) ص 59، طبع بيروت.

وقد رايت بفحص الأندلس (إشبيلية) امرأة ولدت أول ولادتها ولدا، ثم في المرة الثانية ولدين، وفي الثالثة ثلاثة، وفي الرابعة أربعة، و في الخامسة خمسة، و في السادسة ستة، وقي السابعة سبعة، في بطن واحد. وأَيِسَتْ من روحها، وأشرفت على الهلاك. ثم امتنعت عن زوجها، وأبت أن تطاوعه، واشتهر أمرها عند الناس بأقطار الأندلس.

و الذي يظهر لنا في هذه القصة – قصة بني عشرة السلاويين – أنها موضوعة، أو خرافة مصنوعة. والدليل على وضعها أو صنعها ليس استحالة ولادة عشرة في بطن واحد، وإنما هو أنهم يقولون إن والد هؤلاء العشرة حملهم في مائدة إلى يعقوب المنصور الموحدي... ما جاء في القصة، مع أن الثابت تاريخيا هو أن بني عشرة كانوا بسلا وأسسوا دورهم حول الجامع كما تقدم نقلا عن «الاستبصار»[201] ومصَّروها و عمَّروها، و عندهم نزل المهدي بن تومرت واضع أسس دولة الموحدين، وعبد المومن بعده نزل بقصرهم، ويعقوب المنصور إذ ذاك لازال في عالم الذر، ولم يكن شيئا مذكورا، والدولة الموحدية لازالت لم تبرز لعالم الوجود، والزمن الذي عينه المؤرخون لنزول عشرة جد الأسرة بأرض سلا، هو الربع الأخير من القرن الرابع الهجري الموافق لأواخر القرن العاشر الميلادي، و بينه وبين يعقوب المنصور الموحدي ما يزيد على قرنين من الزمن.

وهذا دليل قاطع على بطلان هذه الأسطورة.

و الحقيقة أنهم سُمُّوا «ببني العشرة» لأن جدهم كان يسمى عشرة، فنُسِبوا إليه، وما زال الناس يُسَمُّونَ بالأعداد قديما وحديثا، خصوصا بالأندلس كما تقدم تحريره في فصل سبب تسميتهم ببني عشرة.

أما ولادة أربعة، وخمسة، وستة، وسبعة، فما فوق إلى عشرة في بطن واحد، فليس بغريب، وقد يقع ويتحدث الناس به في كل زمان ومكان. ولكن، ولادة أربعين لم نسمع بها حتى الآن، إلا فيما نقله الفقهاء، كما تقدم عن «تاريخ الإسلام» للذهبي ؟

ومن هذا القبيل، ما نقلته الجرائد المحلية والخارجية أثناء اشتغالنا بتحرير هذا الموضوع.

– وهو أن امرأة فرنسية ولدت بإحدى مصحات باريس خمسة أولاد في بطن واحد، بعد أن كانت تتناول علاجا من الهرمونات للتغلب على العقم.

201) ص 140 طبع الإسكندرية.

- وأخرى بمدينة بنجارات «Punjarat» على بعد أربع وأربعين كيلو ميترا شمال شرق داكا «Dacca» بالباكستان، ولدت تسعة أولاد، في بطن واحد، والتعسة في حكم العشرة، ووالدهم ووالدتهم لا يتجاوز سنهما ثلاثا وعشرين سنة.

و قالت الجريدة الناقلة لهذا الخبر، إنه حدث غير طبيعي، ناشيء عن الأدوية التي يتعاطاها بعض النساء لأجل الولادة، كما يتعاطين أدوية أخرى لأجل العقم وتحديد النسل.

و بعد تسجيلنا لما ذكرأعلاه، صارت الصحف تعلن من حين لآخر، ولادة الثمانية والتسعة في بطن واحد.

ثم أعلنت الصحف أخيرا أن امرأة ايطالية بروما كانت حاملا من أربعة أشهر، وأجريت لها عملية جراحية مستعجلة، فوجد في رحمها خمسة عشر جنينا، عشرة ذكور وخمس بنات، وهو ما ألحقناه في الصحف المضافة لهذه الصحيفة.

والملاحظ هو أن هؤلاء التوائم لا تقَدَّرُ لهم حياة و يموتون إثر ولادتهم.

ونحن نقول : إن قدرة الله صالحة لكل شيء، ولا يعجزه سبحانه وتعلى شيء، وإنما نريد أن نثبت الحقائق التاريخية، وما خالف العادة الطبيعية البشرية، ولله سبحانه وتعالى في خلقه شؤون، وهو الخالق الباريء المصور القادر على كلّ شيء، ولا يعجزه شيء، ويفعل ما يريد، يهب لمن يشاء الذكور، ويهب لمن يشاء إناثا أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما، وله الخلق والأمر، والله أعلم.

الفصل الثاني

عن سلا والقصبة وآثارهما
في عهد المرابطين

مبحث فريد

المرابطون بالعدوتين

* الضفة اليمنى

لمّا أدال الله الدولة للمرابطين، كانت سلا في عهدهم صارت مدينة عامرة مستكملة شروط التمدين والعمران بما أحدثه فيها بنو يفرن وبنو العشرة – السابق ذكرهم – من الأحياء، والقصور، والدور، والمنازل، وغير ذلك مما تستدعيه العمارة من مختلف البنيان، كالمساجد، والأرحاء، والأفران، فاهتمُّوا بها لموقعها الجغرافي من المملكة.

و أسَّسوا عمالتها الواسعة النطاق، من المحيط الأطلانطيقي إلى بحر الزقاق، يعني مسافة نحو سبعة أيام.

وكانت منها تصدر الأوامر، وفيها تجتمع الجيوش المتنقلة بين شمال المغرب وجنوبه، والعابرة إلى الأندلس، مع اتِّصافها بالصِّبغة الدينية، والسُّمعة الجهادية، في الفئة الضَّالة البَرَغْواطية.

و إلى ذلك يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي السلاوي في أرجوزته المسماة «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار العدوتين : الرباط وسلا» :[202].

ثُمَّ أدال الله للمرابطيــــنْ ... وِلايــةَ الـغَرْبِ بِعِــزِّهِ المَتِيــنْ
فـأسَّسُوا عَـمَلَهَا المَــذْكُــورا ... ذَا الـسَّبْعَـةِ الأيَّامِ عِ سُطُورا
فَلَمْ تَزَلْ قُطْرًا عظيــمــاً واسـعــاً ... والدِّينُ فِي الظِّلِ الوَرِيفِ رَاتِعـا

---

202) مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

وفي أيام المرابطين، كان يتردَّد عليها أعيان الأندلس والمغرب الأوسط، واشتهر بها بنو عشرة، كما تقدم في أخبارهم بما هو أوعب وأبسط.

وخلَّف بها المرابطون آثارا تذكر، كالأسوار والحصون والمساجد، إلاَّ أنها عفا عليها الدَّهر، وطمست معالمها الأيام.

جامع الشهباء

ومن آثارهم الباقية بها جامع الشهباء. أُسِّسَ في عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، لمَّا امتدت العمارة إلى ناحيته، وضاق المسجد القديم بحي الطالعة حول دور بني العشرة وقصورهم عن المصلين.

قالوا: وسُمِّي بِجَامِعِ الشهباء لكون امرأة شهباء، أو تسمى الشهباء كانت به تعلِّم النساء الضروري من أمور الدين.

والرَّاجح أنه سُمي بهذا الإسم لأن سقوفه كانت محمولة على أعمدة من الرخام الأصفر والأشهب، نقلت إليه من خرائب شالة، وكان بعضها ما زال موجودا إلى زمننا هذا، قبل إعادة بنائه. ولم يكن في بنائه الأول ضخامة ولا فخامة ولا فن ولا زخرفة، ممَّا يدُلُّ على أنه بُنِيَ بسرعة للضرورة الداعية إليه في ذلك العهد بتلك الناحية من المدينة، لمَّا تناسق عمرانها، وكثر الازدحام بها، وهو – وان كان من المساجدالقديمة بسلا – فليس بالعتيق على التحقيق، لأن مسجد حي الطالعة كان موجودا قبله من عهد بني يَفْرَن، وحوله نزل بنو العشرة كما تقدَّم.

وقد كان تخرَّب وصار أطلالا بالية، وبقي مهجورا مُعطَّلا دهرا طويلا، إلى زمن السلطان المولى يوسف، رحمه الله، فأُصلْح ورُمِّمَ ما تلاشى من سقوفه وحيطانه، ولم يغير شيء من هيكله وهيئته، وأحدثت فيه خطبة الجمعة، وهل كانت فيه قبل ذلك ؟ لا ندري، وليس لدينا الآن نص صريح نعتمد عليه في الإثبات أو النفي. والظاهر أنه لمَّا تخرب المسجد الأول بحي الطالعة، نُقِلَتْ إليه الخطبة مؤقتا، حتى أعاد أبو يوسف يعقوب المنصور بناءه، وأدمج فيه المسجد الأول، فعادت الخطبة إليه.

ولذلك لمَّا رُمِّم وأُصلْح ما تلاشى من حيطانه، وأراد بعض أهل سلا إحداث الخطبة به، اختلفوا فيها، فكتبوا سؤالا لأهل العلم يستفتونهم في ذلك، فأفتاهم جماعة من الأعلام، مبيِّنين لهم حكم الشرع في تعدد الجمعة في الأمصار، الكبيرة والصغيرة.

وقد رأينا أن نثبت هذا السؤال والجواب عنه هنا لارتباطه بالموضوع، واتصاله به اتصالا محكما خشية ضياعه.

فتوى أهل العلم في حكم إحداث الخطبة بجامع الشهباء

السؤال :

الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله، وكل من اهتدى بهداه.

سادتنا العلماء الاعلام، أئمة الهدى ومصابيح الظلام .

جوابكم الشافي، ونصحكم المُقْنِع الكافي عن مصر صغير، تُقام فيه جمعتان : إحداهما بمسجد قديم أُسس بنيانه صدر المائة الخامسة ولم تزل الجمعة قائمة فيه منذ بُني الى زمننا هذا.[203]

وقد كان جُدِّد بنيانه في المائة السادسة، لانهدام وقع فيه، وهو مسجد كبير جدا بحيث يسع اهل المصر وغيرهم كما هو معلوم[204].

والاخرى بمسجد اخر محدث بعده بكثير.[205] ثم إن ناظر الوقف أراد إحداث جمعة ثالثة من غير حاجة داعية لذلك ولاضرورة،[206] فهل أيها السادة الأجلَّة يجوز إحداث ما ذكر لغير حاجة ولا ضرورة، وتَصِحُّ فيه الجمعه أم لا يجوز ولا تصح فِيهِ ؟ أجيبوا جوابا شافيا ولكم الأجر والثَّواب من الملك الوهَّاب.

الجواب :

الحمد لله رب العالمين، وعليه اعتمد، وبه أستعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيئين، وعلى ءاله وأصحابه أجمعين، وعلى من انتهج نهجهم، وطرق طريقهم من التابعين، الى يوم الدين.

203) المراد به المسجد الذي بنى بنو العشرة دورهم حوله.
204) المراد به المسجد الأعظم الموجود الآن.
205) المراد به مسجد الشيخ سيدي أحمد حجي.
206) المراد به جامع الشهباء.

أمًّا بعد، فالجواب بتوفيق الله ومعونته عن السؤال أعلاه، أنَّ إقامة الجمعة في أكثر من مسجد واحد من غير ضرورة داعية الى التعدد مِمًّا أجمع على منعه الأئمة الاربعة الذين استقرَّ اجماع المسلمين على تقليدهم : مالك، والشافعي، واحمد بن حنبل، وأبو حنيفة.

بل مَنْعُ التعدد حينئذ لم يخالف فيه من أيمة المذاهب كلها، ولو غير الاربعة، الا داوود الظاهرى، وعطاء، ومحمد بن الحسن في احد قَوْلَيْه، كما حكى ذلك أصحاب خلاف الأئمة واتفاقهم، كالحفيد في البداية، والشعراني في الميزان، وفي خصوص نصوص أئمة مذهبنا قال ابن الحاجب : «وفي تعددها بالمصر الكبير، ثالثها إنْ كان ذا نهر أوْ معناه مما فيه مشقة.»

ومثله لابن جزى في «قوانينه»، ونصه : «وفي صلاة الجمعة في مسجدين في مصر واحد ثلاثة اقوال، يُفَرق في الثالث بين أنْ يكون بينهما نهر من ماء وما في معناه أمْ لا، واذا قلنا بالمنع صحَّتْ جمعة الجامع الاقدم». وقال الشافعي: «من جمع اولا صحَّت صلاته». قال ابن عبد السلام : «والتوضيح المشهور المنع برعاية لفعل الأولين وطلبا لجمع الكلمة، والجواز ليحيى بن عمر، والتفصيل لابن القصَّار». وما نسباه ليحيى بن عمر من الجواز، ليس على إطلاقه، بدليل كلام ابن عرفة، و نصه :

و لا تقام بموضعيْ مصر، ابن عبد الحكم و يحيى بن عمر، ان عظم كمصر فلا باس بها بمسجدين، ابن القصار إذا كانت ذات جانبين كبغداد، اللخمِي، إنْ كثروا وبَعُدَ من يصلي بأفنيته، فأنت ترى مذهبنا انحصر في ثلاثة أقوال :

– **الأول** : المنع، و لو في المصر الكبير جدا كمصر، وبغداد، وهو المشهور كما رأيت لإبن عبد السلام، و تبعه خليل في التوضيح، و لذا اقتصر عليه في المختصر، الذي هو مبين لما به الفتوى بقوله : بجامع متحد.

– **الثاني** : إذا عظم البلد كمصر و بغداد، جاز تعددها بمسجدين، وإلاَّ فلا. وظاهر هذا القول، أنه لا يجعل ثالثاً أصلا، وهو الذي صرح به القاضي عبد الوهاب في المعونة ونقله في المعيار جازما به، قائلا : لم أرَ جواز أكثر من اثنين و لو للضرورة، إلاَّ لابن بشير في تنبيهه. و صرَّح العلامة سيدي الطالب بن الحاج بِأنَّ جواز الثالث فَمَا فوق إنما هو قول خارج المذهب.

– **الثالث** : إنْ كان المصر الكبير ذا نهر أوْ نحوه من حاجز يعسر معه الذهاب للمسجد جاز التعدد في مسجدين، وإلاّ لم يجز إلاّ في المصر الكبير، فان قلت :

إذا مشيْنا على القول من عدم التعدد، وكان المسجد الواحد لا يكفي أهل البلد أو على القول الثاني، الذي هو جواز جعل جُمُعتين فقط في المصر الكبير جدا، وكان الإثنان لا يكفيان أهله، أو على الثالث وهو أنه إذا كان هناك فاصل تحصل معه المشقة جاز التعدد في مسجدين فقط وإلاَّ فلا، وكان الواحد لا يكفي اهل كل جهة من جهتي البلد، فلا محيد حينئذ عن التعدد على قدر الحاجة من غير تقييد بالواحد ولا بالاثْنين، وإلاَّ لَزِمَ ان لا يصلي الجمعة جميع من تَلْزَمُه، قلت :

إن بَنَيْنا على المشهور وَجَبَ توسيع المسجد بما حوله من رباع الأحباس او ملك الناس، ويُجْبرون على بيعها بالقيمة، إذ هذا مما يُجبر فيه المالك على بيع ملكه، وإنْ بنينا على القول الثاني، وجب توسيع المسجدين كذلك، على ماجزم به صاحب المعيار من عدم جواز الثالثة فما فوقها، وانتصر له، وردَّ على من خالف فيه بعد أسئلة وأجوبة على منعِ ما زاد على اثنين ولو للحاجة، أخذا من كلام القاضي عبد الوهاب، و هو ظاهر كلام ابن جُزي في «القوانين»، وقد قدَّمتُ لك نصَّه، وكذلك يقال إذا ضاق مسجد كل جانب عن أهله، وأما علَى ما أفتى به الإمام سيدي محمد السّنوسي في نوازل الجمعة من المعيار، من انه لا بأس بإقامة الجمعة بثالث، وما زاد عليه على حسب الحاجة والضرورة فلا اشكال.

وبعد تبييض هذا، وجدتُ في المعيار من جواب لصاحبه، فان قلت :

إذا وقع التفريع والبناء على المشهور من منع تعدد الجمعة في المصر الكبير، فما الحكم اذا ضاق المسجد الجامع ورحابه عن حمل اهله، قلت : الحكم في ذلك وجوب الزيادة في الجامع حتى يحمل أهلَه، فإن كان ما حواليْه من الرَّبع والعقار مملوكا جبر أربابه على بيعه بالقيمة، رشيداً كان مالكه أوْ سفيها. المراد منه، فالحمد لله على الوفاق، ولا يخفى أنَّ البناء على القول الثاني والثالث يجري فيه هذا كما ذكرناه.

وفي جواب لصالح المعْيار عن السؤال محصلّه : هل تصح الجمعة بجامع القرويين على وجه مشهور أوْ راجح في المذهب المالكي، ما نصُّ المراد منه : مقتضى النصوص المذهبية، المنعُ من تعدد الجمعة في المصر الواحد مع السعة والاختيار، وانتفاء الضرورة والاعذار.

وممَّن نصَّ على ذلك من شيوخ المذهب المالكي : اللَّخْمي والمازرى وابن الجلاب، وعبد الوهاب، وابن بشير، وغيرهم ممَّن لا يُحصى كثرة، ثم ذكر نصوصهم، ثم قال : فاذا تقرَّر المنع من تَعَدُّدِ الجمعة في الموضوع الواحد مع الاختيار، هل يجوز إنْ دَعتْ الضرورة إليه أم لا.

ثم اذا وقع ذلك ونزل، نقول : تصح الصلاة بعد الوقوع والنزول، على ما مشى عليه صاحب المعيار من ان تقليد قول ولو خارج المذهب يرفع الخلاف، وليت شعري اي محوج لنا الى تضييق الحكم في هذه العبادة العظيمة التي امر الشرع فيها بالاجتماع، وعدم الافتراق، فما هو الا الجهل او العناد، فلو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، وفي الحديث، لا يومن احدكم حتى يكون هواه تابعا لما جئت به، وقد قال الشيخ خليل في مختصره المبين لما به الفتوى : بجامع مُتَّحد، والجمعة للعتيق، فقوله والجمعة للعتيق، هو حكمٌ لمفهوم قوله متحد بمعنى انه اذا خولف حكم الاتحاد، وعُددت الجمعة، فانما صحة الجمعة للعتيق، لا لغيره، وهو فقه مسلَّم عند الشراح والحواشي، ومن راجع كلام صاحب المعيار في جوابه المشار اليه، تَروَّى من زُلاله، وعرف الحق برجاله، وناهيك به، فقد قال فيه الامام ابن غازي : انه جبل من علم يمشي على وجه الارض.

وقد ذكر محصل جوابه في تقييده الذي اعاده في المسئلة، وسمَّاه : "تنبيه الغبى النُّدُس، على خطإ من سوى بين جامع القرويين والاندلس" بقوله : وكان حاصل جوابي من ذلك، أنَّ مشهور الاقوال عدم صحتها في القرويين لكونها ثانية، وأنَّ الجمعة لا تصح في العنانية من فاس، والحلوية، وجامع القصر من تلمسان، إلاَّ على قولٍ خارج المذهب.

وقوله الا على قول خارج المذهب، هو راجع للعنانية وما بعدها، لا للقرويين، لانَّها أحدثت فيها الجمعة، لكون عدوتها منفصلة بالنهر عن عدوة الاندلس قبل جعْل الجسْر عليه، فتقرُّر الجامعين كان قبل بناء الجسر كما علم من التاريخ، وما كان كذلك، فالقول فيه داخل المذهب كما علمت، هكذا ينبغي فهم كلام المعيار.

ثم ان النفس قد تتشوَّق هنا لامرين : احدهما، حَدُّ المصر الذي يجوز التعدد فيه على أحد الاقوال المذهبية، وان كان ضعيفا، حتى نعرف هل بلدة سلا من المصر الكبير الذي يجري فيه الخلاف المذهبي، أو الصغير الذي يتَّفق فيه عدم التعدد في المذاهب كلها إلاَّ على مذهب عطاء ومن معه، ثانيها ماهي الضرورة التي تبيحُ في المصر الكبير التعدُّدَ على القول المذكور.

والجواب، أنَّ نصوص الأئمَّة تدلُّ على ان المصر الكبير، ما كان كمصر وبغداد والشام،[207] كما هو صريح تمثيلهم، وقد تقدَّم هذا، في كلام صاحب المعيار، وكذلك هو في كلام غيره من أئمة المذهب، حيث يذكرون القول الثاني من الاقوال المذهبية.

---

207) لعل المراد بالشام مدينة دِمَشق منه لأنه قطر كما هو معلوم

وبلدة سلا كلها لاتكون كمحلَّة واحدة من محلات مصر وبغداد.

وأمَّا الضرورة، فقد وقعت مبينة في كلام لبعض الأئمة بعُسْر وصول بعض اهل البلد للمسجد، وبكثرتهم جدًا، حتَّى انهم اذا اجتمعوا في المسجد الواحد لاَ يضْبِطُ من في آخر المسجد صلاة الامام.

قال الامام مالك : اذا لم يسعهم جامع واحد، جاز أنْ تُصَلَّى في جامعين. وقال اللخمي : وإقامَتُها بمسجدين أوْلى اذا كثر الناس وبعد من يصلِّي بالافنية من الجامع، لان الصلاة لهم حينئذ لا ياتون بها على حقيقتها، وقد يكون الامام في السجود، وهم في الركوع.

وقال يحيى بن عمر وابن عبد الحكم: يجوز ايقاعُها بالموضعين اذا عظم المصر، نقلها صاحب المعيار، فاذا عظم المصر، شق الوصول للمسجد على من هو بعيد منه، وهذا كله مفقود في نازلة السؤال.

فالحاصل، أنَّ إحْداث المسجد الثالث للجمعة في صورة السؤال، لا يجوز الاقدام عليه بحال، والعلم لله الكبير المتعال.

قاله عبد ربه : احمد بن المامون البلغيثي الله وليه ومولاه.

وبمضمنه يقول عبد ربه، الفقير الجاني، عبد العزيز بن محمد بنَّاني، لطف الله به وبالمسلمين :

الحمد لله، وحسبنا الله ونعم الوكيل

الفقه المُسطَّر صدره في جواب السؤال، وافٍ بجميع فصوله، واغني عن المزيد، إذ قد جمع أطراف المسألة، بحسن انتساقه وبديع قيله.

ولله دَرُّ أبي العباس الوانشريسي في تحريره وتحصيله، فلا يعدل عنه، بل يتعين المصير إليه، وإنْ نقل سيدي الطالب، رحمه الله، ان العمل جرى بالتعدد في المصر بحسب الحاجة في مشارق الأرض ومغاربها، فقوله : بحسب الحاجة هو مركز القول بالتعدد ومبناه الذي بني عليه، ولا حاجة تدعو حسبما قرر في السؤال، والله أعلم.

وكتبه عبد ربه تعالى : عبد القادر بن قاسم لطف الله به.

ومن كتب في هذه النازلة، شيخنا العلامة مفتي سلا أبو المسك سيدي الطيب بن المدني الناصري السلاوي، وألف كتابه المسمى «رفع القناع، عما في تعدد الجمعة من الإجماع»، سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف (1939/1358)، وانفصل فيه على القول بالتعدد، وجواز الخطبة المتنازع فيها بجامع الشهباء.

وبمقتضى هذا رجح صوت القائمين والمطالبين بأحداث الخطبة فيه، فأحدثت، وجرى العمل بها من ذلك العهد إلى الآن.

* * *

وفي عهدنا هذا، وهو سنة أربع وثمانين وثلاثمائة وألف (1964/1384) تداعت جل جدرانه وسقوفه الى السقوط، فتعطل، ونقلت الخطبة التي كانت به الى الزاوية الدرقاوية مؤقتا.

ثُمَّ تولت وزارة عموم الأوقاف والشؤون الاسلامية تجديده، فهُدِّم كله حتى لم يبق فيه حجر على حجر، ورُدمت أرضه وسويت مع الطريق لأنه كان ينزل اليه عند الدخول بعدة درج، وأعيد بناؤه من جديد على هيئة غير التي كان عليها، روعي فيها روح العصر الجديد وتقليد بعض المعابد الأروبية، وزُلِّج صدره ومحرابه بالزليج الفاسي، وأضيف إليه دار وضوء جيدة ومحلات للطهارة، وألحق به حوانيت ومخازن للتجارة صارت حُبُساً عليه، وشيد مناره على شكل لطيف فيه هَيَفٌ و رقة وجمال.

وفي عشية يوم الإثنين ثالث ذي الحجة عام أربعة و ثمانين وثلاثمائة وألف الموافق لخامس أبريل سنة خمس وستين وتسعمائة وألف (3 ذي الحجة 5/1384 أبريل 1965) احتفل باتمام بنائه وتدشينه بمحضر سعادة وزير عموم الأوقاف والشؤون الدينية، أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بركاش، وعامل العدوتين الدكتور بن بو شعيب، وباشا المدينة وناظر أحباسها ونخبة من علمائها وأعيانها. فصلوا به صلاة العصر، وألقى معالي الوزير كلمة عبر فيها عما للمساجد من أثر بليغ في رفع المستوى الديني بين المسلمين، وما أعدَّ الله من الأجر و الثواب لبانيها ومصلحها، والمعين على مصالحها، وأشاد بأعمال وزارته في بناء المساجد وإصلاح ما تلاشى منها بسائر المملكة المغربية بأمر من صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني أيده الله ونصره.

ومن ذلك اليوم فُتحت أبواب مسجد الشبهاء بسلا في وجوه المصلين لأداء الصلوات الخمس، وإقامة شعيرة الجمعة، وتَمَّ احياء أثرٍ قديم بهذه المدينة، من عهد المرابطين، وان

كان لم يبق منه إلاَّ الإسم. لان البناء الموجود اليوم، هو غير البناء الاثري الذي خربه الدهر، واعفته الايام، ولا مناسبة بين القديم والحديث في شكل ولا هيكل.

جزى الله السَّاعي في الخير واحياء معالم الدين احسن الجزاء في الدارين ءامين.

* الضفة اليسرى

علمنا مما تقدَّم كيف نشأ العمران أولاً على الضفة اليمنى لنهر أبي رقراق، وتكوَّنت منه مدينة سلا الحديثة تدريجيا، إلى أنْ صارت مصرا زاهرا مزدهرا على يد أربابها العشريين، في عهد اليفرانيين والمرابطين بعدهم.

وقد كانت الضِّفَّة اليسرى المقابلة لها، لا شيء فيها، إلاَّ أنها يجتمع فيها المرابطون والمجاهدون في برغواطة، حسبما سياتي بيانه.

القصبة : (وهي قصبة الودايا اليوم)
في عهد المرابطين

وفي عهد المرابطين نشأ العمران بها ايضا، وابتدأ من القصبة. وتاريخ نشوء هذا العمران يستدعي بحثا طويلا، للْجَمع بين اقوال المؤرخين والجغرافيين الاقدمين، واستنتاج الحقائق التاريخية منها. وهو موضوع خاص يضيق عنه بحثنا هذا، وانما نريد ان نلم به الماما لنبني عليه كيف تدرجت حالتها العمرانية الأولى في عهد الدول السابقة الى ان نزل بها الاندلسيون المهاجرون وصيَّروها قاعدة بحرية قرصانية، كما سياتي تفصيله في محله. ولا تخفى حصانةُ موقعٍ هذه القصبة، وَوَضْعُه الجغرافي الطبيعي من البحر والنهر.

موقع القصبة الاستراتيجي واهميته

قال ليون الافريقي :[208] إنَّ قصبة الرباط بنيت على مصب نهر ابي رقراق، ويكتنفها النّهر من جانب، والبحر من جانب آخر. وعليه فهي إذاً شبه جزيرة.

---

208) ص 164 من ج 1.

وقال جاك كاي : «JAQUES CAILLÉ» في «تاريخ الرباط»[209] ما خُلاصته : ان الموقع الغريب، والوضع الطبيعي العجيب، الذي انفردت به هذه القصبة بين البحر والنّهر، يؤذن بانها كانت مسكونة منذ العصور الاولى والازمنة العريقة في القدم، وطُوبُّوغْرَافيتها تدل على انها تصلح ان يُتخذ منها حصنٌ او معسكر مخندق بالصخور العالية الصعبة المرتقى. ثم ابدى احتمالا وقال : انه ممكن الوقوع – لاسيما إذا عضدته بعض النقول – او العثور على آثار قديمة.

وهو انه لا يمكن للرومان الذين كانوا بشالة، أن يهملوا هذا الموقع الحربي الطبيعي الغريب الفريد، المهيمن على مصب النهر، والحاكم على مدخله واتصاله بالبحر المحيط.

ولابد انهم على الاقل، كانوا اتخذوا به مركزا حربيا، او مرقبا بحريا، لحراسة الملاحة والسفن المترددة بين شواطئ مستعمراتهم بافريقية الشمالية. والغالب على الظن انها كانت تاوي اليه، وتحتمي به، لِمَا اختصَّ به من صلابة ومتانة الصخور المخندقة على شواطئه، والمحدقة به، لان خطوط المواصلة في العهد الروماني الافريقي، كان الاعتماد فيها على السفن البحرية، اكثر من القوافل البرية. ثم قال : ويغلب على الظن أنه كانت هناك طريق خاصة تصل بينها وبين مدينة شالة، يقال انه عثر على بعض اثارها...؟ كما عثر على بعض القطع من المسكوكات الرومانية بساحل البحر بالقصبة، بل بالقصبة نفسها.

وعقَّبَ على هذا بانه مجردُ احتمال، لا يثبت الا بما يؤيده ويعضده من الاكتشافات الأثرية الناطقة به، والمفصحة عنه، ولكن الوقوف عليها متعذِّر الآن، لاتصال العمران بالمحل الذي يظن أنَّها توجد به.

قصر بني تاركة وحصن تاشفين بن علي المرابطي

أمَّا في العهد الاسلامي، فاول ما ظهر محلُّ القصبة في التاريخ، بَلْ وأرض الرباط الحافة به ظهر مقرونا بصفته رباطا للمجاهدين في برغواطة. وعليه فيُعتبر ان اول عمران ظهر بمحل القصبة في العهد الاسلامي، نشأ عن نزول المجاهدين به للجهاد في الفئة الضالة البرغواطية. والظاهر أنَّه وقع الاختيار عليه، لاتصاله بدون فاصل طبيعي بالبلاد

209) ص 32 وما بعدها من المجلد الأول، لخصناه تلخيصا.

المُجَاهَد فيها، وكذا أرض الرباط المتصلة به. ولحصانته وموقعه الجغرافي الفذ، يمكن ان تشيد به قصبة او حصن حربي ءامن محروس.

وهو ما يؤخذ من نص ابن حوقل، وان كان عامًا في سائر الاراضي الحافة بشالَّة على العدوتين، وقد جاء فيه :

"... ومن ورائه (يعني وادي سبو) الى ناحية بلد برغواطة على نحو بريد من وادي سلا، واليه تنتهي سكنى المسلمين، وهي رباط يرابط فيه المسلمون، وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة، (المقصود بها شالة) قد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباط يَحُفُّ بها، وربما اجتمع في هذا المكان، من المرابطين مائة ألف انسان، يزيدون وينقصون، ورباطهم على برغواطة، وهي قبيلة من قبائل البربر على المحيط، متصلين بهذه الجهة التي شقت بلاد الاسلام، اليها يعزون وينتسبون..."

وقد تضمن هذا النص الصَّراحة بأنَّ شالة، في عهد ابن حوقل، في الربع الاخير من القرن الرابع الهجري، الموافق للربع الاخير من القرن العاشر الميلادي، كانت خربة، وانَّ ارض الرباط كانت في ذلك العهد رباطا ومجتمعا للمجاهدين، وهي شاملة لارض القصبة وداخلة فيها، ومعدودة منها.

كما تضمن انه كان يجتمع بهذا الرباط مائة الف مجاهد، يزيدون وينقصون، مرابطين على برغواطة.

ولكن ليس لدينا نص يصرح بِأنَّ هؤلاء المجاهدين شيدوا حصنا او بناء حربيا بارض القصبة، وان كان من لوازم اجتماعهم ومرابطتهم.

إلاَّ أنَّ الجغرافي الفزاري، الذي زار الاندلس، كما اخبر بذلك عن نفسه سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة (533 / 1138) اشار لوجود قصر يعرف بقصر بني تاركة، قال : على ضفة وادي اسمير، وهو احد اسماء ابي رقراق.

ثم قال : وهذا القصر مُشَيَّد بالمحل الذي توجد به اليوم مدينة المهدية التي بناها الخليفة عبد المومن على الضفة اليسرى للنهر، والمهدية هي القصبة.

واذا كان هذا الجغرافي زار الاندلس في التاريخ المذكور، وذكر قصر بني تاركة، فلاشك انه كان موجودا في وقت زيارته، ولكن لا يفهم منه هل وُجد قبل ذلك، ولا متى وُجد.

وبنو تاركة المنسوب اليهم هذا القصر، من صنهاجة اللثام، ولعل المرابطين جاءوا بهم، وانزلوهم بمصب ابي رقراق.

وجاء في «تاريخ البيان المغرب، في اخبار ملوك الاندلس والمغرب»، لابي العباس احمد ابن عذاري ما ملخصه[210] ان عبد المومن، لمًا وصل الى مدينة سلا، تغلَّب عليها من ساعته، وفتحها قبل راحته، وانْضَاقَتْ له قصبتها التي كان بناها تاشفين في الرباط.

ومثله في «الحلل الموشية» :[211] انه لما وصل الى سلا، وتغلب عليها من ساعته، وفتحها قبل نزوله، طاعت له قصبتها التي كان بناها الأمير تاشفين بالرباط.

فقد اتَّفَقَ هذان المؤرخان، على ان تاشفين كان له حصن بالرباط. وحيث إنه كان ثالث ملوك المرابطين، ولم تدم دولته الا نحو ثلاث سنين، من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة (1142/537) الى سنة اربعين وخمسمائة (540 / 1145)، فلعل هذا البناء التاشفيني، او الحصن المرابطي شُيِّد في ذلك العهد.

ويحتمل ايضا انه كان أَمَرَ ببنائه قبل ذلك، لمًا كان أميرا بالاندلس عدة سنين قبل سنة احدى وثلاثين وخمسمائة (531 / 1136)، أَوْ لمَّا صار ولي عهد أبيه، والْتَحَقَ بالمغرب، وتخلَّى له والده عن مباشرة الاعمال، لاشتغاله بنفسه.

وعلى هذا فان هذا الحصن بُني ما بين سنتي احدى وثلاثين وخمسمائة (1136/531) واربعين وخمسمائة (1145/540). أوْ على ما يوخذ من نص ابن عذاري، ونص «الحلل الموشية» المتقدمين ما بين سنتي سبع وثلاثين وخمسمائة (537 / 1136) واربعين وخمسمائة (540 / 1145).

وذكر عبد المالك بن صاحب الصلاة في كتابه «المن بالامامة على المستضعفين»[212] أنَّ موضع المهدية، وهي القصبة، كان به برج للسكنى. وحيث انه كان يطلق عليه تارة قصر بني تاركة، وتارة حصن تاشفين، مع انه – على مايظهر – بناء واحد، في محل واحد، فلعله أُطْلِقَ عليه قصر بني تاركة بالنسبة لأوليته او النازلين به، وحصن تاشفين، بالنسبة لبانيه او مجدده. لأنَّ الغالب على الظن أنَّ قصر بني تاركة كان موجودا قبل تاشفين بن علي، وإنَّما جدَّده وأعاد بناءه وصيَّره حِصنا او قصبة.

وإلى هذا الحصن يشير ابو عبد الله محمد بن علي الدكالي في أرجوزته «اتحاف اشراف الملا، ببعض اخبار الرباط وسلا»[213] بقوله :

---

210) ص 20 طبع تطوان ج 3.

211) ص 102 طبع تونس .

212) ص 446 طبع بيروت .

213) مخطوط الخزانة الناصرية.

وَبِالرباط خَطٌّ تاشَـفـيـنُ	قَـصَـبـةٌ بِرِبْـوَةٍ تَـزيـنُ
فكان أوَّلَ اخْـتِطَاطٍ يُعْـرفُ	لَدَى رباط الفـتح وَهْوَ انْصَفُ

وقال ايضا :

وأسَّسَ الحِـصْنَ بِحَلْقِ الوادي	قَصَبَـةٌ ذَاتَ ارْتِفَـاعٍ عـادي
أميـرُهـا تَشْـفِـينُ من أهْلِ اللِّثَـامْ	مُحَصَّنًا وادي المَجَازِ أنْ يُسَامْ

وما جاء في جغرافية ليون الافريقي[214] تعليقا، مِنْ أنَّ عبد المومن بنى اول بناء له بارض الرباط، في محل قصر كان ينسب الى بني كنانة، فلعله تصحيف بتارگة، لاننا لم نقف على هذه النسبة الكنانية في محل آخر.

هذا، وليست لدينا معلومات خاصَّة، ترجع الى الغاية التي قصد منها تاسيس قصر بني تارگة على القول باقدميته، وبناء الحصن الثاني، المنسوب إلى تاشفين على القول بأنَّه بُني بعده، أو على انقاضه، في وقت خاص، أو ظروف مُعيَّنة، إلاَّ ما يُفْهَمُ عموما من ان المراد باولهما، الجهاد في البرغواطيين، وثانيهما، الدفاع عن الدولة لمَّا اصبحت مُهَدَّدة بخطر الموحدين.

بناء على ما نصَّ عليه ابن البيدق في كتابه «اخبار المهدي»[215] من ان المرابطين، لمَّا استفحل امر الموحدين، وتدفَّقت عليهم جيوشهم من كل صقع من الاصقاع المغربية، هبُّوا للدِّفاع عن حوزتهم ومملكتهم بكل ما لديهم من وسائل الدفاع، ومن جملتها، ما اسَّسوه من الحصون والقلاع في المعاقل والجبال والمواقع الستراتيجية تحصينا وحماية للمدن والقبائل من عادية العدو، ولعلَّ مصبَّ ابي رقراق من جملتها لأهميته وموقعه الجغرافي من المغرب الجنوبي والشمالي، خوفا من اساطيل العدو أن تطرقهم من البحر، كما فعلت في محلاَّت أخرى من اطراف المملكة وسواحلها.

والحاصل من هذا كله، أنَّ موقع القصبة عند مصب النهر في المحيط الاطلانطيقي، كان منذ ازمنة الفتح الاسلامي الاول وما بعدها رباطاً ومُجتمعاً يجتمع فوق صخوره البحرية مئات ءالاف المرابطين والمجاهدين في البرغواطيين.

---

214) ص 165 من ج 1

215) ص 128، طبع باريس 1928.

ومن لوازم هذا الجهاد والمرابطة، بناء الحصون وتشييدها، اتِّقاءً للهجمات المتوقعة براً وبحراً، إلاَّ أنَّ ءاثار هذا القصر التاركي، او الحصن المرابطي التاشفيني، عفت واختفت بما بني فوقها من المباني والآثار الموحدية، والعمران الذي نشأ بعد ذلك بالقصبة، بعد نزول المهاجرين الأندلسيين بها. ولم يبق الا بعض الاسوار والاسس الغائصة في اعماق الارض يقال إنها من بقايا ءاثار السور المرابطي الذي رفع على هيكله السور الموحدي، وربُّما تُمْكِنُ معرفته و تمييزه من مواد بنائه الحجرية والآجورية والطينية، ومقابلتها بالمواد التي بنيت بها الحصون المرابطية الأخرى بأطراف المملكة المغربية في ذلك العهد.

وهذا من خصائص علماء البحث قي الأثار القديمة الأركيولوجية وفحصها وتعيينها، وتمييز بعضها عن بعض.

وعلى كل حال، فإن عمران القصبة ابتدأ بعد خراب شالة، كسلا، بقصد الجهاد والدفاع عن الدين، وفي عهد المرابطين، بقصد حماية الدولة وصيانة كيانها، من هجوم المعتدين. ويظهر انهم كانوا اول من سارع وشرع في تحصين هذه الصخرة العظيمة الجاثمة كالاسد، او المركز الحربي المهم، على ساحل هذا المحيط الواسع المظلم، المجهول ما وراءه في ذلك العصر. واستبحر عمرانها بعد ذلك في عهد الموحدين، ابتداء من دولة عبد المومن بن علي، منهم، حسبما سياتي بيانه في محله.

الفصل الثالث

عن العُدوتين : سلا والقَصَبة
ومآثرهما في عهد الموحدين

المبحث الأول

الموحدون بسلا

لما نسخت دولة الموحدين دولة المرابطين بالمغرب، اهتمت بمدينة سلا اولا اهتماما كبيرا، لموقعها الجغرافي منه. لاسيما وقد كان عمرانها في امتداد وزيادة متواصلة لأهميتها الحربية في ذلك العهد، بالنِّسبة الى شمال المملكة وجنوبها، ولقربها من البوغاز ومراسي العبور للاندلس، كالقصر، وطنجة، وسبتة.

ولا يخفى علينا أن عبد المومن الطَّموح البعيد النظر، كان ينظر من أول يوم برز فيه للمطالبة بالاستبداد بالحكم والسياسة والرياسة العظمى إلى الضفة الشمالية للبوغاز، نظر المتحفز للوثوب، المتربص بمن فيها الدوائر، لأنها في ذلك الوقت جزء من الامبراطورية اللّمثونية، وقطعة تكميلية للمملكة المغربية، ولذلك وجّه عنايته لسلا بعد فاس، وقبل مراكش.

احتلال عبد المومن لمدينة سلا

جاء في تاريخ "البيان المغرب، في أخبار ملوك الأندلس والمغرب" لأبي العباس أحمد ابن عذاري[216] أن عبد المومن، لما فرغ من أشغال فاس وترتيبها، ورتب على حصار مكناسة عسكرا يقيم عليها، اخذ في الحركة على تَوْعدة واستعداد إلى منازلة مراكش.

ولمًا وصل إلى مدينة سلا، امتنع أهلُها منه، وحين وقف على مجاز الوادي القاه بسعده في آخر مده فأمر عساكره أن يَعْبُروه بأجمعهم. وتغلَّب على سلا من ساعته، وفتحها قبل راحته، وأمَّن أهلها، ورتب أحوالها، وانضافت لها قصبتها التي كان بناها تاشفين في الرباط.

---

216) ص 20 والتي بعدها من ج 3 طبع تطوان سنة 1380/1960.

وكان دخوله لسلا في السابع من ذي الحجة من سنة أربعين وخمسمائة (7 ذي الحجة 540 /22 ماي 1146).

وقال ابن خير : كان فتحها على يد رجل يُسمى بيورك وابنيه : محمد وعلي. وذلك أنهم أرسلوا إلى الموحدين، فوصلوهم ليلا وصنعوا السلاليم، فصعدوا بها على السور، وقتلوا كل من وَجَدُوهُ على السور، ودخلوا سلا، فوجدوا فيها أناسا، وهرب آخرون في حلق الوادي، فرجع عليهم البحر فغرقوا.

وعيَّد فيها عبد المومن عيد الأضحى، وولَّى عليها عبد الواحد الشرقي.

وأقامت على طاعة الموحدين إلى أن ظهر الماسي، المعروف بابن هود، ببلاد السوس، فقتل أهل سلا عاملهم، وقدَّموا عليهم والده هودا، فبقي بها إلى أن قُتِلَ ابنه وعادت إلى طاعة الموحدين إلى انقضاء دولتهم...

وقد كان هذا الثائر سوقة من أهل سلا، وأبوه سمساراً بها يبيع الكنابيش.

ولمَّا فتحها عبد المومن في هذه المرة الثانية، ثَلَّمَ سورها[217] كفاس وسبتة وغيرها من قواعد المغرب لِئَلاَّ تستعصى عليه مرة أخرى.

وهناك احتمالٌ آخر، وهو أن سلا لم يكن لها سور قبالة الوادي، منذ انتشار العمران بها، لأن الأقدمين كانوا يعتبرون الأودية والأنهار الجارية الكبيرة والاجراف العالية بمنزلة الحصون والأسوار لما يؤسِّسونه من المدن والقرى حولها، مثال ذلك مدينة الرباط أمامها، فإنَّ الأسوار الموحدية، وقفت عند أجراف الوادي، ولم تتجاوزه اكتفاء به.

وحيث أنَّ تثليم عبد المومن لأسوار بعض المدن الكبرى، ومنها سلا، ذكره بعض المؤرخين، فربَّما كان هدمه بسلا للسور القبلي بناحية باب فاس، و قد كان موجودا في ذلك العهد، وهو على طريقه من مكناسة إلى سلا، واتَّصلت ثلمته بالناحية المقابلة للوادي، ومنها وَلَجَ الإصبان إلى المدينة كما سياتي الكلام عليه في عهد بني مرين.

وقد اتخذ عبد المومن مدينة سلا بعد افتتاحها مركزا حربيا تجتمع فيه وفي الفضاء الواسع على ضفة النهر اليسرى حول القصبة، جيوشه وقوته العظيمة المسخرة لفتح افريقية الشمالية كلها والأندلس، وتكوين وحدتها التاريخية، أو ما يُطلق عليها اليوم اسم المغرب الكبير.

---

217) «ابن خلدون» ص 310 من ج 1، طبع الجزائر، و«الاستقصا»، ص 11 من ج 2 طبع القاهرة. وص 26 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة.

ثم صارت تجتمع بها وحولها برباطها في عهد أولاده من بعده الجيوش والغزاة بقصد العبور للجهاد والمرابطة بالثغور الأندلسية.

وكان يُطْلَقُ على محل اجتماع هذه الجيوش في ذلك العهد "رباط سلا"، منذ كان يجتمع بها المجاهدون، ويرابط المرابطون لمحاربة البرغواطيين ببلاد تامسنا وما وراءها كما تقدم، وربما بلغ عدد هؤلاء المجاهدين مائة ألف أو يزيدون. وإلى ذلك يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي السلاوي في رجزه المتقدم :

واشْتَهَرَتْ في عَهْدها القَديمِ	بِمَرْبط الجهادِ في الإقْليمِ
في رَابعِ القُرونِ كانت مُجْتَمَعْ	لمائةٍ من الألوف قَدْ وَقَعْ
لِغَزْوِ كُفَّارِ البَرَابِرِ وقَدْ	عَمَرُوا تامَسْنا وشَرُّهُمْ وَقَدْ
فاقْتُلعَتْ جُرثومَةُ الأغْمَارِ	مِنْ كُلِّ بَرْغَاطٍ بِلاَ إنْكَارِ
وطَهَّرَ اللهُ بِلادَ المغربِ	بِمَنْ بِها رابَطَ مِنْ كلِّ أبِي

وبعدما كانت سلا ورباطها في أول عهدها، قصبة الجيوش البرية، اصبحت في عهد عبد المومن وآله من بعده، مرسى من مراسي الدولة الموحدية البحرية، تُجهز منها الأساطيل الجهادية بقصد غزو افريقية، وفتح المهدية واسترجاعها من يد الصقليين.

فكانت تُصنع بها السفن، وكذلك بوادي سبو، ويُجلب إليها العود من غابة المعمورة، وتُرسل في الوادي بعد تجهيزها.

وفي ذلك يقول أبو عبد الله الدكالي السلاوي في رجزه المذكور :

ثُمَّ أتاها فَاتِحُ الأقْطارِ	ومُنْزِلُ الرَّوْع بكلِ دَارِ
أبو مُلُوكِ الدولةِ المُوَحِّدَةْ	فاتَّخذَ الرباط دَاراً مُنْجِدَةْ

ثم قال :

وجَعَلَ المَعْبَرَ دارَ صَنْعَةِ	لِسُفُنِ الأسْطُولِ خَيْرَ مَنْعَةِ
ثُمَّتَ أسَّسَ لَدَى وادي سَبُو	مَعَامِلَ الأجْفَانِ مِنْهَا يُعْجَبُ
فَأُنْشِئَتْ لَه بها المِئُونَا	وطَالَ عِزُّهُمْ بها سِنُونَا
واسْتَرْجعوا بها الثُّغُورَ الشَّاسِعَةْ	وافْتَتَحوا الأقاليم المُتَّسِعَةْ

وَحَصَدُوا الجُمُوعَ بِالأَرَاكِ   وهاجَمُوا الحُصُونَ بِالْعِرَاكِ
وكان جَيْشُهُم مَّعَ الأُسْطُولِ   يُرْهِبُ أَهْلَ العالم المَفْعُولِ

وكان سبب اختيار عبد المومن للعدوتين، هو موقعهما الجغرافي على مصب النهر في البحر، لكونه حاجزاً للسفن عن الاغارة من البحر على الاسطول، بخلاف سبتة التي لم يتوفر فيها هذا الشرط[218] وهكذا، فإنه لما غزا افريقية كان معه لما احتل تونس، سبعون قطعة من أسطوله تحت إمرة أميراله عبد الله بن ميمون[219].

ثم صاحبه هذا الأسطول، محاديا له في البحر، ينتقل بانتقال الجيش، كما كانت عادة الموحدين في حركاتهم وتنقلاتهم، حتى حاصر المهدية وانتصر على الأسطول الصقلي، مع أنه كان متفوقا عليه في العدد، إذ بلغ مجموعه مائة وخمسين قطعة.

وبكلمة جامعة فقد كان للعدوتين ذكر كبير وأهمية كبيرة ملحوظة في تاريخ دولة الموحدين، وكانوا يعتبرونهما كعاصمة من عواصم مملكتهم أو إمبراطوريتهم الواسعة الشاسعة للشمال الافريقي كلّه، من المحيط الأطلنطيقي إلى حدود مصر والأندلس إلى حدود جبال البيريني من وراء البحر.

وفي سلا، وفد على عبد المومن أهل الأندلس، وقد مرت أخبار وفاداتهم المتعددة عليه مستوفاة، وأين كان استقبالهم في أخبار بني عشرة.

وفي عهد عبد المومن أطلق على الرباط إسم "رباط الفتح" تفاؤلا بالفتوح الأندلسية، وكان قبل ذلك يدعى "رباط سلا" كما تقدم.

---

218) «الموحدون» لروني ميلي "René Millet" ص 80-81

219) الأميرال عبد الله بن ميمون، أصله من مدينة دانية من الأندلس. وكان من رؤساء الأسطول المرابطي في عهد الدولة المرابطية. وبنو ميمون كلهم رؤساء، ولما سقطت، فر بأسطوله إلى قادس، وانضم إلى الموحدين بأسطوله، وبسببه كانت مدينة قادس أول مدينة بالأندلس خطب بها لعبد المومن، وساعد عبد المومن في فتح افريقية وأعانه.

انتقال بعض الأسر الشهيرة
إلى سلا في عهد الموحدين

لما نازل أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن قفصة سنة ست وسبعين وخمسمائة (1180/576) وتغلّب على صاحبها علي بن عبد العزيز، أشخصه إلى مراكش بأهله وماله، ثم استعمله على الأشغال، بمدينة سلا إلى أن هلك بها، وفنيت دولة بني الرَّند، والبقاء لله وحده[220].

وقد صحبه في انتقاله هذا جموع كبيرة من حاشيته وذويه، واستقروا معه بها، ومنهم آل القلعي، نسبة إلى القلعة، وبنو حماد.

وكان نزولهم في أرباضها واجنتها، وعنهم اخذ السلاويون في ذلك العهد فَنَّ الزراعة، وكيفية ري البساتين واستغلالها، وتجند منهم بعد ذلك جمهور كبير في الجيوش السلطانية.

قلت : ومازال بقية من اعقاب ءال القلعي من الاسر المعروفة بسلا إلى الآن.

ويقال : انه في ذلك العهد، انتقل إلى سلا، من تونس وافريقية أسر أخرى، منهم ءال التونسي، وآل البغدادي، وكان نزولهم حول جامع الشهباء، والله أعلم.

هذا، وقد خلَّف الموحدون بسلا آثارا مهمة :

منها إحْداثُ دار صناعة الأساطيل البحرية بها، وسياتي الكلام عليها مفصلا في مآثر المرينيين بسلا، لأنهم هم الذين شيدوا معالمها وابرزوا للوجود مآثرها الخالدة الباقية المشاهدة بالعيان إلى اليوم.

ومنها :

المسجد الأعظم بطالعة سلا

من مآثر الموحدين الخالدة بسلا، وهياكلهم الشاهدة بعظم شانهم، وضخامة ملكهم على ممر الأجيال والدهور، المسجد الأعظم بطالعتها.

---

220) «ابن خلدون» ص 214 من المجلد الأول طبع الجزائر، و«الاستقصا» ص 162 من ج 1، طبع القاهرة. وص 106 من ج 3، لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001

وهذا المسجد هو العتيق بسلا، القديم جِدًا، أول مسجد أُسس بها قطعا يوم ابتداء عمرانها، أواخر الربع الأول من القرن الثالث الهجري، الموافق لأواخر العقد الرابع من القرن التاسع الميلادي، يعني منذ ما يزيد على ألف ومائة سنة تقريبا، بعد خراب شالة وانتقال بعض سكانها إلى العُدوة الشمالية لنهر أبي رقراق وتكتلهم على ضفتي الوادي لجهاد البرغواطيين كما تقدم.

ولا شكَّ أنَّ الذين أسَّسوه، هم أولئك المهاجرون السلاويون، إذ أول ما تهتم به جماعة تكتلت بموضع بقصد الاقامة والاستيطان : الأرحى والفرن، للضرورة الحيوية والإجتماعية، والمسجد لإقامة الفروض والشعائر الدينية. والدليل على وجود هذا المسجد في ذلك العهد، هو أن عشرة، جد بني عشرة، لما نزل بأهله وحشمه بسلا، بقصد الاستقرار – كما تقدم – أواسط الربع الأخير من القرن الرابع، وجده مبنيا، وبنى أهله وذووه وشيعته ديارهم بحومته كما في «الاستبصار».[221]

ولعلَّه كان مسجدا صغيرا بسيط البناء، حسبما تقتضيه الحاجة عند حدوث العمران الأولى، ولذلك أعيد تاسيسه وجدد بناؤه في زمن بني يفرن، وعهد إمارة الأمير أبي الكمال تميم بن زيري بن يعلى منهم، حسبما هو مكتوب بأعلى قوس العنزة المقابلة للمحراب والموالية للصحن الكبير الواسع المزلج.

وعليه، فهو أقدم من جامع الشهباء المتقدم ذكره ووصفه، المؤسس في عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وبمقتضى هذا، فهو العتيق، على التحقيق.

وقد زاره صاحب «الاستبصار» سنة أربع وسبعين وخمسمائة (574 / 1178) وأخبر عنه بأنه لم يبق منه سوى المنار، وأمَّا السقف كله، فمتهدم، واحتمى الغرباء بفنائه.[222]

والغالب على الظن انه لما تخرَّب وتهدَّم، نُقلَت الخطبة منه إلى جامع الشهباء موقتا، ولما تم إعادة بنائه وتجديده وأدمج في المسجد الأعظم الجديد، أعيدت الخطبة إليه من جديد، كما كانت في العهد الأول.

وكان الاهتمام بإعادة بنائه وتجديده، لمَّا مرَّ أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بسلا في إحدى تنقلاته الجهادية بِالْعُدْوَة الأندلسية، وشاهد انتشار العمران بالمدينة، ولاحظ

---

221) ص 140، طبع الاسكندرية.

222) ص 140، طبع الاسكندرية.

احتياجها إلى مسجد كبير يناسب تزايد سكانها المستمر، ولا تضيق رحابه بالمصلين، وخصوصا في الجُمَعِ والأعياد، وأيام اجتماع الغزاة والمجاهدين، لاسيما وقد كانت هي ورباطها في ذلك العهد مجتمع الجيوش الجرارة، البالغ عددها في بعض الأحيان، مائة ألف أو يزيدون، مع من ينضم إليهم من المرتزقة والجنود المتنقلة بين جنوب المغرب وشماله، والعابرة إلى الأندلس بقصد الجهاد والمرابطة في الثغور، زيادة على أنها كانت ملتقى الرُّكبان والقوافل الصادرة منها والواردة عليها من سائر الأقطار، لأن عبد المومن وآله كانوا ينظرون إلى مصب أبي رقراق نظرة خاصَّة، ويعتبرون موقعه الجغرافي من امبراطوريتهم الواسعة الأطراف اعتبارا سَتْراتيجيا ظهر أثره في اعتناء عبد المومن بالقصبة، وتأسيس حفيده يعقوب مدينته العظيمة رباط الفتح، حسبما تقدمت الإشارة إليه في موضوع آخر، فأمر حينئذ ببناء المسجد الأعظم الموجود اليوم، وأضاف إليه مدرسته الجوفية، وأُدْمج فيه المسجد القديم العتيق، الخرب المتهدم. وكان الشروع في البناء سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (593 / 1196)، وهي السنة التي أمر فيها بتأسيس مدينة الرباط.

ومن تأمل الآن الجانب الموالي منه للزقاق المؤدي إلى ضريح الشيخ أبي محمد عبد الله ابن حسُّون، تبين له أثر المسجد القديم الأول، وشاهد شواهده الظاهرة البارزة للعيان إلى الآن، وهو الجانب الخاص اليوم بالنساء. كما أدمج فيه من ناحية القبلة، قبالة الصّحن الذي به المنار، ضريح الشيخ أبي محمد المُراسي عبد الحليم الغَمَّاد، من رجال «التشوف»، المتوفى عام تسعين وخمسمائة (590 / 1193)، يعني قبل الشروع في بناء المسجد بنحو ثلاث سنوات فقط. وجعل مساحته باعتبار صحونه الواسعة، تزيد على خمسة آلاف وسبعمائة متر مربع، ورفع أقواسه وحناياه على مائتين وثلاث وثلاثين سارية مربعة الشكل، فجاءت أقواسا عالية فارهة، قُلِّدَ فيها الفن المعماري الگوتي الذي كان العمل جاريا به في معابد أوربا وهياكلها الضَّخمة، في القرون الوسطى، لأن العملة والمهندسين الذين كانوا مسخرين في بنائه ونقل حجارته وترابه، من الأسرى النصارى والأندلسيين البالغ عددهم سبعمائة أسير من أسارى غزوة الأرك في قيودهم وأغلالهم[223].

وفي «الرَّوض المعطار»، أنَّ المنصور لمَّا غزا بلاد الجوف، وحاصر ترجالة ونزل على بلنسية، وفتحها عنوة، قبض على قائدها يومئذ مع مائة وخمسين من كفارهم ووجههم الى خدمة الجامع الكبير بسلا مع أُسَارى الارك.[224] ولعله اراد ان يقابل عمله في هذا المسجد، بعمله في مسجد حسَّان في العدوة الاخرى المقابلة له.

---

223) «الاستقصا» ص 180، من ج 1 ، طبع القاهرة. والاستقصا، ج 3 ص 161، طبع وزارة الثقافة، سنة 2001.

224) ص 13، طبع القاهرة.

واضاف له عند بابه القبلي، في المحل الذي فيه اليوم بيت الاموات، محكمة القاضي، إذْ كان من عادة القضاة بالاندلس والمغرب ان يحكموا بالمساجد او بمحلات ملاصقة لها، ومضافة اليها، ولذلك كتب على واجهة الباب المذكور نقشا في الحجر، كما هو مشاهد إلى اليوم : «الحكم لله».

واتَّصل به من ناحية القبلة، مقصورة الخطيب، ودار الإمام، وخزانة الكتب ومستودع المنبر .

واتخذ بناحية باب الجوْف بيوتا للطهارة مستكملة الشروط، جلب لها الماء كما قيل، من عيون البرْكة، خارج سلا، في قنوات خاصة، وسياتي الكلام بمزيد بيان على هاته القنوات. واستمرَّ العمل به متواصلا مدة ست سنين، من سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (593 / 1196) إلى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة (598 / 1201). فجاء ءاية في الضخامة والعظمة والمهابة والجلل و سعة الرُّقْعة، لا نظير له في افريقية الشمالية كلها.

و ممَّا امتاز به، أن المتعبد والجالس فيه يجد انشراحا وخشوعا في قلبه وإقبالا زائدا على ربه، لا يجده في غيره من المساجد الأخرى، ﴿وإنما يَعْمُر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾.

و لمَّا تمَّ تشييده، و تحسينه وتنجيده، استدعى الخليفة، رحمه الله، العلامة أبا محمد عبد الله بن سليمان بن داوود ابن حَوْط الله، وولاَّه قضاء سلا وَأسْند إليه الخطبة به، والتدريس بمدرسته الجَوْفية المضافة إليه، فكان أول خطيب تسنَّم منبره وخطب به. وبعد ثلاث سنين نقله إلى ميورقة، وولَّى مكانه في الخطبة والقضاء، العلامة أبا الحسن علي بن الحسن الصدِّيني الفاسي. ثم توالى الخطباء فيه من الأعلام قرنا فقرنا وجيلا فجيلا.

و لم يزل محلَّ اعتناء الملوك في كل دولة وزمان يزورونه ويزيدونه تحْسينا وتزيينا، ويجددون ما تداعى من بنيانه، ويُبادرون إلى إصلاح ما احتاج إلى الإصلاح في زواياه وأركانه.

ومن ذلك أنَّ السلطان أبا الحسن المريني، لما بنى مدرسته الشهيرة المتصلة به، أدخل فيه إصلاحات وتحسينات مهمَّة :

– منها تَخْريم محرابه وقُبته، وتزويقهما بالجبس الملون بالألوان الجميلة، على عادة بني مرين في تحلية محاريب مدارسهم ومساجدهم بفاس وغيرها.

– و منها أنه لمَّا بنى سور الأقواس المحمول عليه الماء الداخل إلى سلا، وأوصله إلى مدرسته، جدَّد قنواته الداخلة إلى المسجد، وأصلح ما تلاشى منها، سواء بالحوض الرخامي (الخصّة) الذي بوسط صحنه القبلي، أو بيوت دار الوضوء المتصلة به.

ولأهمية هذا السور، والقنوات الجاري فيها الماء الداخل إلى سلا وهذا المسجد الأعظم، حبَّس السلطان المولى اسماعيل رحمه الله، دَخْل الحوت الشابل المصطاد بأبي رقراق على إصلاحها وتعاهدها كما سياتي.

وقد تبارى أهل الخير والإحسان، والثروة وصحيح الإيمان، من السلاويين في تحبيس الأحباس النافعة، والضِّياع المُغِلَّة، على هذا المسجد، حتى أصبح من أغنى مساجد المغرب، ليُصْرفَ ريْعُها في إصلاحه، كُلَّمَا دعت الحاجة إليه، ولتقوم بأداء أجور الموظفين الدينيين به، كالخطباء، والأئمة والمدرسين والمؤذنين وقُراء أحزاب القرآن الكريم، وتنوَّعت أحباسهم في ذلك، جزاهم الله خيرا.

ومن هذا القبيل أن أحد قواد بني حسن في العهد العزيزي، الساكنين بسلا، أبا عبد الله مَحمد الگدّاري، كان تبرَّع بقدر من ماله الخاص، في حدود سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وألف (1322 /1904) بقصد تزليج صحنه الكبير المواجه للقبلة، واشترك معه في هذا العمل المبرور، جلُّ أعيان سلا وكبار الموظفين بها، على يد قاضيها، الخطيب بها، العلامة أبي الحسن علي بن مَحمد عواد، حسبما وقفت على قائمة اسمائهم بخط يده، فتبرَّع كل واحد منهم بما طابت به نفسه، فزُلِّج وأُصلح، وزاد تزليجه المسجد رونقا وبهجة وجلالا وجمالا.

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف (1353 / 1939)، حصل في سقوفه تلاشٍ من طول الزمن، وتوالي القرون والأجيال، فأمر جلالة الملك المقدّس أبو عبد الله محمد الخامس بإصلاح المتلاشي، وتجديد المتداعي للسقوط منها، فأُصلحت وجُدِّدت، ورُمِّمت حيطانه كُلُّها، وجُبِّست، وفُتح فيه باب جديد في صحنه الموالي للزُّقاق المؤدي إلى ضريح الشيخ أبي محمد عبد الله بن حسُّون، وتم ذلك كلُّه على أحسن وجه وأكمله، فصارت الأبواب الكبرى ستة بعد أن كانت خمسة. وهناك أبواب أخرى صغرى كباب المقصورة، والباب الذي في صحن المنار، وباب بيت الأموات' ولا تفتح إلاَّ عند الحاجة في أوقات خاصَّة.

كما أُصلح ضريح الشيخ عبد الحليم الغمَّاد، وجُدِّدَ بابه وكُتب عليه أن وفاته كانت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة (592 / 1195)، مع أنَّها كانت قبل ذلك سنة تسعين وخمسمائة (590 / 1193)، كما في «الاستقصا»، وقد تقدم ذكر ذلك عند الكلام على التأسيس، وكان الصَّائر على ذلك كلِّه من الأحباس.

وفي عهد جلالة ملكنا، محيي معالم الدين، والمعتني بتشييد المساجد وعمارتها بسائر مملكته، أبي علي الحسن الثاني، أُعيد تجبيسه، وطلاء سقوفه، وجُعلت لأبواب أصْحُنه المتعددة الواسعة دفف زجاجية، تمنع المصلين من الحر والقر، ولا تمنع الضوء، ولا تحجب المنظر.

وأحدث بالصحن الموالي للمسجد القديم الذي هو مسجد بني عشرة، وهو الجناح الخاص بالنساء اليوم، بيوت للوضوء، خُصِّصَت لهنَّ، وأُجْري بها الماء.

وغرس بالصحن الموالي للزقاق المؤدي لضريح الشيخ أبي محمد عبد الله بن حسون بعض الأشجار الطيبة، فعطَّرت جوه، وزينت منظره، وقد جرى العمل بذلك قديما بالأندلس والمغرب، وتَمَّ إنجاز ذلك كله، سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وألف (1961/1381).

وأعيد النظر في كتبه المُحبَّسة بخزانته العلمية، فجُمع ما كان مُفَرَّقا منها بأيدي الناس، وأُعيد إحصاؤها، وجُدد نظامها.

وحيث كان هذا المسجد بهذه المثابة العظيمة والجلال، فقد كان الملوك يقدسونه، ويتبركون بالصلاة فيه، ويحترمونه ويزورونه كلما زاروا سلا وتَبرَّكوا بمشاهدها المباركة.

وممن حفظ التاريخ زيارته من الملوك لهذا المسجد وصلاته فيه :

– السلطان أبو عنان المريني لمَّا ارتحل إلى سلا، سنة سبع وخمسين وسبعمائة (1356/757) بقصد زيارة الشيخ أبي العباس أحمد بن عاشر، والاقتباس مما يفتح الله به عليه من وعظه وإرشاده، فحرص على الاجتماع به، وتردَّد عليه، ووقف ببابه مرارا فلم ياذن له، وترصَّده يوم الجمعة، بعد الصلاة بهذا المسجد.

ولما انفضَّ الناس تبعه على قدميه، والناس ينظرون إليه وهو لا يراه، فقال أبو عنان عند ذلك : لقد مُنعنا من هذا الولي، وأرسل إليه ولده مستعطفا، فأجابه بما قطع رجاءه من الاجتماع به، وكتب له نصيحة نصحه بها...[225]

– ومنهم السلطان المولى سليمان، رحمه الله ، فقد جاء في «الاستقصا»[226] أنه جاء من مراكش سنة ست وثلاثين ومائتين وألف (1820/1236)، ووصل إلى رباط الفتح، فعبر

225) «تحفة الزائر، ببعض مناقب الشيخ ابن عاشر»، لأبي العباس الحافي السلاوي، مخطوط الخزانة الناصرية، و«الاستقصا» ص 90 من ج 2، طبع القاهرة. وص 177 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

226) ص 161، من ج 4، طبع القاهرة. وص 190 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

إلى سلا، ونزل براس الماء، ولما حضرت الجمعة، دخل المدينة، فصلى بالجامع الأعظم منها، ودخل دار الحاج محمد بن عبد الله معنينو من أعيان أهل سلا، واستصحب معه الفقيه الموقت أبا العباس أحمد بن المكي الزواوي من أهل سلا.

وأخبرني أخونا العلامة القاضي الشريف أبو عبد الله محمد بن الطيب العلوي السلاوي، أن السلطان المولى سليمان لما زار سلا في التاريخ أعلاه، وصلى الجمعة في مسجدها الأعظم، دخل دار ابن عمه الشريف مولاي إدريس بن المرتجي بن اسماعيل التي كان بها سكنى أولاده، وأكبرهم مولاي الحسين الذي هو جدهم. وكانت هذه الدار تسمى دار معنينو بدرب معانة بسلا، قال : هذا هو المنقول والمقول في أسرتهم منذ القديم، يلقنه السلف للخلف.

– ومنهم السلطان المولى الحسن الأول، رحمه الله، فإنه لما قدم إلى الرباط سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف (1876/1293) دخل سلا[227] وزار أولياءها، ودخل مسجدها الأعظم، وصلى الظهر به، وأمَّهُ في صلاته العلامة أبو محمد عبد الله بن الهاشمي ابن خضراء السلاوي.

ودخل خزانة الكتب العلمية، وتأمَّلها، وكان معه قاضي سلا، العلامة أبو بكر بن محمد عواد، فطلب منه أن يزيد في شراء الكتب للخزانة المذكورة، فأذن له بأن يشتري من ذلك ما ثمنه مائة ريال، ففعل، وهي يومئذ بهذه الخزانة، ووصل علماء سلا ومجاهديها على العادة في ذلك.

وبمناسبة هذه الزيارة، مدحه والدنا العلامة مؤرخ المغرب أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، مؤلف كتاب «الاستقصا»، بقصيدته السينية التي يقول في مطلعها :

قَلْبٌ كَوَاهُ مِنَ النَّوَى مِقْبَاسُ فَغَدَا بِهِ الْوَسْوَاسُ وَالْخَنَّاسُ

إلى أن قال في المدح :

سَعِدَتْ بِمَقْدَمِهِ سَلاَ وَتَقَدَّسَتْ مُرَّاكِشُ الحَمْرَاءُ مِنْهُ وَفَاسُ

– ومنهم الملك المقدس، أبو عبد الله محمد الخامس، فقد صلى فيه الجمعة مرارا متعدِّدة قبل الاستقلال وبعده، لما تَمَّ إصلاحه، وجُددت سقوفه، وكان ينتابه منفردا مختفيا في أوقات مختلفة من ليل أو نهار، متبركا بالصلاة به والدعاء فيه.

---

227) «الاستقصا»، ص 248 من ج 4، طبع القاهرة. وص 170 من ج 8 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

– وكذلك جلالة نجله ملكنا المعظم، أبو علي مولانا الحسن الثاني، فقد أدّى فيه صلاة الجمعة، بعد انعقاد بيعته، وصلاّها فيه مرة أخرى بغير صفة رسمية.

وهكذا كان هذا المسجد الجامع، منذ أُسس من أول يوم على تقوى من الله ورضوان، مقصد الملوك والأمراء والأعيان، على ممر الدهور والأزمان.

وقد درج فيه، وتخرّج منه خلق لا يحصى، ولا يحصر عدده ولا يستقصى، من العلماء وأئمة الدين، وحملة الشرع، بهذا البلد الأمين، وءاوى إليه، وصلى بين أساطينه، واعتكف في زواياه وأركانه، الجَمُّ الغفير، والجمهور الكثير من الأولياء والصالحين، ذوي المرتبة العليا في التَّصوُّف، والقدم الراسخ في الدين، أمثال أبي العباس ابن عاشر، وابن عبَّاد، وأبي سرحان مسعود أجَمُّوع، وأبي محمد عبد الله بن حسُّون، وأبي العباس أحمد حجي، واضرابهم. وقرأ به وأَقْرَأَ الجهابذة الاعلام، مثل ابن حوط الله، وأبي علي الصدِّيني، وابن العجوز، وابن الخطيب السلماني، وأبي عفَّان عثمان بن أحمد التَّواتي، وأبي عبد الله بن قاسم زنيبر السلاوي، وأبي العبَّاس أحمد السَّدراتي.

ومن المتأخرين : أبو عبد الله محمد بن العزيز محبوبة، وأبو بكر بن مَحمد عواد، وأبو العبَّاس أحمد بن خالد الناصري، وأبو محمد عبد الله بن الهاشمي ابن خضراء، وأبو الحسن علي بن محمد عوَّاد، وأبو العبَّاس أحمد الجريري، وغيرهم ممن لا يحصى كثرة، وكلهم درّس فيه أنواع العلوم الشرعية، من فقه وأصول، وحديث وتفسير وسيرة نبوية، وغير ذلك من الفنون العربية، والرياضية والفلسفية.

وتعاقب على منبره، الخطباء العلماء والوُعَّاظ والمرشدون اللُّسْنُ الفصحاء، فنصحوا لِلّهِ ورسوله، وفتح الله بهم قلوبا عميا، وءاذانا صُمّا، وكتب الله ذلك في سجلات حسناتهم المبرورة، ومساعيهم المشكورة.

وكان لا يتولَّى الإمامة في محاريبه، منذ تأسيسه إلاَّ من عُلِم عِلْمه، وثبت فضله واستقامته، واشتهر بالنزاهة والعفاف والتقوى، والتمسُّك من الدين، بالحبل المتين، والسبب الأقوى، حسبما وقفنا عليه في تراجم بعضهم وظهائر توليتهم الشاهدة لهم بذلك.

وزيادة على هذا، فقد كان هذا المسجد الأعظم، بهذا الثغر السلاوي، منذ وجوده، ملجأ اللاَّجئين، ومأوى الخائفين، ومثوى السَّاجدين والرَّاكعين، ومجتمع المدبِّرين بسلا لأمور الدنيا والدين.

فكانوا إذا نزل بهم حادث، أو طاف بساحتهم طائف، فزعوا إليه واعتصموا به، واحترموا بحرمه.

وقد نَصَّ ابن عذاري في تاريخه[228] على أن الإصبان لما احتلوا سلا واستباحوها في الوقعة العظيمة الشهيرة، سنة ثمان وخمسين وستمائة (658/ 1259)، التجأ السلاويون إلى المسجد الأعظم، واعتصموا به إلى أن فَرَّج الله عليهم.

وهكذا، كانت عادتهم إذا حزبتهم حوازب الخطوب، لجئوا إليه إمَّا للاستشارة، أو الدعاء والاستخارة، وإمَّا لإحْكام الخُطة التي يجب اتباعها، والطريق التي يتعيَّن سلوكها، وتجديد التَّوبة، واستجلاب رضا الله سبحانه في كشف الحوْبة، فيستجيب الله دعاءهم، ويفرج في أقرب وقت كربتهم.

وقد كان هذا المسجد – وما بالعهد من قدم، أيام المحنة الأخيرة – مجتمع السلاويين، وناديهم الأمين، وحصنهم الحصين، يجتمعون فيه، ويتداولون فيما ياتونه ويدرونه، ولا تقدر الشرطة أن تنتهك حُرمته.

ويكفي أنه لما ظهر الظهير البربري، وتألم الناس منه، وتكلَّموا فيه، ولم تكن لهم قدرة على المقاومة، إلا التَّوسل أو الدُّعاء، كان هذا المسجد الأعظم دار ندوتهم، وبرلمان نوابهم.

وفيه تقرر ذكر اسم الله تعالى اللطيف، فذكر فيه، وأَمَّتْهُ الجموع، وسكبتْ فيه الدموع، وابتهل إلى الله سبحانه بذل وخشوع، وإنابة وخضوع، وإقلاع عن الذنوب ورجوع، مع صدق التوجه في السجود والركوع، فثبَّتهم الله بالقول الثابت في موقفهم الحاسم، ولم تمتدَّ إليهم يد شرطي ولا حاكم، ومنه برز واشتهر، وعمَّ مساجد المغرب كلها وانتشر.

وبقول جامع، فإن هذا الجامع، بيت من بيوت الله، التي اذن الله أن تُرفع، ويُذكر فيها اسمه تعالى، وتُصان حرمتها وتُمنع، ﴿يسبح لله فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

---

228) ص 224 من ج 3. طبع تطوان.

المنار

كان المنار الموحدي الذي شُيد مع المسجد، قائما صالحا، تعلى فيه كلمة الله، ويؤذن فيه للصلاة، مدة قرون وأجيال متطاولة، إلى أن أصابته صاعقة في عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، رحمه الله، تداعت لها أركانه، وتزعزع بنيانه، فأمر، رحمه الله، بنقضه وإعادته جديدا، فأعيد على هيئة متقنة أحسن مما كان وأعظم.

وأُنْفِقَ عليه بواسطة أُمناء مرسى العدوتين، ثلاثة آلاف مثقال وأربعمائة مثقال وأربعة وعشرون مثقالا، وست آواق، وثلث الأوقية، والريال الكبير يومئذ من سعر عشرة أوقية. وكان جل الصائر من بيت المال، وأقله من مال الحبس، سنة ست وخمسين ومائتين وألف (1840/1256) .

وكان يتولى النظارة يومئذ والقيام على البناء، عامل سلا، الابر الأخير، السيد الحاج أحمد بن محمد ابن الهاشمي عواد[229].

وفي العهد الأخير أصلحت درجه وأعيد تسويتها.

المدرسة الجوفية
وهي المحمدية اليوم

أمَّا المدرسة الجوفية التي بناها بانيه، السلطان أبو يوسف يعقوب، رحمه الله تعالى، وأضافها إليه، فقد كانت قائمة برسالتها في عهده وبعده.

ومن جملة من كان يُدَرِّس العلم بها، العلامة القاضي، الخطيب به، أبو محمد عبد الله ابن حوط الله، كما تقدم، ودرَّس بها «كتاب» سيبويه و«المستصفى» للشيخ أبي حامد الغزالي، وغير ذلك من الكتب النافعة المهمة، وكان يميل إلى الاجتهاد، ويُغَلِّب جانب الظاهرية، وإلى ذلك يشير الشيخ أبو عبد الله ابن علي الدكالي في رجزه بقوله :

يَدْرُسُ أَعْلاَ الْكُتْبِ فِي كُلِّ سَنَنْ ... وَمَالَ لِلظَّاهِرِ عَنْ قَصْدٍ حَسَنْ
وَكَانَ ذَا تَمَسُّكٍ بِالسُّنَّةِ ... مُجَانِبًا كُلَّ هَوًى وبِدْعَةِ

229) «الاستقصا»، ص 194 من ج 4. طبع القاهرة. وص 57 من 8 طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

تم تعطلت بعد ذلك وأهملت، فتداولتها الأيدي، وصارت مربطاً للدّواب.

وفي السّنين الأخيرة من عهدنا هذا، انتزعها أولو الأمر ممّن كانت بيده، وجُدِّد بناؤها على هيئة المدارس العصرية، وصارت مدرسة حُرّة تدرس فيها مبادئ العربية للصّبيان في الطّور الابتدائي، وأطلق عليها اسم «المدرسة المحمّدية».

وكان ابتداء خرابها لما نزل الإصبان بسلا في الوقعة المعلومة سنة ثمان وخمسين وستمائة (658 / 1259).

تحبيس الحوت الشابل على إصلاح قنوات الماء الداخل للمسجد الأعظم بسلا

الشّابل، بصيغة إسم الفاعل، في اللّغة، الاسد الذي اشتبكت أنيابه، والغلام الممتلئ نعمة وشبابا، وولد الأسد، إذا أدرك الصيد، جمع أشبّال وأشبُل، وشبُول وشبَال.

وفي عُرْف المغاربة، يُطْلق على سمك بحري، يَقْصِد الماء الحلْو بالأوْدية في فصل الربيع. قالوا : وربّما بلغت الواحدة منه نحو المتر طولا. وهو موجود بكثرة في أودية المغرب، كأم الربيع وسَبُو، وأبي رقراق. والمغاربة يستطيبون أكله. ويرغبون فيه، لأنّه لذيذ، شهي، ولحمه قوي طري.

ويبتدئ موسم اصطياده عادة في شهر أكتوبر، ويمتدُّ إلى آخر فصل الشتاء، بكيفية معلومة عند المختصين باصطياده، بالشباك والحواجز والسدود التي يقيمونها في المشارع التي يكثر فيها في مجرى الوادي بقبيلة السهول.

وقد تقدّم لنا أن السلطان أبا يوسف يعقوب المنصور الموحدي، لما أتم بناء المسجد الأعظم بسلا، جلب له الماء من عيون البركة خارج سلا، في قنوات خاصة.

وسيأتي أن السلطان أبا الحسن المريني، لما بنى مدرسته الملاصقة له، وجَلَبَ إليها الماء من عيون البركة المذكورة أيضا بواسطة سور الأقواس المحمول عليه الماء الداخل إلى سلا، جدّد قنوات المسجد الأعظم و أجراه به.

والظاهر أنَّ هذا الماء الداخل إلى سلا، في عهد بني مرين، كان خاصًا أو مقصورا على المسجد والمدرسة، ولم يعمَّ المدينة كلها، بدليل قول ابن الخطيب في مقامة «المفاخرة بين مالقة وسلا» :[230]

---

230) ص 59 طبع الاسكندرية.

و«الماء بها معدوم (يعني بسلا) وليس له جُبٌّ معلوم، ولا بير بالعذوبة مرسوم».

وقد كان هذا الماء جاريا بالمسجد الأعظم، إلى زمن السلطان المولى إسماعيل. إلاَّ أنَّه كان يحصل فيه انقطاع، ويتعذَّر الوضوء على المصلين والمتعبِّدين به، بسبب فساد القنوات الجاري فيها، لقلَّته، أو لعدم إصلاحها وتعاهدها من حين لآخر.

وحيث كان هذا الإصلاح أو التَّعاهد يتطلَّب نفقات أو أحباسا خاصَّة يُنفق من وفرها عليه، كلما احتيج إلى ذلك، خصَّص رحمه الله، أولا على ما يظهر، ربع دخل الحوت الشابل المصطاد بالمشارع التي بوادي أبي رقراق لإصلاحها، وكان كثيرا جداً.

قد ذكره في «الاستبصار»، لمَّا وصف الجسر الموحدي على أبي رقراق، فقال :[231] وحوله يتصيد أنواعُ السَّمك والشَّابل .

وقال ابن الخطيب في «معيار الاختيار، في ذكر المعاهد والديار» :[232] "وكفى بالشابل رزقا طريا، وسمكا بالتفضيل حريا. يبرز عدد قطر الديم، ويعم حتى المدا شر النائية والخيم..." إلخ.

وقد كان هذا في زمن ابن الخطيب وبعده، إلى زمن المولى إسماعيل وبعده. أمَّا في زمننا هذا، فقد قلت كمية الشابل المصطاد بِأَوْدِيَةِ المغرب على العموم، بالنسبة لما تقدم، بسبب بناء القناطر والسدود الحابسة للمياه، والمحركات الكهربائية، كما هو مشاهد.

ولا ندري، كيف كان تخصيص الرُّبع الأول، هل بتحبيس خاص أَوْ باتفاق مع أهل سلا والمنتفعين باصطياد الشابل من واديها، لأن الأودية ومجاريها من الاملاك العامة التي ينتفع بها سائر المسلمين.

ثم انه لمَّا رأى، رحمه الله ، قلة الماء في المسجد، واحتياج قنواته إلى الإصلاح والتجديد المتجدد، وعدم كفاية ما خُصص لها من الرُّبْعِ من رَيْعِ حوت الشابل، أمر بإضافة الأرباع الثلاثة الباقية إلى الربع الأول، وحبَّس الجميع بظهير شريف على إصلاح قنوات المسجد المذكور بسلا خاصة، وجلب الماء إليه في قادوس خاص، وأمر بأن يصلح ويتعاهد بالبناء وغيره.

وبسط النظر والتصرف في هذا الحُبُس، لناظر الأحباس العامة والخاصة بسائر مملكته، الأمين أبي عبد الله محمد الكاتب الأندلسي.[233]

---

231) ص 141، طبع الاسكندرية.

232) ص 105، طبع الاسكندرية.

233) كان هذا الكاتب في الدولة الإسماعيلية بمنزلة وزير عموم الأوقاف اليوم.

ونص الظهير الشريف المذكور

كما هو مسجل بالحوالة الإسماعيلية ، للأحباس الكبرى السلاوية :[234]

الحمد لله.

نسخة ظهير كريم، وكتاب مولوي جسيم، وأَمْرٍ مؤكَّد صميم، والطابع الشريف الذي ضمن إسمه المبارك المنيف، بين سطري الحمدلة والافتتاح، نصه :

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

عن الأمر العلي، والاذن المولوي، الامامي، السلطاني، المؤيدي، المنصوري، أمير المومنين، إسماعيل بن الشريف الحسني، أيد الله أوامره، وخلَّد في الصَّالحات مآثره الدينية، ومعالمه الزكية، ومفاخره، آمين.

يتعرف من يقف على مسطورنا هذا، المحفوف باليمن والاقبال، الطالع في سماء معالي التعظيم ومراقي الإجلال، من القضاة والنظار، وأهل المعرفة بالأحباس ومصارفها، ومرافقها، أنَّنا لمَّا ثبت عندنا، أنَّ من المرافق الكبيرة، والمصالح الأثيرة الخطيرة، بمحروسة سلا، كلأها الله وصانها، جلْب الماء الخارج عن سورها، من العين التي هنالك إلى مسجدها الأكبر بأعلاها، بقادوس يخُصُّه، وأنَّ ذلك يتوقَّف على التعاهد بالبناء والعلاج بالاتقان.

اقتضى نظرنا السديد، أنْ صرفنا على ذلك كله، جميع مستفاد المشارع التي بوادي مرساة سلا، الفاصل بين عدوتيها، المعداة لاصطياد الحوت في جميع الأماكن المعروفة هنالك بالوادي المذكور، على أن يكون جميع ذلك قبالة الماء المذكور، للمسجد المذكور، بالرُّبع الذي كان قبل هذا لإصلاح السَّاقية التي هنالك، يُضاف للثلاثة أرباع الباقية للماء المذكور، ويُصْرَف الجميع المذكور خاصة في إيصاله وإصلاحه وتعاهده بالبناء وغيره، من جملة أوقاف المسجد المذكور، محترم باحترامها، حبسا مؤبَّدا، ووقفا مخلَّدا، لا يبدل عن حاله، ولا يُغَيَّر عن سبيله، ومن بدَّل أو غيَّر، فالله حسيبه وسائله، وولي الانتقام منه.

وما كان من إصلاح الساقية من ربع المشارع المذكورة، يصير الآن من أوقاف المسجد المذكور، حيث أضفناه للأرباع الباقية، وجعلناها مصرفا واحدا.

---

234) مخطوطة.

وبسطنا لناظر الأحباس، العامَّة والخاصَّة لسائر ايالتنا السّعيدة، الأمين، العارف، الفقيه، السيد محمد الكاتب الاندلسي، يَدَ الحَوْز والتَّصرف فيما حبَّسناه، يُصرف خراجه فيما عينَّاه، بسطا كليا من غير منازع ولا معارض.

وحسب الواقف عليه من القُضاة والعُدول إمضاؤه، والاشهاد بما فيه، وتدارك تسطيره بديوان الاحباس، وحياطته بتلافيه.

والسلام.

في فاتح جمادى الأولى من عام ثلاثة عشر ومائة وألف (1 جمادى I 1113 / 14 أكتوبر 1701)

وبعده :

انتهت. قوبلت بأصلها فَمَاثَلَتْهُ، واطلعها (كذا) الفقيه الاجل، العلامة الأكمل قاضي عدوة سلا ونواحيها، وخطيب جامعها الأعظم، وهو : محمد بن سعيد المصوري (بشكله) أعزه الله وحرسها، وعاين حفظه الله الاصل المنتسخ منه، فثبت عنده، وصحَّ لديه، ونقلها إلى هنا من عاين الرسمَ المنتسخ منه، وشاهد في صدره الطابع الكريم فعرفه وتحقَّقه من غير شك ولا ريب. وهو وفقه الله ودامت كرامته، بمجلس حكمه وقضائه، ومحل نظره، وبحيث يجب له ذلك من حيث ذكر.

وفي أواخر جمادى الأولى عام ثلاثة عشر ومائة وألف (أواخر جمادى الأولى 1113 / أكتوبر 1701) : العدلان بشكليهما.

وبعدهما :

الحمد لله.

رفع على خط الشاهدين لموتهما عدل فقبل. وأعلم به عبد الله تعالى : بناصر معنين، (بشكله)

وبعده :

الحمد لله.

الشكل بالخطاب أعلاه للفقيه السيد بناصر معنين، كان رحمه الله متوليا خطَّة القضاء بسلا حرسها الله، يفصل بين خصومها، ويخاطب على رسومها، إلى أن تُوفي بوصفه

المذكور، في علمه. قاله عارف شكله مُعرِّفا به في ثامن عشر شعبان المبارك عام خمسة وثمانين ومائتين وألف (18 شعبان 11/1285 دجنبر سنة 1868) شكل العدل المعرف.

وبعد صدور هذا الظهير الشريف، المتضمن لإضافة الأرباع الثلاثة للربع الأول، من ريْع الحوت الشابل المصطاد من مشارع أبي رقراق، وقع الشروع في إصلاح القناة وبناء قادوس خاص لجلب الماء إلى المسجد، ثُمَّ تبين أن دخل الشابل المذكور لا يفي بالنفقة الكبيرة التي يتطلبها عمل كبير كهذا، فاجتمع أعيان سلا من ذوي المعرفة والرأي، ورفعوا موجبا للسلطان المولى إسماعيل بمكناس يطلبون فيه منه الاذن لهم في صرف ما يفضل من دخل الأحباس بعد أداء أجور الموظفين الدينيين بالمسجد المذكور على إتمام عمل جلب الماء إليه.

ونص الموجب الذي رفعوه :[235]

الحمد لله.

وقف شهوده الموضوعة اسماؤهم عقب تاريخه، وهم جماعة أعيان سلا... وغيرهم على عين خدمة بناء الماء المجلوب من القبة خارج المدينة المذكورة الذي أمر بجلبه سيدنا أدام الله نصره، وأطلع في سماء المعالي شمسه وبدره، للمسجد الأعظم من مدينة سلا المذكورة، وسعى في وصوله إليه، رجاء تحصيل ثوابه العظيم، تقبَّل الله منه ذلك، وجعله عليه حسنة جارية لا تنقطع إلى يوم الدين، فنظروه نظرا شافيا، واختبروه اختبارا كافيا، وعاينوا ذلك البناء المتقن البديع الذي جئ به على أحسن هيئة وأفضل صنيع، وتَطوَّفوا به يمينا وشمالا، فاقتضى نظرهم السديد، ورأيهم الموفق الرشيد، وظهر لهم أن هذا البناء الموجود الآن في غاية ما يكون من الصلاح والإتقان والاستقامة، وأنَّ استمرار الخدمة على هذا العمل بالمال المعين من الجانب العلي بالله من مستفاد مشرع الحوت، يُرْجى بلوغ الماء معها لا محالة للمسجد المذكور. وأنَّ من الصلاح والسداد الذي اتفقت عليه آراؤهم أن يستعان على ذلك بوفر الأحباس لينتفع به إن شاء الله الخاص والعام من الناس، وأن كل ما فضل عن إقامة المسجد، ومُرَتَّب أهل الوظائف، أولى وأحق أن يصرف في ذلك زيادة على ما ذكر، ومنفعته أعظم إن استعمل هنالك، وأنَّه لا ضرر على المسجد في صرف وفره فيه.

كل ذلك في علمهم وتحققهم لا يشكُّون فيه. وقيدوا على ذلك شهادتهم مسؤلة منهم.

---

235) الحوالة الاسماعيلية للأحباس الكبرى بسلا، مخطوطة.

وفي الثاني عشر من ذي الحجة عام سبعة عشر ومائة وألف (12 ذو الحجة 27/1117 مارس سنة 1706).

- السيد عبد العزيز فنيش
- المكرَّم أحمد بن علي امْعَدَّل
- المُسِنُّ الحاج عبد الرحمان مَعْنِينُ
- الأمين الحاج أحمد الصبايحي
- المكرَّم الحاج علي المديوني
- المكرم الحاج عبد الله العَوْفي
- الفقيه السيد مسعود الزمُّوري
- السيد علي بن الفقيه السيد محمد الشَّمَّاخ
- المكرم الحاج عبد الرحمان بوحميدة
- المكرم الحاج محمد جغالف
- المكرم عبد العزيز بنعيسى
- السيد الحاج عبد الرحمان يشُّو
- المكرم الحاج الخضر ولَعْلُو
- المكرم الحاج عبد الله بن الحسن
- المكرم الحاج عبد الرحمان المريني
- المكرم الحاج موسى النجار
- المكرم الحاج حَدُّو زنبير
- الارضى السيد محمد بن فارس الشَّريف
- المكرم الحاج أحمد بوشنتوف
- المكرم محمد بن سعيد الماسِّي
- الحاج حَمُّو بن الحسن

شهدوا لدى من قدّم لذلك بموجبه فثبت

الحمد لله .

أشهد الفقيه الاجل العلامة الأكمل، المدرس البركة، قاضي مدينة سلا وخطيب جامعها الأعظم في حينه وهو. . .

أعزه الله تعالى وحرسها بثبوت الرسم أعلاه الثبوت التّام بصحته عنده، وثبوته لديه بواجبه، وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر، وفي التاريخ أعلاه، العدلان بشكليهما.

الحمد لله

أعلم باستقلاله بعد الأداء عبد ربه تعالى...

ولمّا رُفع هذا الموجب للحضرة السلطانية بمكناس، أحالته على قاضي الجماعة بها العلامة أبي عبد الله محمد أبي مدين بن حسين السُّوسِي، فوافق على ما طلبه أهل سلا من صرف ما يتوفّر من أحباس سلا على إكمال إجراء الماء إلى مسجدها الأعظم وحَرَّرَ بذلك وثيقة شرعية نصها :[236]

الحمد لله.

لمّا طولع الفقيه الأجل، العلامة الأفضل، المدرس البركة، الحافظ الحُجَّة، المحدث الراوية، الخطيب البليغ، قاضي الجماعة بالحضرة الهاشمية محروسة مكناسة، ومفتيها وإمامها، وهو : محمد أبو مدين بن حسين السوسي أعزه الله تعالى وحرسها بما سطر بمحوّله من شهادة الجم الغفير، والعدد الكثير، من أعيان محروسة سلا، أمّنها الله تعالى، من أعيان العدول وغيرهم، بأنّ في تصيير وفر حبس مسجد الثغر المذكور عمّره الله تعالى بدوام الذكر فيه، في الماء المجلوب لها، حسبما ذكر وسطر بمحوله صلاحا وسدادا، وذلك من الأمر الواجب المتعين لما فيه من المصلحة العامّة، خصوصا وظيفة الدين التي يجب القيام بها شرعا، وأمعن النظر فيه كما يجب، وثبت لديه حفظه الله تعالى بموجب الثبوت، أذِنَ سدّده الله تعالى لمن له القيام بذلك فيما ذكر من تصيير الوفر المذكور فيما ذكر على الوجه المذكور، لما ثبت عنده حفظه الله تعالى من المصلحة المذكورة المشهود بها حيث أُشير، ووافق

236) الحوالة الإسماعيلية للأحباس الكبرى السلاوية، مخطوطة.

على ما يصير فيه إذْناً وموافقة تأمين، شهد به على من ذكر، دامت كرامته، وهو أكرمه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر.

وفي أواسط المحرم الحرام فاتح عام ثمانية عشر ومائة وألف (أواسط المحرم 1118/ أواخر مارس 1706).

عبد الوهاب العرائشي وفقه الله، مسعود بن عبود وفقه الله.

انتهت. قابلها بأصلها فَمَاثَلَتْهُ، وأشهده الفقيه الأجل، العلامة الأفضل، المدرس البركة، قاضي الجماعة بمدينة سلا، وخطيبها وهو...

أعزه الله تعالى وحرسها بثبوت الرسم عنده الثبوت التام، لصحته عنده، وثبوته لديه بواجبه، وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر.

وفي السادس من صفر الخير من العام الثامن عشر بعد المائة والألف (06 صفر 22/1118 ماي 1706).

ولمَّا اطَّلع قاضي سلا على إذن قاضي الجماعة بمكناس، في استعمال وفر الأحباس، في النفقة على إتمام العمل في جلب الماء إلى المسجد في قادوس أو قناة خاصة، أقام موجبا من اشياخ البصر، والمعلِّمين البنَّاعين والنجَّارين، بأن العمل الجاري في جلب الماء من المصالح العامة، وان الخدمة فيه تسير باستمرار وإتقان، جاء فيه :[237]

الحمد لله.

وقف شهوده الآتية أسماؤهم عقب تاريخه، وهم من أشياخ البصر المعلِّمين البنَّائين والنجَّارين لأحجار البناء وخُشُبه على عين بناء الماء الجاري المجلوب من القبة خارج مدينة سلا، حاطها الله تعالى، الذي أمر بجلبه مولانا أمير المومنين، أدام الله له النصر والتأييد، وأعلا في منار العز أُفُقَه السعيد، للمسجد الأعظم من المدينة المذكورة، وسعى في وصوله إليه، ورجا أن يكون ثوابه قاصرا عليه، تقبل ا لله ذلك منه، وجعله عليه حسنة إلى يوم الدين.

وسُئل منهم اختبار البناء المحدث الآن لجلب الماء، وهل في ذلك صلاح وسداد، واتقان ورشاد، فأجابوا إلى ذلك، ونظروه نظرا شافيا، واختبروه اختبارا كافيا، فظهر لأهل المعرفة المذكورين، بدليل معرفتهم، وما أدَّاه إليه اجتهادهم، وإليهم المرجع في علم ذلك بمحروسة

237) الحوالة الإسماعيلية، للأحباس الكبرى السلاوية، مخطوطة